

النُّوْبُ الْبَاهِرَةُ

مِنْ

كَلَامِ الْعَمَلِ لِقَاهِرَةِ

تَفْسِيرُ جُزْءِ عَمِّ

الْجُزْءِ الثَّلَاثُونَ

تَأَلَّفَ

فِيصَلِّ بْنِ حَايِدِ بْنِ مُحَمَّدِ الْخَطَّابِيِّ

تَوْزِيعَ

مَكْتَبَةِ السَّوَادِيِّ لِلتَّوْزِيعِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البؤنة الباهرة
من
كلام العجائب القاهرة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

توزيع

مكتبة السواحي للتوزيع

ص.ب: ٤٨٩٨ جلة ٢١٤١٢

هاتف/ ٦٨٨٤٢١٢ ناسوخ: ٦٨٧٨٦٦٤

المملكة العربية السعودية

الفهرس

| الصفحة | الموضوع |
|--------|------------|
| ٥ | ○ النبا |
| ١٩ | ○ النازعات |
| ٣٥ | ○ عبس |
| ٤٤ | ○ التكوير |
| ٥٤ | ○ الانفطار |
| ٦٢ | ○ المطفيين |
| ٧٨ | ○ الانشقاق |
| ٨٥ | ○ البروج |
| ٩٥ | ○ الطارق |
| ١٠٠ | ○ الأعلى |
| ١٠٨ | ○ الغاشية |
| ١١٧ | ○ الفجر |
| ١٣٦ | ○ البلد |
| ١٤٢ | ○ الشمس |
| ١٤٦ | ○ الليل |
| ١٥٠ | ○ الضحى |
| ١٥٩ | ○ الشرح |
| ١٦٦ | ○ التين |
| ١٧٢ | ○ العلق |
| ١٨١ | ○ القدر |
| ١٨٦ | ○ البينة |
| ١٩١ | ○ الزلزلة |
| ١٩٧ | ○ العاديات |
| ٢٠١ | ○ القارعة |
| ٢٠٥ | ○ التكاثر |

| الموضوع | الصفحة |
|------------|--------|
| ○ العصر | ٢١١ |
| ○ الهمزة | ٢١٤ |
| ○ الضيل | ٢١٨ |
| ○ قريش | ٢٢٤ |
| ○ الماعون | ٢٢٨ |
| ○ الكوثر | ٢٣٢ |
| ○ الكافرون | ٢٣٥ |
| ○ النصر | ٢٣٨ |
| ○ المسد | ٢٤٨ |
| ○ الإخلاص | ٢٥٢ |
| ○ الطلق | ٢٥٥ |
| ○ الناس | ٢٥٩ |
| * الفهرس | ٢٦١ |

سُورَةُ النَّبَاِ

مكية وآياتها أربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾^(١) ﴿١﴾ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِ تُخْتَلَفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سِعْيَاهُمْ
 ﴿٤﴾ نُوْ كَلَّا سِعْيَاهُمْ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا
 ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِّيَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَدَّلْنَا
 قُوفَكُمْ سُبُعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً نُّجَّاجًا ﴿١٤﴾
 لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلْنَا أَلْفَاظًا ﴿١٦﴾

تمتاز السور المكية غالباً بقصر الآيات والسور وإيجازها وحرارة تعبيرها والدعوة إلى أصول الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، والبعث والجنة والنار، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، والاستقامة على الخير، ومجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم.

وهذه السورة الكريمة نزلت على الرسول ﷺ بمكة في مجتمع جاهلي ضال لا يؤمن ببعث ولا نشور ولا حساب، ففقررت أمر البعث، وهددت المنكرين له، وأقامت الأدلة على إمكانه بما عرضت من مظاهر القدرة التامة، وأكدت حصوله، وذكرت بعض علاماته، ثم ذكرت مآل الكافرين ومآل المؤمنين، وحثمت بذكر هول يوم القيامة على وجه الإنذار والتخويف حتى إن الكافر يتمنى أن يكون تراباً ولا يواجه الحشر والحساب، وفي ذلك موعظة عظيمة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

(١) ﴿عَمَّ﴾ وقف عليها بهاء السكت يعقوب والبيزي بخلف عنه.

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي عن أي شيء يسأل هؤلاء الجاحدون بعضهم بعضاً؟ وأصل «عم»: عن ما، فأدغمت النون في الميم وحذفت ألف ما، كقولهم: فيم، بم، والإدغام مسوِّغ الاستفهام، وليس المراد مجرد الاستفهام، وإنما المراد تفخيم الأمر وتعظيمه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت تجلس قريش لما نزل القرآن فتتحدث فيما بينها، فمنهم المصدق ومنهم المكذب به فنزلت ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾. اهـ.

وهذا يعني أنهم كانوا في جدل عقيم، وتنازع فيما بينهم أو فيما بينهم وبين الرسول ﷺ أو المؤمنين، وقد قال بعضهم: هو سحر أو شعر أو كهانة، وكل ذلك ينبي عن شدة جهلهم وشكهم واستبعادهم للبعث بعد الموت، حتى إن قائلهم قال: ما هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر، فأنكر الله تعالى على المكذبين منهم هذا الجدل والخوض ارتياباً في البعث فقال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، ثم أجاب عن هذا السؤال بقوله: ﴿عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ﴾ الذي هو فيه مختلفون، النبأ العظيم هو الخبر الكبير الهائل، والمراد هنا خبر البعث، ويشمل كل ما جاء به النبي ﷺ من البينات والهدى والقرآن وخبر البعث بعد الموت والحشر والحساب، فكان الناس في هذا النبأ العظيم بين مصدق ومكذب وشاك، فأما المصدق فقد فاز وأفلح؛ وأما المكذب والشاك فقد ردَّ الله تعالى عليهم متوعداً بقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ردع لهم وزجر، أي ليس لهم أن يختلفوا في أمر البعث بعد الموت، فهو حق لا ريب فيه، وكل ما جاء به الرسول محمد ﷺ حق، وكذلك جميع رسل الله تعالى ﷺ جاءوا بالحق الذي بعثهم الله به، فلماذا الاختلاف ولماذا التساؤل؟ ألا فليرتدعوا عن هذا التساؤل وهذا الاختلاف، وليؤمنوا بالله ورسوله وما أنزل عليه، وهذا يستلزم الإيمان بالبعث، وإذا أصروا على التكذيب فسيعلمون عاقبة تكذيبهم أو إنكارهم حين تنكشف الأمور ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تأكيد للوعيد والردع، فعليهم أن يتركوا هذا التساؤل ويقبلوا ما جاءهم به الرسول ﷺ من ربه، وسيعلمون علم اليقين عذاب الكافر المكذب عند النزاع ولات حين مناص. فما أشدَّ خسارة المكذبين، وما أعظم سعادة المصدقين!

ثم تحدثت الآيات عن أدلة قدرة الله التامة، ونعمه العامة على الناس كافة، وأنه تعالى كما أحسن كل شيء خلقه، وأوجدنا من العدم ولم نك شيئاً، قادر على أن يحيي الموتى، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦١﴾﴾ الاستفهام هنا تقريرى، والمهاد: المكان الممهّد الموطأ، والمعنى: أنه تعالى جعل الأرض، أي خلقها فراشاً ووطاءً للحياة عليها والانتفاع بها حسب حاجة الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ أي جعل الله تعالى الجبال أوتاداً للأرض تثبتها، حتى لا تميد بأهلها، كما تثبت الخيمة بالوتد، وقال علماء الأرض: يبلغ سمك الجزء الصلب من القشرة الأرضية نحو ٦٠ كيلومتراً، وتكثر فيه التجاعيد فيرتفع حيث الجبال وينخفض ليكون بطون البحار وقيعان المحيطات، وهو في حالة من التوازن بسبب الضغوط الناتجة من الجبال ولا يختل هذا التوازن إلا بعوامل التعرية، فقشرة الأرض اليابسة ترسيها الجبال كما ترسي الأوتاد الخيمة.

وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨١﴾﴾ أي ذكوراً وإناثاً، ليسكن كل من الصنفين للآخر بالتناكح والتناسل، وهي نعمة عظيمة جعلها الله تعالى سبباً لعمارة الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الروم: ٢١].

وقيل: ﴿أَزْوَاجًا﴾ أي أصنافاً متقابلة في اللون والصورة وغيرها.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩١﴾﴾ أي راحة لكم من عناء العمل، فالنوم يقطع ما سبقه من التعب ويجدد النشاط، وفي ذلك نعمة عظيمة وآية من آيات الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآيَاتُكُمْ مِنْ قُضِيِّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الروم: ٢٣] وفي النوم تذكير للعباد بالموت كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: ٦٠] فالحي الذي لا يموت هو الله تعالى، والعباد يموتون ثم يعثون، وربما كانت اليقظة بعد النوم تذكر بالبعث.

وكما قال أصحاب الاختصاص في موضوع النوم، قالوا: النوم هو توقف نشاط الجزء المدرك الواعي من المخ، أي قشرته أو هبوط ذلك النشاط هبوطاً كبيراً متفاوت الدرجات في نشاط كافة أعضاء الجسم وأنسجته مما يترتب عليه انخفاض في توليد طاقة الجسم وحرارته - ثم يأخذ الجسم أثناء النوم نصيباً من الهدوء والراحة بعد عناء المجهودات العضلية أو العصبية أو كليهما، فتهدأ جميع وظائف الجسم الحيوية؛ ما عدا عمليات الهضم وإفراز البول من الكليتين والعرق من الجلد، فإن في وقف هذه العمليات الأخيرة ضرراً على حياة الفرد أما التنفس مثلاً فيبطئ ويصير أكثر عمقاً ويغدو صدرياً أكثر منه بطنياً. وينخفض ضغط الدم؛ وتبطئ سرعة النبض ويقل مقدار ما يدفعه من القلب من كل ضربة، ويضعف توتر العضلات ويصير من الصعب الحصول على الحركات العكسية وكل هذا بسبب الراحة للإنسان أثناء نومه.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا آتِلَ لِأَسَا ۝١٧﴾ أي مظلماً لستيركم بظلمته لتستريحوا، وساتراً لكم عن العيون إن أردتم تهجداً، أو قضاء مصلحة مباحة، ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١٨﴾ أي وقت سعي لتحصيل أسباب المعاش، إذ يتقلب فيه الخلق في حوائجهم ومكاسبهم. ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٩﴾ أي سبع سموات قوية محكمة، لا يؤثر فيها مرور الزمان وتعاقب العصور، ولا فطور فيها ولا فروج، جعلها الله تعالى كالسقف للأرض، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ۝٢١﴾ أي متلألئاً وقاداً وهي الشمس مضيئة وقادة، وحرارتها في أيام الصيف حرارة شديدة مع بعدها الساحق عن الأرض، فما ظنك بما يقرب منها، ثم إنها تكون في أيام الحر في شدة حرها من فيح جهنم، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم». وقال عليه الصلاة والسلام: «اشتكت النار إلى الله فقالت: يا رب، أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنفسين، نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من البرد من زمهرير جهنم، وأشد ما يكون من الحر من فيح جهنم» [متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].

وقال المختصون عن الشمس: ثبت علمياً من أن درجة حرارة سطحها

المشع تبلغ ٦٠٠٠ درجة مطلقة؛ أما المركز فتزيد فيه درجة الحرارة على ٣٠ مليون درجة بسبب ما تعانيه المواد فيه من الضغوط العالية، وتشع الشمس النسب الآتية من الطاقات ٩٪ أشعة فوق البنفسجية، ٤٦٪ أشعة ضوئية، ٤٥٪ أشعة حرارية، أو تحت الحمراء، ولذلك عبرت عنها الآية الكريمة بالسراج الذي يطلق للضوء والحرارة معاً.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَابًا ﴿٧﴾﴾ المعصرات هي السحاب التي حان وقت إمطارها، سُميت معصرات تشبيهاً بالجارية المعصر التي دنا وقت حيضها، وقوله: ﴿ثَجَابًا﴾ أي صباباً، والمقصود أن الله تعالى يذكر عباده بنعمة نزول المطر الذي يحيا به العباد والبلاد، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [الروم: ٤٨]، أي يخرج من بينه.

وقيل: المطر هو المصدر الوحيد للماء العذب على الأرض. والأصل في المطر تكاثف أبخرة المياه المتصاعدة من المحيطات والبحار ونحوها على شكل سُحب وتحويلها إلى نقط من الماء أو بلورات من الثلج أو هما معاً؛ وتتساقط هذه المكونات عندما تزداد حجومها على هيئة مطر أو برد بإذن الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾﴾ أي لنخرج بهذا الماء الذي نزل من السماء إلى الأرض أنواعاً من الحبوب والزرع التي تنبت في الأرض غذاء للناس وللحيوان. ﴿وَجَعَلْنَا الْفَأَقَا ﴿١٦﴾﴾ أي بساتين ذات أشجار ملتفة بعضها إلى بعض، وتشمل جميع أنواع الأشجار التي ينتفع الناس بشمارها أو بغيره، والمقصود أن ما ذكر من الحب والنبات والأشجار ومختلف الزرع يخرج بالماء، سواء كان من ماء المطر مباشرة أو باستخراجه من باطن الأرض، لأن أصل الماء العذب على الأرض من المطر كما أسلفنا، قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعًا فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١].



﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتَنَا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَأَتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾
 وَفُجِحَتْ ﴿١﴾ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٥﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا
 ﴿١١﴾ لِلطَّاغِينَ مَنَابًا ﴿٢٢﴾ لَيْسِينَ ﴿٢﴾ فِيهَا أَحْقَابًا لَا يَذُقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا
 وَغَسَّاقًا ﴿٣﴾ ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَاءًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
 كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٥﴾ ۞ .

بعد أن بين الله تعالى دلائل قدرته التامة على البعث والجزاء الذي أنكره المشركون وتماروا فيه وتساءلوا وأكثروا الجدل فيه أخذت الآيات تعرض أحداث يوم القيامة، وهو يوم الفصل بين الخلائق ونهاية العالم الدنيوي، وهو يوم معلوم محدود في علمه ﷺ لا يتقدم ولا يتأخر عن وقته، وتلك الأحداث تعرض صوراً جلية لما يكون في ذلك اليوم العصيب، منها: نفخ الصور، وتصدع السماء، وإزالة الجبال عن أماكنها وصيرورتها كالسراب يظنه من رآه ماءً، وما هو إلا هباءً منبثاً، ثم بينت الآيات مآل الطاغين وأنواع ما يعذبون به .

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ ﴾ وهو يوم القيامة، سُمِّيَ بذلك لأنه يوم يفصل الله فيه بين الناس، ويفرق السعداء من الأشقياء، ويقضي فيه بين الخلائق. ﴿ كَانَ مِيقَاتًا ﴾ أي ميقاتاً للجزاء، وموقتاً لأجل معدود ينتهي إليه أمر الخلائق، وهو كائن لا محالة كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَوْخِذُوهٖ إِلَّا لِأَجْلِ مَعْدُودٍ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [هود: ١٠٤]، وكل معدود لا بد أن ينتهي، وكل ما هو آت قريب.

(١) ﴿ وَفُجِحَتْ ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف العاشر بتخفيف التاء على الأصل وقرأ الباقون بتشديدها للتكثير.

(٢) ﴿ لَيْسِينَ ﴾ قرأ حمزة وروح بغير ألف بعد اللام «لَيْسِينَ» صفة مشبهة. وقرأ الباقون بإثبات الألف «لابئين» اسم فاعل من لبث.

(٣) ﴿ وَغَسَّاقًا ﴾ قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر بتشديد السين وقرأ الباقون بتخفيفها.

ملاحظة: فتح ورش الراء في «مرصاداً» كبقية القراءة لوجود حرف الاستعلاء بعده، وهو «الصاد» ومعلوم أن حروف الاستعلاء هي: «خُصَّ صَغُطُ قَطُّ».

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أي يوم ينفخ إسرافيل نفخة البعث، وهي النفخة الثانية ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ وفي الآية إيجاز بالحذف، والمعنى: فتبعثون فتأتون أفواجاً، أي فوجاً مع فوج أو يتلو فوجاً، والفوج يعني الجماعة، أي حال كونكم أمماً كل أمة مع إمامها كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]، أو زمراً وجماعات مختلفة باعتبار اختلاف أعمالهم في الحياة الدنيا، فمنهم من يحشر على صورة القردة أو الخنازير أو منكوسون أرجلهم فوق وجوههم، ولقد جاء في ذلك أثر الله أعلم بصحة سنده، نورده كما هو، فقد أخرج ابن مردويه عن البراء بن عازب: «أن معاذاً بن جبل قال: يا رسول الله ما قول الله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾؟ فقال: «يا معاذ سألت عن أمر عظيم»، ثم أرسل عينيه ثم قال: «عشرة أصناف قد ميزهم الله من جماعة المسلمين، وبدل صورهم، فبعضهم على صورة القردة، وبعضهم على صورة الخنازير، وبعضهم منكبين أرجلهم فوق وجوههم أسفل يسحبون عليها، وبعضهم عمي يترددون، وبعضهم صم بكم لا يعقلون، وبعضهم يمضغون ألسنته وهي مدلاة على صدورهم، يسيل القيح من أفواههم لعاباً، يقذروهم أهل الجمع، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلبون على جذوع من نار، وبعضهم أشد نتناً من الجيف، وبعضهم يلبسون جباًباً سابغات من قطران لازقة بجلودهم. فأما الذين على صورة القردة فالقتات^(١) من الناس، وأما الذين على صورة الخنازير فأكلة السحت، والمنكوسون على وجوههم فأكلة الربا، والعمي من يجور في الحكم، والصم البكم المعجبون بأعمالهم، والذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء والقصاص من الذين يخالف قولهم أعمالهم، والمقطعة أيديهم وأرجلهم الذين يؤذون الجيران، والمصلبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان، والذين هم أشد نتناً من الجيف الذين يتمتعون بالشهوات واللذات ويمنعون حق الله وحق الفقراء من أموالهم، والذين يلبسون الجباب فأهل الكبر والخيلاء والفخر».

وقوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ وهذا من أوصاف يوم

(١) القتات: هو النمام.

الفصل العظيم المخيف، حيث تشقق السماء وتتصدع من كل جانب وتكون أبواباً لنزول الملائكة كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمْ وَزُلَّ الْمَلَكُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] وهذا دليل على كمال قدرة الله تعالى، فهذه السماء المحكمة والتي كانت سقفاً محفوظاً تصير في ذلك اليوم أبواباً، وتلك السبع الشداد تكون كالمهل ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٨].

وقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ أي عن وجه الأرض ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي هباءً منبثاً كالسراب في عين الناظر ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أي مرصدة ومعدة للطاغين، وقيل: في الآية إشارة على أن عليها مجاز الناس، روى ابن جرير وابن المنذر عن الحسن أنه قال: لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز النار، فإن كان معه جواز نجا، وإلا أحتبس. اهـ. والمراد بالجواز هنا الأعمال الصالحة التي تؤهله بعد مشيئة الله تعالى لدخول الجنة.

وعن ابن عباس: أن على جسر جهنم سبع محابس يُسئل العبد عند أولها عن شهادة أن لا إله إلا الله فإن جاء بها تامة جاز إلى الثاني، فيُسئل عن الصلاة فإن جاء بها تامة جاز إلى الثالث، فيُسئل عن الزكاة فإن جاء بها تامة جاز إلى الرابع، فيُسئل عن الصوم فإن جاء به تامة جاز إلى الخامس، فيُسئل عن الحج فإن جاء به تامة جاز إلى السادس، فيُسئل عن العمرة فإن جاء بها تامة جاز إلى السابع، فيُسئل عن المظالم فإن خرج منها وإلا يقال: انظروا فإن كان له تطوع أكمل به أعماله، فإذا فرغ انطلق به إلى الجنة. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿لِلظَّالِمِينَ مَنَابِتُ﴾ أي للمتجاوزين حدود الله، المعتدين على حقوق العباد مرجعاً ومنزلاً يصيرون إليه، وهي نار جهنم أعادنا الله منها ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ أي ماكثين دهوراً متتابعة إلى غير نهاية كقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٦٥]، ورُوي عن الحسن قال: إن الله تعالى لم يجعل على النار مدة بل قال: ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾، فوالله ما هو إلا أنه إذا مضى حقب دخل حقب آخر، ثم آخر إلى الأبد فليس للأحقاب عدة إلا الخلود ورُوي عن عبد الله بن مسعود قال: «لو علم أهل النار أنهم يلبثون في النار عدد حصى الدنيا لفرحوا، ولو علم أهل الجنة أنهم يلبثون في الجنة عدد حصى الدنيا لحزنوا». اهـ.

ودل القرآن والسنة على أبدية الجنة والنار، وأن من دخل أيهما وهو من أهلها فإنه مخلد فيها بلا نهاية، وأما عصاة المؤمنين الذين يدخلون النار، فإنهم يبقون فيها ما شاء الله، ثم يكون مآلهم الجنة كما دل على ذلك أحاديث صحيحة عن النبي ﷺ، وليس في الآية الكريمة ما يدل على تناهي تلك الأحقاب، بل المعنى أحقاباً كثيرة لا نهاية لها.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ (٢٧) أي لا يجدون في جهنم برداً لقلوبهم ولا شراباً طيباً يتغذون به، وقيل: برداً، أي نوماً. وقيل: ليس لهم في جهنم ما يبرد ظاهر الجسم ولا ما يبرد داخله مما يُشرب ليسكن العطش ويطفئ حرارة البدن، والظاهر أن كل هذا وارد لأن من دخل جهنم - والعياذ بالله - لا يجد فيها راحة ولا نوماً ولا طعاماً إلا ذا غصة، ولا شراباً إلا الحميم، والفساق كما قال تعالى: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ (٢٥) والحميم هو الماء الحار المنتهي في الحرارة، كما قال تعالى: ﴿يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، والغساق: هو ما يسيل من صديد أهل النار، فلا يُستطاع من شدة برودته ولا يواجه من نتنه، وقوله تعالى: ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ (٢٦) أي موافقاً لأعمالهم السيئة ﴿وَلَا يَظِلُّ رُؤُوسَهُمْ﴾ [الكهف: ٤٩].

قال مقاتل: وافق العذاب الذنب، فلا ذنب أعظم من الشرك ولا عذاب أعظم من النار.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ (٢٧) أي لم يكونوا يتوقعون الحساب والجزاء لأنهم لم يؤمنوا أصلاً بالبعث. فكان الجزاء موافقاً للعمل ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ (٢٨) أي كذبوا بآيات الله وحججه تكذيباً زائداً ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ^(١) أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ أي كل شيء من أعمالهم ضبطناه بالكتاب عليهم في صحائف نفوسهم، فقد كانت الملائكة تكتب أعمالهم وتحصيها عليهم، وهذا يوم الحصاد، فيقال لهم تبكيتاً وتوبيخاً لهم وهم يقاسون أشد

(١) ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ أي كل شيء من الأشياء، ومن جملتها أعمالهم فاللفظ عام في كل شيء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

العذاب: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ ﴿٢٥﴾ أي فذوقوا ما أنتم فيه من العذاب الأليم، فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه، وذلك تيسيراً لهم من تخفيفه وإعلاماً بمضاعفته.

رُوي عن أبي برزة أنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن أشد آية في القرآن فقال: «قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾».



﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَزْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِمَّن رَزَقَهُ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾.

بعد أن بيّن الله تعالى حال الكافرين وما أعدّه لهم من أليم العذاب بيّن حال المؤمنين وما أعدّه لهم من النعيم المقيم في دار كرامته، فقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ ﴿٣١﴾ المتقون هم الذين اتقوا محارم الله تعالى وخافوا عقابه بفعل ما أمر الله واجتناب ما نهى عنه، فأولئك لهم الفوز بجنات نعيم والنجاة من عذاب النار، ثم فسر هذا الفوز وفصله بقوله تعالى: ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ ﴿٣٢﴾ الحدائق جمع حديقة، والمعنى: بساتين مسوّرة، فيها أنواع الشجر المثمر، ومن جملتها الأعناب، وخصها بالذكر لشرفها.

وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ قال: فازوا بأن نجوا من النار، وقال قتادة: أي مفازاً من النار إلى الجنة، وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ قال: منزهاً. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ جمع كاعب، وهي الجارية التي برز ثديها واستدار مع ارتفاع يسير، وقال ابن عباس: ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ أي نواهد. اهـ. وقوله تعالى: ﴿أَزْرَابًا﴾ أي مستويات في السن ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ ﴿٣٤﴾ أي ملاءى من خمر لذة للشاربين، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿لَغْوًا﴾ أي كلاماً باطلاً لا فائدة فيه ﴿وَلَا كِدَابًا﴾ أي مكاذبة، أي لا يكذب بعضهم بعضاً، وهذا

(١) ﴿وَلَا كِدَابًا﴾ قرأ الكسائي بتخفيف الذال وقرأ غيره بتشديدها.

من تمام النعيم، إذ إن اللغو والتكذيب مما تتألم له النفوس المؤمنة، وتنفرد منه الطباع السليمة.

وقوله تعالى: ﴿جَزَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ﴾ أي جزاء لهم على صالح أعمالهم تفضلاً منه تعالى وإحساناً ﴿حِسَابًا﴾ أي كافياً وافياً، ومنه: حسبي الله، أي كافي.

وهكذا وعد الله تعالى عباده الأبرار بنعيم لا يحول ولا يزول في جنات الخلد، لهم فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ولهم زوجات حسان من الحور العين ومن نسائهم الصالحات، نعيم دائم وسعادة أبدية، لا يسمعون ما يكدر من القول، ولا يرون ما يسيء، لأن الجنة دار النعيم الكامل، من أوصافها أن أهلها: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا﴾ (٢٥) ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ (٢٦) [الواقعة: ٢٥ - ٢٦]، فسأل الله الجنة ونعوذ به من النار.



﴿رَبِّ (١) السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ (٢) لَا يَلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (٢٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٢٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ (٢٩) فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَابًا (٣٠) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلْبِغُنِي كُتُّ رَبِّي﴾ (٣١).

كانت الآيات قد تحدثت من أول السورة عن إنكار المشركين البعث ومجادلتهم وترددهم في حقيقة الرسالة والكتاب والمرسل، فنعت الآيات عليهم ذلك، وأقامت الأدلة على إمكان حصول ما أنكروه، ثم عرضت بعض

(١) (٢) ﴿رَبِّ ... الرَّحْمَنِ﴾ قرأ «ابن عامر، وعاصم، ويعقوب» بخفض باء «رب» ونون «الرحمن» على أنهما بدل من «ربك» بدل كل من كل، وقرأ «حمزة والكسائي، وخلف العاشر» بخفض باء «رب» على أنه بدل من «ربك» ورفع نون الرحمن على أنه مبتدأ والجملة بعده خبر، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي هو الرحمن، وقرأ «نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر» على أنهما خبر لمبتدأ محذوف، أي هو رب، وهو الرحمن.

أحداث يوم القيامة، وبيئت أن مآل المكذبين النار، وبشّرت المتقين بالفوز في جنات النعيم، ثم عاد الكلام عن أهوال يوم القيامة، وتجلّى الواحد القهار القوي المتين، ليعذر إلى الخلق أجمعين، فمن صدق واتقى، نال مرضاة الله تعالى، ومن كذب وأبى خسر خسراناً مبيئاً، وفي ذلك اليوم لا يتكلم أحد إلا بعد أن يأذن له الله تعالى، وأن يكون قوله صدقاً وصواباً، فتهاجرت كل المخلوقات الكلام، حتى جبريل مقدّم أهل السماء وأمين الوحي، ثم بيان شدة ندم الكافر عندما يرى عمله السيء في الحياة الدنيا، ويبلغ به التحسر ذروته، والخوف نهايته، فيتمنى أن يكون تراباً ولا يواجه الحساب العذاب الأليم، ولات حين مندم.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ﴾ الله تعالى هو رب كل شيء ومليكة، فهو رب السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، ما علمنا من ذلك وما لم نعلم، فإنه تعالى خالق كل شيء وعالم بكل شيء ورحمته وسعت كل شيء، أما سبب كسر الباء في قوله: «رب» والنون في قوله: «الرحمن» فقد بناه مع مذاهب القراء العشرة فيها. ﴿لَا يَلْكُونَ مِنْهُ حِطَابًا﴾ أي لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه تعالى، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾ وهو جبريل ﷺ، وعلى ذلك الجمهور، ومما يؤيده قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وفي المراد بالروح هنا أقوال أخرى للمفسرين، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ أي صفوفاً صفّاً بعد صف، كما جاء في الحديث، قال: «تنزل ملائكة السماء الدنيا فتحيط بالخلق، ثم ملائكة السماء الثانية من وراءهم، ثم الثالثة والرابعة والخامسة» ذكره ابن كثير في البداية والنهاية.

وكما قال تعالى: ﴿وَمَا مِثًا إِلَّا لَهُمْ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ ﴿١٦٦﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسِيحُونَ ﴿١٦٦﴾ [الصافات: ١٦٤ - ١٦٦]، قال ﷺ: «ألا تصفون ما تصف الملائكة عند ربها» قالوا: وكيف يصفون عند ربهم؟ قال: «يكملون الصف

الأول ويتراصون في الصف». وقال: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت لنا الأرض مسجداً، وتربتها لنا طهوراً، وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة». وكذلك يأتون يوم القيامة بين يدي الرب ﷻ صفوفاً كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، ويقفون صفوفاً بين يدي ربهم ﷻ يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرِّحْنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أي لا يتكلم أحد من الملائكة ولا من غيرهم بشفاعة أو غيرها ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرِّحْنُ﴾ بالكلام، والإذن بالشيء إعلام بإجازته والرخصة فيه، فلا يستطيع أحد أن يتكلم إلا من بعد أن يأذن الله له ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي قولاً صواباً موافقاً للحق والصدق، ومن حديث الشفاعة في الصحيح أن نبينا محمد ﷺ هو أول من يكلم الله ﷻ في الموقف، حيث يأتي تحت العرش، فيخر ساجداً، فلا يزال ساجداً يحمد الله تعالى بمحامد يُلهمها ساعتئذ، فيقول له الرب تعالى: ارفع رأسك وسل تعط واشفع تُشفع.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ أي ذلك اليوم الثابت وقوعه، المتحقق لا محالة، وهو يوم الفصل بين الخلائق، فيه تتكشف الأمور، ويظهر المستور، ويحكم فيه بالعدل الحي الغفور ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ أي مرجعاً بالإيمان والطاعة.

قال ابن عثيمين رحمته الله في هذه المسألة: وهذه المشيئة المطلقة هنا قيدتها آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]. يعني أننا لنا الخيار فيما نذهب إليه لا أحد يكرهنا على شيء؛ لكن مع ذلك خيارنا وإرادتنا ومشيتنا راجعة إلى الله ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]. وإنما بين الله ذلك في كتابه من أجل أن لا يعتمد الإنسان على نفسه وعلى مشيئته، بل يعلم أنها مرتبطة بمشيئة الله، حتى يلجأ إلى الله في سؤال الهداية لما يحب ويرضى. ولا يقول الإنسان: أنا حر أريد ما شئت وأتصرف كما شئت، نقول: الأمر كذلك لكنك مربوط بإرادة الله ﷻ. فما نشاء من شيء إلا وقد شاءه الله من قبل. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ أي خوفاًكم عذاب يوم القيامة، وهو قريب جداً، لأن كل ما هو آت قريب، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَرَّ يَلْبُثُوا إِلَّا غَيْثَةً أَوْ صُحْبًا﴾ [النازعات: ٤٦]، وإن كان الإنذار هنا موجهاً للكفار من منكري البعث كما في أول السورة إلا أنه عام لكل مكلف ليستعد ليوم المعاد، ومن ثم مِنْ قُرْبِ الْعَذَابِ أنه يبتدي بالموت، والإنسان لا يعلم متى يموت، فالعاقل يكون أبداً في ترقب واستعداد له حتى يأتيه اليقين، فنسأل الله التوفيق والسداد.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي من خير أو شر، أي ينظر جزاءه ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلْبِثَنِي كُتُّ رَبِّبًا﴾ وهذا عندما يعاين أعماله الفاسدة التي تورده النار، فيتمنى الموت من شدة الحسرة والندم، ولات حين مناص.

وقيل: إنما يود ذلك حين يحكم الله تعالى بين الحيوانات التي كانت في الدنيا بحكمه العادل، ثم يصيرها تراباً. كما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يقضي الله بين خلقه الجن والإنس والبهائم، وإنه ليقيد يومئذ الجماء من القرناء، حتى إذا لم يبق تبعة عند واحدة لأخرى، قال الله: كونوا تراباً، فعند ذلك ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلْبِثَنِي كُتُّ رَبِّبًا﴾» ومعنى «يقيد الجماء من القرناء»: أي يقتص للبهيمة التي لا قرون لها من ذات القرون التي نطحها بقرونها.

تم بحمد الله تفسیر سورة النبأ

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

مكية وآياتها ست وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْاقًا﴾ (١) وَالنَّشِيطَاتِ تَشَاطًا (٢) وَالسَّيِّحَاتِ سَبْمًا (٣) فَالسَّيِّقَاتِ سَبْمًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِيفَةُ (٦) تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ (٩) يَقُولُونَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) إِذَا كُنَّا عِظْمًا فَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرِهَ حَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ .

إن الله تعالى ملائكة كرام، يأمرهم بما يشاء، ويفعلون ما يؤمرون، فأقسم الله تعالى في أول هذه الآيات بخمسة أصناف من مخلوقاته^(٢)، والله تعالى أن يقسم بما شاء، أما المخلوق فليس له أن يقسم بغير الله تعالى. أقسم الباري جلّ وعلا بما ذكر على أنه لا بد من البعث والجزاء، ليرتدع المكذبون، ويرجع المتشككون، وليصدقوا بالبعث بعد الموت، وأنه لا مرية فيه ولا جدل.

والمفهوم العام للآيات أن الله تعالى ملائكة يقومون بقبض أرواح العباد، عندما يأذن الله تعالى لهم في ذلك.

فإذا كان العبد كافرًا أو فاجرًا تولت قبض روحه ملائكة العذاب، حيث

(١) ﴿نَّازِعَاتٍ﴾ قرأ شعبة وحمزة والكسائي ورويس وخلف بألف بعد النون، وقرأ الباقون بحذفها.

(٢) الجمهور على أن الخمسة الأصناف المقسم بها هم طوائف الملائكة.

تأتيه في أبشع صورة وأفظع منظر، وأشدّ هول، لتبعث الرعب في نفسه، حيث تتفرق روحه في جسده من شدة الخوف والهلع، لهول ما يرى، وذلك عقاباً له على كفره أو فجوره، لأن عذاب الكافر أو الفاجر يبدأ عند موته.

فتأخذ في نزع روحه الهاربة في أرجاء جسمه بشدة وعسر، فيجد لها ألماً شديداً لا يمكن أن يصفه إلا مَنْ قاساه، وهيهات! الروح تفرق في البدن، وتتفرق فيه، والملائكة تخرجها من كل عضو، ومن كل عرق، ورد أنها تُخرج كما يُخرج السفود من الصوف المبلول، أي بشدة وتعسر، أما المؤمن، فإنه إذا أذن الله تعالى لملائكته في قبض روح المؤمن، فإنه تأتيه ملائكة الرحمة في أحسن صورة، وأبهج منظر مع البشارة بالجنة والسعادة الأبدية، فيفرح بذلك فرحاً لم يسبق له مثله، فتتنشط الملائكة روحه نشاطاً بسهولة ويسر لا يجد له ألماً، كما ينشط العقول من يد البعير، وورد في الحديث: «أنها تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء».

ويُبشّر المؤمن بالجنة ويبدأ نعيمه الأخروي بموته.

فلا بد لكل مخلوق أن يموت، إذا انتهى أجله، فإذا أذن الله تعالى بقيام الساعة تحُدث الراجفة، وهي النفخة الأولى التي بها يفنى كل شيء، ويتزلزل كل شيء معها ثم تتبعها الرادفة وهي النفخة الثانية نفخة البعث من القبور أحياء، وبين النفختين أربعين سنة كما ورد في الحديث.

ثم بعد ذلك ماذا يحدث؟ أخبر الله بما يحدث فقال: ﴿يَوْمَ تَبْدَلُ الْأَرْضُ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

هناك يكون الحشر، هنالك يكون الجزاء، هنالك يكون فصل القضاء.

قال تعالى: ﴿وَسْتُلَوْنَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٥٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٥٧﴾﴾ [طه: ١٥٥ - ١٥٧].

إنها أرض جديدة، لم يعص الله تعالى عليها.

فهذه الآيات من أول السورة إلى قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [١٤] بينت شدة ما يلاقه الكافر عند الموت، وسهولة احتضار المؤمن، ورؤية كل منهما

منزله في الآخرة بعد الموت، وأرشدت إلى وجوب الإيمان بالنفختين، ودللت دلالة قاطعة على البعث والنشور يوم القيامة.

أقسم الله تعالى بطوائف الملائكة الكرام وأفعالهم الدالة على كمال إنقيادهم لأمر الله تعالى، والتأنيث باعتبار الطائفة، كأنه قال: والطائفة النازعات.

ويرى بعض المفسرين أن المقسم بها النجوم، ويرى بعضهم أنها جماعات الخيل الغازية، والرماة والفرسان.

وقال ابن جرير في جامع البيان (٢٨/٣٠): والصواب عندي أن يقال أنه تعالى أقسم بالنازعات غرقاً، ولم يخص نازعة دون نازعة، فكل نازعة غرقاً، فداخلة في قسمه، ملكاً أو نجماً أو قوساً أو غير ذلك، وهكذا البقية. اهـ.

وقال الشوكاني: الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم على أن الأصناف المقسم بها هنا الملائكة. اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ يعني الملائكة تنزع أرواح الكفار ﴿غَرَقًا﴾ أي نزعاً شديداً ﴿وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا﴾ يعني الملائكة تقبض أرواح المؤمنين، فتخرجها بسهولة ويسر، وتسلبها برفق.

وفي المسند^(١) من حديث البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه بسند جيد قال: خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتبهينا إلى القبر، ولما يُلحَدُ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير وفي يده عودٌ ينكتُ به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر» مرتين أو ثلاثاً ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبالٍ من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء؛ بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفنٌ من أكفان أهل الجنة، وحنوطٌ من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت ﷻ حتى يجلس عند

(١) مسند الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ.

رأسه، فيقول: اخرجي أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيّ السماء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة! فيقولون: روح فلان ابن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا. فيستفتحون له، فيفتح له: فيشبعه من كل سماءٍ مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة، فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتاب عبي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى. قال: فتعاد روحه إلى الأرض، فيأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله ﷻ، فيقولون له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هو محمد رسول الله ﷺ فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله ﷻ، فأمنت به وصدقت، فينادي منادٍ من السماء: أن صدق عبي، ففرشوا له من الجنة، وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة. قال: فيأتيه من رَوْحها وطيبها، ويُفسح له في قبره مد بصره، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه؛ حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعده؛ فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير، فيقول: أنا عمك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي».

قال: «وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء، سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخطٍ من الله و غضب، قال: فتفرق في جسده، فينتزعها، كما ينتزع السُّفود من الصوف المبتل، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: روح فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه

التي كان يُسَمَّى بها في الدنيا، فُيُسْتَفْتَح، فلا يفتح له - ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَرِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] - فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرْحاً - ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفُهَا الْأَظْفَرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِينٍ﴾ [الحج: ٣١] - فتُعَادُ روحه في جسده، ويأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فينادي منادٍ من السماء: أن كَذَبَ عبيدي، ففرشوا له من النار وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرِّها وَسْمُومِها، وَيُضَيِّقُ عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلَاعُه ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، مُتَيْنُ الرِّيحِ، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعده، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر، فيقول: أنا عمك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة».

وفي لفظ لأحمد أيضاً: «ثم يُقَيِّضُ له أعمى أصمُّ أبكمُ في يده مرزبة، لو ضرب بها جبلاً كان تراباً، ثم يعيده الله ﷻ، كما كان، فيضربه ضربةً أخرى، فيصبح صبيحةً يسمعها كلُّ شيءٍ إلا الثقلين».

قال البراء: ثم يُفْتَحُ له بابٌ إلى النار، ويُمهَّدُ له من فرش النار.

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّيِّحَاتِ سَبَّأًا﴾ يعني الملائكة تسبح بأمر الله تعالى، أي تسرع كما يسرع السابح في الماء، مسرعين لتنفيذ أمر الله ﴿فَالسَّيِّحَاتِ سَبَّأًا﴾ يعني الملائكة تسبق سبباً إلى ما أمروا به، ووكلوا عليه، فيصلون بسرعة، أو تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة، وكذلك أرواح الكافرين إلى النار، والملائكة أسبق إلى أمر الله، وأقوم بأمر الله من بني آدم، كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَكُوتٌ غَلَّظٌ شَدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقوله تعالى: ﴿فَالْمُدْرِتِ أَمْرًا﴾ يعني الملائكة الموكلين بتدبير شؤون الكون حسب أمر الله تعالى، فجبriel موكل بالوحي، يتلقاه من الله تعالى وينزل به على الرسل، وإسرافيل موكل بالصور والنفخ فيه إذا أراد الله، وميكائيل موكل بالمطر والنبات «وعزرائيل» ملك الموت موكل بقبض

الأرواح، ومالك خازن النار، ورضوان خازن الجنة، وكذلك الحفظة وغيرهم مما لا يعلمه إلا الله.

أقسم الله تعالى بهذه الأصناف الخمسة من الملائكة دلالة على شرفها وشأنها العظيم، وجواب القسم محذوف لدلالة ما بعده عليه، وتقديره: لتبعثن ولتحاسبن، كما قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذَّبَ قُلُوبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِتَبِعْتُمْ إِيَّاهُمْ وَلَنْ يَلْبَسْتُمْ ثِيَابَ النُّبِيِّينَ إِذْ رَدُّوا إِلَيْهَا بِرَأْسِهَا وَالَّذِينَ أَسَاءُوا لَا يَلْبَسُونَ ثِيَابَ الَّذِينَ اتَّقَوْا اللَّهَ خِيفَةً أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَرْتَابُونَ﴾ [التغابن: ٧]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِفَةُ﴾ [١] ﴿تَتَّبِعُهَا الرِّادَةُ﴾ [٢] وهما النفختان في الصور النفخة الأولى يفنى فيها كل شيء إلا ما شاء الله، والثانية نفخة البعث من القبور أحياء، وبينهما أربعون سنة كما في الحديث الصحيح، وقال الترمذي: حدثنا هناد وحدثنا قبيصة عن سفيان عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: «يا أيها الناس اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه».

وقال الحسن البصري: هما النفختان، أما الأولى فتميت الأحياء، وأما الثانية فتحيي الموتى، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي قِيَامٍ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [٣] أي قلوب الكفار في ذلك اليوم خائفة قلقة مضطربة ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ [٤] أي ذليلة خاضعة مما عاينت من سوء المنقلب كما قال تعالى: ﴿وَتَرْتَابُهَا يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الدَّلِيلِ يَنْظُرُونَ﴾ [الشورى: ٤٥] وفي تنكير قلوب في قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ﴾ إشارة إلى أن ثم قلوب على عكس قلوب هؤلاء، لتمايز الحال بينهم ﴿أَفْتَجِلُ السَّالِفِينَ كَالْجَرِيمِينَ﴾ [القلم: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾ أي منكروا البعث ﴿أَوَلَمْ نَكُنْ لَكُمْ آيَاتٍ فِي الْأَنْبِيَاءِ﴾ أي أورد بعد الموت إلى الحياة من جديد كما كنا أول مرة؟ والحافرة اسم لأول الأمر، يقال: رجع فلان إلى حافرته، أي في طريقه التي جاء فيها فحفرها برجليه، والحافرة هنا في الآية بمعنى الحياة. ﴿أَوَلَمْ نَكُنْ لَكُمْ آيَاتٍ﴾ أي بالية متفتتة، والمعنى أنهم قالوا: أورد إلى الحياة إذا صرنا عظاماً بالية قد

رَمَّتْ؟ وهو استبعاد منهم للبعث وإنكار له ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ (١٧) أي رجعة خاسرة، قالوا هذا القول الآثم على سبيل الاستهزاء واستبعاد البعث، ويعنون أنها لو صحت العودة إلى الحياة فستكون خاسرة، وهي في حقهم كذلك، لتكذيبهم، وذلك من سخف عقولهم وجهلهم، فقد كان أمامهم نبي مرسل يتلو عليهم كتاب ربهم، ثم هم يقولون ما قالوا...!!، نسأل الله السلامة، ونحمده على نعمة الإسلام، فردَّ الله عليهم، وكأنه قيل: لا تستصعبوا ذلك ﴿فَأَنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي صيحة واحدة، وهي النفخة الثانية، نفخة البعث، ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (١٤) أي على وجه الأرض أحياء، بعد أن كانوا في جوفها أمواتاً، والعرب تسمي الفلاة ساهرة، لأن سالكها لا ينام من أجل الخوف، والساهرة في الآية هي أرض المحشر.

روى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بِيضَاءِ عَفْرَاءٍ، كَقَرْصَةِ النَّقِيِّ، لَيْسَ فِيهَا عِلْمٌ لِأَحَدٍ».



﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ مُوسَى﴾ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِاللَّوِيِّ (١) الْقَدِيسِ طُوًى (٢) ﴿١١﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِذْهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزُكَّى (٣) ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ آيَةَ الْكِبْرِيِّ ﴿٢٥﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى ﴿٢٦﴾

ثم أخذت الآيات تتحدث عن جانب من قصة موسى ﷺ مع فرعون الطاغية تسلية للنبي ﷺ مما يعاني من تكذيب قومه، وتهديداً لمن كذبه بعقوبة

- (١) ﴿بِالْوَاوِ﴾ يقف عليه يعقوب بزيادة ياء ساكنة بعد الدال وغير بتركها.
- (٢) ﴿طُوًى﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف العاشر بنتوينه مع كسره وصلأ وإبداله ألفاً وفقاً وقرأ الباقون بحذف التنوين في الحالين.
- (٣) ﴿إِلَّا أَن تَزُكَّى﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر ويعقوب بتشديد الزاي وغيرهم بتخفيفها.

تنزل بهم كعقوبة فرعون الذي كان أشد منهم بطشاً، فلما كفر هو وقومه أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، ولم يجدوا لهم من دونه ولياً ولا نصيراً.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنذِرَكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾﴾ أي خبره حين ناجاه ربه؟ والخطاب للنبي ﷺ أو لكل من يتأتى خطابه، وفيه تسلية للنبي ﷺ وقد أحزنه إنكار قومه ليوم الحساب، وتهديد للمنكرين، وعظة باقية إلى آخر الزمان، والاستفهام هنا جاء بأسلوب التشويق والترغيب للسامع ليستمع إلى ما جرى في هذه القصة.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾ أي هل أتاك خبر موسى حين ناداه ربه بالوادي المبارك المطهر، وهو واد في أسفل جبل طور سيناء من برية الشام، و﴿طُوًى﴾ اسم للوادي كما قال تعالى: ﴿وَنَدَيْتَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْتَهُ يَمِينًا ﴿٥٦﴾﴾ [مريم: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ إِلَيْكَ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ كَفَرٌ ﴿١٧﴾﴾ وهذه هي الرسالة أرسله الله تعالى إلى فرعون ملك مصر الذي عتا وتجاوز حده في العدوان على بني إسرائيل، وانتحال صفات الربوبية ونسبتها إلى نفسه كما في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ أي هل لك رغبة وميل إلى أن تتطهر من الشر والفساد، فتزكو روحك وتطهر بالإسلام ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي أدلك إلى عبادة ربك ﴿فَنَخْشِي﴾ عقابه فتترك الظلم والطغيان، وفيه إشارة إلى أن الخشية مسببة عن العلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] أي العلماء بالله تعالى، وقيل: جعل الخشية غاية للهداية، لأنها ملاك الأمر، فإن من خشي الله تعالى، أتى منه كل خير، ومن آمن اجترأ على كل شر.

روى الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سَلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةً، أَلَا إِنَّ سَلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةَ». (أدلج) يسكون الدال مخففاً، أي سار من أول الليل، وبتشديد الدال: سار من آخر الليل.

والرفق في الدعوة إلى الله تعالى ظاهر من الآية الكريمة، كما في قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا نَّيْبًا لِّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٣، ٤٤] فرغم ما عليه فرعون من الشرك وادعاء الربوبية والظلم والكفر والطغيان والجهل المطبق، أمر نبي الله موسى وصفوته في خلقه إذ ذاك أن يخاطبه بالملاطفة واللين والحكمة ليرغب في الخير ويترك الشر والفساد، وفي ذلك عبرة وتوجيه لكل داعية من الدعاة أن يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٦﴾﴾ أي الدلالة الكبرى على أن موسى رسول الله، حقيق على أن لا يقول على الله إلا الحق، أرسله الله تبارك وتعالى إلى فرعون وقومه. والفاء فصيحة تفصح عن جمل قد طويت تعويلاً على تفصيلها في السور الأخرى، أي فذهب موسى إليه فدعاه وكلمه، فامتنع عن الإيمان فأراه الآية الكبرى، وهي قلب العصا حية تسعى، ويده إذ أخرجها بيضاء للناظرين من غير سوء، أي من غير مرض كالبرص ونحوه، ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢٧﴾﴾ أي فكذب فرعون موسى فيما أتاه من الآيات المعجزة، وسماها سحراً، وعصاه فيما أمره به من طاعة الله تعالى وخشيته إياه ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ يَتَعَبَىٰ ﴿٢٨﴾﴾ أي فرعون تولى مدبراً، يسعى حثيثاً ﴿فَحَشَرَ ﴿٢٩﴾﴾ فجمع قومه وجنوده ﴿فَنَادَىٰ ﴿٣٠﴾﴾ أي نادى فيهم بصوت مرتفع بنفسه أو بمناد، وقصده نهيمهم عن دعوة توحيد الله تعالى التي جاء بها نبي الله موسى ﷺ، وهي دعوة جميع الرسل ﷺ، توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، فلا إله إلا الله وحده لا شريك له إرغاماً لمن جحد به وكفر.

وماذا قال ذلك الرجل المعتوه - أعني فرعون لعنه الله - لقد ادّعى لنفسه ما ليس له، وقال كما أخبر الله تعالى عنه ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٦﴾﴾ أي لا رب فوقي! وقيل: أراد أن الأصنام أرباب، وهو ربها وربهم! أعوذ بالله من الكفر، والله لقد سمعت بعض العامة خلفي في الصلاة وأنا أقرأ هذه الآية يقول: استغفر الله، وما ذلك إلا لهول ما سمع.

قال ابن عباس ومجاهد: وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] بأربعين سنة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ ﴿٢٥﴾ أي عاقبه الله في الدنيا بالإغراق، وأعدَّ له في الآخرة السَّعِيرَ والإحراق، وجعله عبرة للعباد في زمنه وبعد زمنه إلى يوم القيامة، وقيل: المراد بذلك كلمتيه الأولى والثانية، وكيفما كان فإن ما حلَّ به من العقاب الأليم هو جزاء له وردعاً لأمثاله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي فيما قص الله تعالى من خبر موسى وفرعون ﴿لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ أي عظة وعبرة لمن يخاف عذاب الآخرة، فيتقي الله تعالى ويبتعد عن أسباب سخطه وعقابه.



﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرِ السَّمَاءَ بَنَاهَا﴾ ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَعَتَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمُ وَلِأَنْتُمْ كُرُومًا ﴿٣٣﴾ .

بعد قصة موسى مع فرعون وما انطوت عليه من تسليية الرسول ﷺ مما عاناه من تكذيب قومه، وتهديد المكذبين ببيان ما حلَّ بفرعون وقومه نتيجة كفرهم، وأن عقاب الله ليس ببعيد عن الكافرين، جاءت هذه الآيات تقر عقيدة البعث والجزاء، وتبين الحججة على منكري البعث بعد الموت بهذا الدليل الذي لا ينكره أحد، وهو أن خلق السماوات والأرض والجبال وما فيهما من المخلوقات، وتدبير أمور الخلق أشدَّ خلقاً وأعظم من خلق الإنسان بعد موته. فقال تعالى: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرِ السَّمَاءَ﴾ الاستفهام لتقرير إمكان البعث، والخطاب لمنكري البعث، لتنبههم على سهولته في جانب القدرة الربانية، فإن من رفع السماء على عظمها هيّن عليه خلقهم وخلق أمثالهم بعد مماتهم، وجواب الاستفهام هنا معلوم ضمناً وهو: أن السماء أشدَّ خلقاً من خلقهم. كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِن خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَن يَخْلُقَ مِنْهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسَبِّحْنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ [يس: ٨١ - ٨٣].

وقوله تعالى: ﴿بَنَاهَا﴾ أي رفعها فجعلها عالية كالسقف للأرض من غير عمد، ﴿رَفَعَ سَتَكَهَا﴾ أي ارتفاعها ما بين سطحها الأسفل الذي يلي الأرض، وبين سطحها الأعلى الذي يلي ما فوقها، وبهذا يكون معنى ﴿سَتَكَهَا﴾ ثخنها وغلظتها، وهو قدر مسيرة خمسمائة عام.

والوقف على ﴿السَّمَاءِ﴾ والابتداء بقوله ﴿بَنَاهَا...﴾ إلخ، جائز غير أن الوقف إذا كان في رؤوس الآي، فحكمه أنه يحسن الوقوف عليه والابتداء بما بعده لأن الوقف على رؤوس الآي سنة متبعة لوروده عن رسول الله ﷺ في حديث أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا قرأ قطع قراءته آية آية، يقول: ﴿يَسِّرْ اللَّهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ ثم يقف، ثم يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢)، ثم يقول: ﴿الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ (٣) ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٤) [أخرجه الترمذي عن أبي مليكة عن أم سلمة].

ويرى بعض أهل العلم أنه يحسن الوقف عليه والابتداء بما بعده - أي رؤوس الآي - إذا كان ما بعده مقيداً لمعنى، وإلا فلا يحسن الابتداء به، كقوله تعالى: ﴿لَمَّا كُمُتُمْ تَفَكَّرُونَ﴾ (٥) ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٩، ٢٢٠]، فإن ﴿تَفَكَّرُونَ﴾ رأس آية، ولكن ما بعده لا يفهم إلا بما قبله، فلا يحسن الابتداء بقوله: ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ بل يستحب العودة لما قبله. وأورد الحافظ ابن الجزري في «النشر» اختيار الأئمة للوقف على رؤوس الآيات لكونه سنة، ثم قال: وقالوا: الأفضل الوقوف على رؤوس الآيات وإن تعلقت بما بعدها قالوا: واتباع هدي الرسول ﷺ وسنته أولى. اهـ. (١)(٢).

فالوقف هنا يحسن أن يكون على ﴿بَنَاهَا﴾ اتباعاً للسنة، ثم يبدأ بها ويصلها بما بعدها إن كان هناك إيهاماً للمعنى. والله أعلم.

ونُقِلَ عن الكسائي والفراء والزجاج قولهم: تم الكلام عند قوله تعالى: ﴿أَرِ السَّمَاءَ بَنَاهَا﴾ لأنه من صلة السماء، والتقدير: أم السماء التي بناها، فحذف.. التي، ومثل هذا الحذف جائز. اهـ. (٣).

(١) النشر في القراءات العشرة (٢٢٦).

(٢) من كتاب جهد الفقير في تجويد كلام العلي القدير للمؤلف ص (١٣٩).

(٣) كما في تفسير الشوكاني (٤٧٣/٥).

وقوله تعالى: ﴿فَسَوَّيْنَاهَا﴾ أي جعلها مستوية، لا تفاوت فيها ولا شقوق ولا فطور، قال ابن كثير: أي جعلها عالية البناء بعيدة الفناء، مستوية الأرجاء، مكللة بالكواكب في الليلة الظلماء. اهـ^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي جعله مظلماً ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي أبرز نهارها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ وَالنَّهَارَ آيَاتِينَ فَحَوَّنَا آيَةَ أَلِيلٍ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ أي الأرض بعد خلق السماء ﴿دَحَاهَا﴾ أي بسطها ومدّها لسكنى أهلها، وتقلبهم فيها لمعايشهم ومنافعهم، وقد كانت الأرض مخلوقة غير مدحوة قبل ذلك، فلا تخالف هذه الآية آية سورة فصلت، قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَجَعَلَ لَهَا أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٤﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكٌ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَالْأَرْضَ أُنْيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ [فصلت: ٩ - ١١].

فهذه الآيات من سورة فصلت تدل على أن خلق السموات كان بعد خلق الأرض، وآية النازعات التي معنا تدل على أن الله تعالى دحا الأرض ومهدّها لسكنى الناس بعد خلق السماء، ومعنى الآيتين أن الله تعالى خلق الأرض أولاً ثم خلق السماوات بعد ذلك، ثم عاد إلى الأرض فدحاها.

قال ابن عباس: خلق الله الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات، ثم دحا الأرض بعد ذلك. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا﴾ أي بأن فجر منها عيوناً، وأجرى أنهارها ﴿وَوَرَعَهَا﴾ أي أنبت فيها النبات مما يفتات به الناس كالحب والثمار، وما تقتات به الأنعام كالعشب ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَنَهَا﴾ أي ثبتها فيها وجعلها كالأوتاد للأرض كي لا تميد بأهلها، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

(١) تفسير ابن كثير (٤/٥٠٠).

وقوله تعالى: ﴿مَنَّا لَكَ وَلِأَنفُسِكُمْ﴾ (٣٢) أي فعل ذلك كله لينتفع به الناس
والأنعام إلى حين.



﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى﴾ (٢٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٢٥﴾ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ
لِمَن يَرَى ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ طَفَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾
وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾ يَسْتَلُونَكَ
عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَبَهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ
مُنذِرٌ ﴿٤٥﴾ مَن يَخْشَهَا كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَا لَوْ يَلْبَثُوا إِلَّا عِشَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾.

بعد تقرير عقيدة البعث بعد الموت، والدلالة عليها ببدء الخلق والأمور
المشاهدة من خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، ذكر في هذه
الآيات أهوال يوم القيامة، وانقسام الناس إلى فريقين، فريق في الجنة وفريق
في السعير وبيان سبب ذلك، وأشارت الآيات إلى تساؤل الناس عن وقت قيام
الساعة، وأن علمها لله حده، لم يطلع عليها أحداً من خلقه لا ملك مقرب
ولا نبي مرسل، وأن وظيفة الرسل هي تحذير الناس للاستعداد لها بالإيمان
والعمل الصالح، وختمت السورة باستقصار مدة الحياة الدنيا في أعين
المكذبين حتى إنهم يرونها كأنها نصف نهار أو أقل لهول ما شاهدوا.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى﴾ (٢٤) أي القيامة، وسميت بالطامة
الكبرى لأنها تطم على كل شيء، ولا يكون أطم منها ولا أعظم، حتى ولا
ريح عاد، ولا صيحة ثمود، ولا رجفة يوم الظلة، فهي أكبر من كل طامة.
قال ابن عباس: سميت بذلك لأنها تطم على كل أمر هائل مفضع، كما
قال تعالى: ﴿وَالسَّاعَةُ أَذَىٰ وَأَمْرٌ﴾ [القمر: ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ (٢٥) أي في ذلك اليوم تذكر

(١) ﴿مُنذِرٌ﴾ قرأ أبو جعفر بتنوين الراء، و﴿مِن﴾ مفعوله، وقرأ الباقون بعدم التنوين على
إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله.

الإنسان ما عمله من خير أو شر، ويراه مكتوباً في صحيفة أعماله، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عَهْدِهِ وَنُخْرِجُهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا﴾ [١٣٦] ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

والإنسان يعمل وينسى في هذه الدنيا أعماله، وهي تُحصى وتدوّن له أو عليه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦]، فالعمر يمضي والأعمال تكتب، فإذا جاءت الطامة عرضت عليه أعماله، فيفرح بالحسنات، ويحزن من السيئات، فما أسعد الأتقياء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وما أتعس الأشقياء الذين كفروا وطغوا وفجروا وعصوا.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ النَّاسَ كَيْفَ يُرَىٰ﴾ [٣٦] أي أظهرت النار المتأججة للناظرين، فرآها الناس عياناً، وفي خضم هذه الأحوال، وعند هذا المشهد المخيف، والنار بارزة، حاضرة، تنخلع من هولها القلوب، ويشيب الولدان، وقد روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَىٰ بِالنَّارِ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجْرُونَهَا».

عند ذلك ينقسم الناس إلى قسمين: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ﴾ [٣٧] أي عتا عن أمر ربه فعصاه، ولم يطعه بأداء فرائضه واجتناب نواهيه، والطغيان هو مجاوزة الحد، فمن عتا وتمرد، ولم يعبد الله تعالى فقد طغى إذ السبب لوجود الإنسان في هذه الدنيا عبادة الخالق كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿وَأَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [٣٨] أي فضلها وقدمها على الآخرة، ولم يستعد لها ولا عمل لها ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [٣٩] أي مرجعه ومقره الجحيم، شرابه فيها الحميم وطعامه الزقوم، نعوذ بالله منها، ونسأله النجاة ولا منجّي سواه. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي خاف وقوفه وقيامه بين يدي الله تعالى للحساب والمساءلة والجزاء، أو خاف حكم الله تعالى فيه يوم القيامة، أو جلال الله وعظمته ﴿وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أي ردّ نفسه عن هواها المخالف لأمر الله تعالى ورسوله ﷺ، وألزمها طاعة الله تعالى. قال مقاتل: هو الرجل يهيم بالمعصية، فيذكر مقامه للحساب، فيتركها. اهـ. فمن اتصف بذلك ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [٤٠] أي مثواه ومقره دار النعيم، جنة الخلد،

ولنعم المأوى هي! فيها العيون الجارية، والسرر المرفوعة، والأكواب الموضوعة، والنمارق المصفوفة، والزرابي المبوثة، والكواعب، والعرب الأتراب، فيها النعيم الكامل مما لا يستطاع وصفه، ويكفينا قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٧) ﴿[السجدة: ١٧] وفي الصحيحين الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، نسأل الله الجنة ونعوذ به من النار.

روى الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الْجَنَّةَ ثَلَاثًا، قَالَتِ الْجَنَّةُ لِلَّهِمَّ ادْخُلْهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ اسْتَجَارَ مِنَ النَّارِ ثَلَاثَ مَرَاتٍ، قَالَتِ النَّارُ: اللَّهُمَّ اجْرِهِ مِنَ النَّارِ».

أخرج ابن أبي حاتم من طريق جويبر عن الضحاک عن ابن عباس: أن مشركي أهل مكة سألوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: متى تقوم الساعة؟ استهزاء منهم، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنُهَا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنُهَا﴾ أي يسألك الناس يا محمد عن الساعة متى ظهورها وقيامها؟ ﴿فِيمَ آتَتْ مِنْ ذِكْرِنَا﴾ ﴿٤١﴾ أي في أي شيء أنت من ساعتها لهم؟ أي ليس إليك ذكر وقتها وأوانها، لأنها من الغيب الذي استأثر الله بعلمه. كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣] فعلم الساعة هو من الغيبات التي لا يعلمها إلا الله تعالى، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ قُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وكما في الحديث الصحيح لما سأل جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل».

ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَىٰ﴾ ﴿٤٤﴾ أي منتهى علمها عند الله، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا﴾ ﴿٤٥﴾ أي إنما أنت مبعوث للبلاغ والإنذار والتحذير من مغبة العصيان، لا للإعلام بوقت قيام الساعة، وخص الإنذار بمن يخشى لأنه هو الذي ينتفع بالإنذار.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ رَوْتَهَا لَوْ يَبْتَوُونَ إِلَّا عِيَّةٌ أَوْ ضَحَاةٌ﴾ ﴿٤٦﴾ أي كأن

هؤلاء الكفار حين يشاهدون يوم القيامة وأهوالها لم يلبثوا في الدنيا أو في القبور إلا مدة يسيرة. بمقدار عشية أو ضحاها. والعشية آخر النهار من الزوال إلى غروب الشمس، والضحى أول النهار من طلوع الشمس إلى الزوال، والمراد استقصارهم مدة الحياة الدنيا حتى إنهم يرونها وكأنها نصف يوم أو أقل لهول ما يرون والله أعلم. ولقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

سُورَةُ عَبَسَ

مكية وآياتها ثنتان وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ ﴿ ١ ﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿ ٢ ﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّمْ يَتَّبِعَ ﴿ ٣ ﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ ﴿ ٤ ﴾ فَتَنْفَعُهُ ﴿ ٥ ﴾ أَلَمْ يَتَذَكَّرْ ﴿ ٦ ﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ آيَاتُ أَنْ يُبَيِّنَ ﴿ ٧ ﴾ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿ ٨ ﴾ وَهُوَ يَخْفَى ﴿ ٩ ﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ لَهْفَى ﴿ ١٠ ﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذَكُّرٌ ﴿ ١١ ﴾ فَمَنْ شَاءَ ﴿ ١٢ ﴾ ذَكَرْهُ ﴿ ١٣ ﴾ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴿ ١٤ ﴾ تَرْفَعُهُ مُطَهَّرَةً ﴿ ١٥ ﴾ بِيَأْتِيهِ سَفَرَةٌ ﴿ ١٦ ﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٌ ﴿ ١٧ ﴾ .

بدأت هذه السورة الكريمة بعتاب لطيف للنبي ﷺ على ما كان من إعراضه عن ابن أم مكتوم حين جاءه ينادي: يا رسول الله أقرنتني وعلمني مما علمك الله، وكرر ذلك، والرسول ﷺ منشغل بدعوة سادة قريش رجاء إسلامهم، فيسلم به خلق كثير، وذلك كما روى ابن جرير وابن أبي حاتم: عن ابن عباس أنه قال: بينا رسول الله ﷺ يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب، وكان يتصدى لهم كثيراً، ويحرص عليهم أن يؤمنوا، فأقبل إليه رجل أعمى يقال له: عبد الله بن أم مكتوم، يمشي وهو يناجيهم. فجعل عبد الله يستقرئ النبي ﷺ آية من القرآن وقال: يا رسول الله، علمني مما علمك الله. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وعبس في وجهه وتولى وكره كلامه. وأقبل على الآخرين فلما قضى رسول الله ﷺ نجواه، وأخذ

(١) ﴿تَنْفَعُهُ﴾ قرأ عاصم بنصب العين والباقون برفعها.
 (٢) ﴿تَذَكَّرْ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر بتشديد الصاد على إدغام التاء في الصاد لأن الأصل تتصدى، وقرأ الباقيون بالتخفيف.

ينقلب إلى أهله، أمسك الله بعض بصره وخفق برأسه ثم أنزل الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾... ﴿الآيات. فلما نزل فيه ما نزل، أكرمه رسول الله ﷺ وكلمه، وقال له رسول الله ﷺ: «ما حاجتك؟ هل تريد من شيء؟» وإذا ذهب من عنده قال: «هل لك حاجة في شيء؟».

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ أي قطب وجهه وأعرض ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ أي لأجل أن جاءه الأعمى يسأله ويستفسر ويلح في ذلك وهو مشغول بدعوة القوم، وهو عبد الله بن أم مكتوم كما سبق.

وقال الرازي^(١): أجمع المفسرون على أن الذي عبس وتولى هو الرسول صلوات الله عليه، وأجمعوا أن الأعمى هو ابن مكتوم. قال الشهاب: وهو مكّي قرشي من المهاجرين الأولين. وكان النبي ﷺ يستخلفه على المدينة في أكثر غزواته. وكان ابن خال خديجة أم المؤمنين ﷺ.

وقال ابن حزم: وأما قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ أن جاءه الأعمى ﴿الآيات، فإنه كان ﷺ قد جلس إليه عظيم من عظماء قريش، ورجا إسلامه. وعلم ﷺ أنه لو أسلم لأسلم بإسلامه ناس كثير، وأظهر الدين. وعلم أن هذا الأعمى الذي يسأله عن أشياء من أمور الدين لا يفوته، وهو حاضر معه. فاشتغل عنه ﷺ بما خاف فوته من عظيم الخير، عما لا يخاف فوته. وهذا غاية النظر في الدين والاجتهاد في نصرة القرآن في ظاهر الأمر ونهاية التقرب إلى الله، الذي لو فعله اليوم منا فاعل، لأجر. فعاتبه الله ﷻ على ذلك، إذ كان الأولى عند الله تعالى أن يقبل على ذلك الأعمى الفاضل البر التقي. اهـ^(٢).

قلت: وعبد الله بن أم مكتوم هو المؤذن الثاني لرسول الله ﷺ، واستخلفه النبي ﷺ ثلاث عشرة مرة، وقتل ﷺ شهيداً بالقادسية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ﴾ أي أي شيء يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى ﴿لَعَلَّهُ يَزَنُّ﴾ أي يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح وما يتعلمه منك ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ أي يتعظ ﴿فَنَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ أي الموعظة ﴿أَمَّا مَنْ أَسْتَقَى﴾ بماله وقوته عن

(١) من تفسير الرازي (٥٦/٣٠).

(٢) الفصل (١٨/٤).

الإيمان ﴿فَأَنْتَ لَمْ تَصَدِّقْ﴾ أي تتعرض له وتقبل عليه، وتصغي إلى كلامه حرصاً على إسلامه ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزُكُّهُ﴾ أي وأي شيء عليك إذا لم يتطهر بالإيمان ذلك المستغني، فإنما عليك البلاغ، وقد بلغت. ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعًا﴾ أي جاءك مسرعاً في طلب الهداية والقرب من الله تعالى ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ أي يخاف الله تعالى ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ لَخَّيٌّ﴾ أي تتشاغل وتعرض عنه، وذلك لأنه ﷺ منشغل بسادة قريش لعلهم يهتدون، فيسلمون، فبإسلامهم يسلم خلق كثير، وهذا أمر معلوم، وقوله: ﴿كَلَّا﴾ أي لا تفعل مثل هذا مرة أخرى ﴿إِنَّمَا﴾ أي الآيات القرآنية التي أنزلها الله تعالى على رسوله ﷺ ﴿تَذَكُّرَةٌ﴾ أي موعظة للخلق ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ أي من عباد الله ﴿ذَكَرْهُ﴾ أي اتعظ به، وهو القرآن الكريم.

قال الشيخ ابن عثيمين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في قوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾: أي فمن شاء ذكر ما نزل من الموعظة فاتعظ، ومن شاء لم يتعظ لقول الله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. فالله جعل للإنسان الخيار قدراً بين أن يؤمن ويكفر، أما شرعاً فإنه لا يرضى لعباده الكفر، وليس الإنسان مخير شرعاً بين الكفر والإيمان بل هو مأمور بالإيمان ومفروض عليه الإيمان، لكن من حيث القدر هو مخير وليس كما يزعم بعض الناس مسير مجبر على عمله، بل هذا قول مبتدع ابتدعه الجبرية من الجهمية وغيرهم، فالإنسان في الحقيقة مخير، ولذلك إذا وقع الأمر بغير اختياره كالمكره والنائم والناسي ونحوهم لم يترتب عليه حكمه فيما بينه وبين الله تعالى. ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ أي ذكر ما نزل من الوحي فاتعظ به، ومن شاء لم يذكره، والموفق من وفقه الله ﷻ. اهـ (١).

وقوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ ﴿تَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ ﴿مَكْرَمَةٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾ تعالى، مرفوعة في السماء، منزهة عن مسّ الشياطين لها ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ وهم الملائكة الكرام، جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله، وقيل السفارة: أي الكتابة، قال ابن عباس ومجاهد: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ هم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد. اهـ.

(١) تفسير القرآن الكريم، جزء عم ص(٦١).

وعلى المعنى الأول سفرة جمع سفير، وعلى الثاني: سفرة جمع سافر، وهو الكاتب، يقال للكاتب: سافر، وللكتاب: سِفْرٌ، سمي بذلك لأنه يبين الشيء ويوضحه، ويقال: أسْفَرَ الصبح: إذا كشف وأضاء، ومنه: «أسفروا بالفجر فإنه أعظم للأجر»، وسفرت المرأة إذا كشفت النقاب عن وجهها، ويقال للضرب في الأرض: سفر، لأنه يكشف أخلاق الرجال.

وقوله تعالى: ﴿كِرَامٍ﴾ أي عند الله تعالى ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ أختيار صلحاء ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦] وأخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق، له أجران». والماهر: هو الحاذق بالشيء العارف به، والمراد هنا الذي لا يتوقف ولا يشق عليه قراءته لجودة حفظه ومعرفة مخارج الحروف وأحكام التلاوة الجيدة، أما قوله: «له أجران» فله أجر القراءة وأجر المشقة، ولا يلزم من ذلك أفضلية المتتعتع على الماهر، لأن كون الماهر مع السفرة أفضل من حصول أجرين.



﴿قِيلَ لِلْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرُ﴾ (٧) مِنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقْتُمْ (٨) مِنْ تُطْفِئَهُ خَلْقَهُ فَقَدَرْتُمْ (٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ (١٠) ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرْتُمْ (١١) ثُمَّ إِذَا سَاءَ أَسْرَرْتُمْ (١٢) كَلَّا لَمَّا بُدِئَ مَا مَسْرُهُ (١٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (١٤) أَنَا (١) صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَلْبَسْنَا فِيهَا حَبًّا (١٧) وَعَبْنَا وَقَضَبًا (١٨) وَزَيَّنَّا وَخَلَقْنَا (١٩) وَحَدَائِقَ غُلَبًا (٢٠) وَفَكَهَنَةً وَأَبْنَا (٢١) مَنَّاعًا لَكُمْ وَلَتَعْمَلُنَّ ﴿٢٢﴾ .

قوله تعالى: ﴿قِيلَ لِلْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرُ﴾ (٧) أي لعن الإنسان الكافر ما أشد كفره، والمراد بالإنسان الجنس، فيشمل كل كافر شديد الكفر، وكذلك الذي كان سبباً في نزول الآية.

وقد روي أن هذه الآيات نزلت في عتبة بن أبي لهب، وذلك أنه غاضب

(١) ﴿أَنَا صَبَبْنَا﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف العاشر بفتح الهمزة في الحاليين وقرأ رويس بفتحها وصلأ وكسرهما ابتداء، وقرأ الباقون بكسرهما في الحاليين.

أباه، فأتى النبي ﷺ، ثم أتى أباه فاستصلحه وأعطاه مالا، وجهزه إلى الشام، فبعث عتبة إلى النبي ﷺ وقال: إنه كافر برب النجم إذا هوى، فدعا عليه النبي ﷺ، فأخذه الأسد وأكله بطريق الشام^(١).

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (١٨) أي من أي شيء خلق الله هذا الكافر، والاستفهام هنا معناه التقرير لما يأتي بعده، ولهذا قال تعالى: ﴿مِنْ تُفَّافَةٍ خَلَقَهُ﴾ أي خلقه من ماء مهين ﴿فَقَدَرَهُ﴾ أي أطواراً، نطفة ثم علقه ثم مضغه.

وفي الحديث الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق فقال: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها».

والمراد لفت نظر الإنسان إلى حقيقته، لينظر إلى مبدئه ومنتهاه وما بينهما، فإنه مخلوق ضعيف، مبدؤه نطفة مذرة وآخره جيفة قدرة، وهو بينهما يحمل العذرة، كما قال بعض السلف، فكيف يكفر وكيف يتكبر؟
وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: كيف يفخر الإنسان وقد خرج من موضع البول مرتين؟ اهـ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ﴾ (٢٧) أي يسر الله تعالى له الخروج من بطن أمه، ويسر له أيضاً طريق الهداية، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (١٠) [البلد: ١٠]، ويسر له ما يعيش به من القوت، ففي بطن أمه يتغذى منها، وبعد الولادة بلينها من ثديها، وبعد ذلك فتح له أبواب الرزق والعلم، وأعظم من ذلك هداه إلى طريق الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة بما أرسل من الرسل وأنزل من الكتب.

(١) أخرجه ابن المنذر عن عكرمة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَا إِلَهُكَ﴾ أي قبض روحه عند تمام أجله الذي قدره الله تعالى ﴿فَأَقْبِرْهُ﴾ أي جعله في قبر يُوارى فيه تكرامة له، ولم يجعله مطروحاً على وجه الأرض تأكله السباع أو يتأذى به الأحياء.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا سَاءَ أَنْشُرُهُ﴾ أي ثم إذا شاء الله تعالى أنشره، أي أحياه بعد موته، والله تعالى لا يعجزه شيء، يفعل ما يشاء متى شاء، وكيف شاء، ولكل أجل كتاب.

وفي «الصحيحين» قوله ﷺ: «كل ابن آدم يبلى، إلا عُجْب الذنب، منه خلق ومنه يركب».

وإنما قال: ﴿إِذَا سَاءَ﴾ لأن وقت البعث غير معلوم لأحد، فهو موكول إلى مشيئة الله تعالى متى شاء أن يحيي الخلق أحياهم.

وقوله: ﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر للإنسان عن تكبره وكفره وإنكاره البعث، ﴿لَمَّا يَفِضُ مَا أَمَرُ﴾ أي لم يفعل ما أمره به ربه ولم يؤد ما فُرض عليه.

وقال ابن كثير بعد أن أورد بعض أقوال المفسرين: والذي يقع لي في معنى ذلك - والله أعلم - أن المعنى: ﴿ثُمَّ إِذَا سَاءَ أَنْشُرُهُ﴾ أي بعثه ﴿كَلَّا لَمَّا يَفِضُ مَا أَمَرُ﴾ أي لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة ويفرغ القدر من بني آدم ممن كتب الله أن يسجد منهم ويخرج إلى الدنيا وقد أمر به تعالى كوناً وقدرأ، فإذا تنهى ذلك عند الله تعالى أنشأ الله الخلائق، وأعادهم كما بدأهم. انتهى بحروفه (١).

ثم ذكّر الله تعالى الإنسان بما أنعم عليه فقال: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ أي فليتأمل الإنسان كيف خلق الله طعامه الذي به قوام حياته، وكيف هيأه له ليعتبر فيشكر الله تعالى على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، ومنها هذا الطعام، فمن الذي أنزل الماء من السماء على الأرض وجعلها تنبت من كل زوج بهيج؟ فتكون هذه الزروع المتنوعة فيحصل للإنسان الطعام؟ إنه الله تعالى، وهو سبحانه وتعالى القائل: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُوثُونَ﴾ ﴿١٦﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ

(١) تفسير ابن كثير (٤/٥٠٤).

الزَّرْعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَلًا فَظَلَمْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُعْرِمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ
مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٦٧].

وقال هنا: ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٦٥﴾﴾ أي أنزلناه من السماء على الأرض
﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٦٦﴾﴾ أي بالنبات ﴿فَأَبْنَيْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿حَبًّا﴾ أي
أخرجنا من ذلك النبات سائر الحبوب، كالبر والأرز والحنطة، والشعير والذرة
وغير ذلك. ﴿وَعَنَبًا﴾ فاكهة لذيذة وطعام جيد معروف، ﴿وَقَضْبًا﴾ وهو كل ما
أكل من النبات رطباً، وسمي قضباً لأنه يقضب، أي يقطع مرة بعد مرة
﴿وَزَيْتُونًا﴾ وهو شجر معروف يخرج منه الزيت آدم واستصبح ﴿وَنَخْلًا﴾ وهو
شجر النخيل المعروف، كثير الفوائد للإنسان، يأكل من بلحه وبسره ورطبه
وتمره، وفيه فوائد أخرى كثيرة ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا
فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَّابِقٌ عَلَيْهِ ﴿٢٠﴾﴾ أي بساتين كثيرة الأشجار ملتفة
الأغصان ﴿وَفَلَاحَةٌ﴾ أي ما يؤكل من ثمار الأشجار ﴿وَأَبَّأ﴾ وهو المرعى الذي
تأكله الحيوانات من العشب والنبات ﴿مَنْعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعِمَكُمُ ﴿٢١﴾﴾ أي فعلنا ذلك
تمتيعاً ومنفعة لكم ولمواشيكم إلى حين، فلکم الفواكه والحبوب، ولأنعامكم
الكأ والعشب، فلله الحمد والمنة، وله الشكر والثناء كما يحب ربنا ويرضا.



﴿إِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ ﴿٣٣﴾﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَنْحِيلِهِ
وَأَبْنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ
﴿٣٩﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَفَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفَجْرَةُ ﴿٤٢﴾ .

بعد أن بين الله تعالى مبدأ الإنسان وما هيأه له من أسباب العيش وطريق
الفلاح في الدنيا والآخرة ذكر معاده ومآله، وصدّر ذلك بذكر بعض أحداث
يوم القيامة.

فقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ ﴿٣٣﴾﴾ أي الصيحة العظيمة التي تصخ
الأذان، أي تبلغ في إسماعها حتى تكاد تصمها لشدتها.

قال ابن عباس: الصاخة من أسماء يوم القيامة، عظمه الله وحذره عباده. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ^(١)﴾ (٢٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٢٥) وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ (٢٦) هؤلاء هم قرابة الإنسان وأحبابه وألصق الناس به، ففي ذلك اليوم يفر ويهرب منهم، ويتباعد عنهم إما لخوف مطالبته بتقصير في حقهم في الحياة الدنيا، أو لما هو فيه من اشتغاله بنفسه عن الكل، أو لثلا يروا ما قد ينزل به من الهوان. والله أعلم.

وقال عكرمة: يلقي الرجل زوجته فيقول لها: يا هذه أي بعل كنت لك؟ فتقول: نعم البعل كنت، وتثني بخير ما استطاعت، فيقول لها: إني أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تهيئها لي لعلني أنجو مما ترين، فتقول له: ما أيسر ما طلبت ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئاً أتخوف مثل الذي تخاف. قال: وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به فيقول: يا بني أي والد كنت لك؟ فيثني بخير، فيقول له: يا بني إني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلني أنجو بها مما ترى، فيقول ولده: يا أبت ما أيسر ما طلبت ولكني أتخوف مثل الذي تتخوف فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً، يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٢٤) وَأُمِّهِ (٢٥) وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ (٢٦)﴾.

وقال ابن كثير: وفي الحديث الصحيح - في أمر الشفاعة - أنه إذا طلب إلى كل من أولي العزم أن يشفع عند الله في الخلائق، يقول: نفسي نفسي، لا أسأله اليوم إلا نفسي، حتى إن عيسى ابن مريم يقول: لا أسأله اليوم إلا نفسي، لا أسأله مريم التي ولدني، ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٢٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٢٥) وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ (٢٦)﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ آتٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (٢٧) أي لكل إنسان في ذلك اليوم شأن يشغله عن شأن غيره، فلذلك هو منشغل بنفسه عن كل شيء. روى الترمذي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «يحشرون حفاة عراة

(١) قيل: أول من يفر هو قابيل من أخيه هابيل، وقيل: يفر يوم القيامة إبراهيم عليه السلام من أبيه، ونوح عليه السلام من ابنه، ولوط عليه السلام من امرأته.

غرلا»، فقالت امرأة: أيبصر أو أينظر بعضنا عورة بعض؟ قال: «يا فلانة ﴿لِكَلِّ أَمْرِي يَنْتَهَمِ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (٣٧)». ومعنى قوله: «غرلا» جمع أغرل، وهو الأغلف، الذي لم تؤخذ غلفة ذكره بالختان.

ثم قسم الله تعالى الناس في ذلك اليوم إلى قسمين، فالقسم الأول كما قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ (١٧٨) أي مضيئة مشرقة، ﴿صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ (١٧٩) أي فرحة مسرورة بما تنال من كرامة الله تعالى ورضوانه، وذلك بعد الفراغ من الحساب، وهم المؤمنون والمؤمنات الذين اتقوا ربهم في السر والعلانية.

وأما القسم الثاني فكما قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ (٤٤) أي غبار وكدورة لما تراه مما أعده الله لها من العذاب ﴿تَرْمَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ (٤١) أي يغشاها ويعلوها ظلمة وسواد، قال ابن عباس: تغاشاها ذلة. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكُفَرَةُ الْفَجْرَةُ﴾ (٤٢) أي الذين جمعوا بين الكفر والفجور.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

مكية وآياتها تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ (١) ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ (٢) ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ (٣)
 ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ (٤) ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ (٥) ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ (٦) ﴿ وَإِذَا
 النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ (٧) ﴿ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّتَتْ ﴾ (٨) ﴿ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنِلَتْ ﴾ (٩) ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ
 نُشِرَتْ ﴾ (١٠) ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ (١١) ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ (١٢) ﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ (١٣)
 عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ (١٤) .

روى الإمام أحمد والترمذي وغيرهما عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سره أن ينظر إلى يوم القيامة، كأنه رأي عين فليقرأ ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ (١) و﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ (١١) ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ (١١)» .

اشتمل أول هذه السورة العظيمة على اثني عشر حدثاً من حوادث يوم القيامة، منها ستة في الدنيا والستة الأخرى في الآخرة، وبدأت السورة بـ ﴿ إِذَا ﴾ ووقعت هذه الأحداث شرطاً لها، وجواب هذه الأحداث قوله تعالى: ﴿ عَلِمَتْ

(١) ﴿ سُجِّرَتْ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بخلف عن رويس بتخفيف الجيم على الأصل وقرأ الباقر بتشديدها على التكثر.

(٢) ﴿ قُنِلَتْ ﴾ قرأ أبو جعفر بتشديد التاء على التكثر والباقر بتخفيفها على الأصل.

(٣) ﴿ نُشِرَتْ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف العاشر بتشديد الشين للمبالغة والباقر بتخفيفها على الأصل ورقق ورش راءه.

(٤) ﴿ سُعِّرَتْ ﴾ قرأ نافع وابن ذكوان وحفص وأبو جعفر ورويس وشعبة بخلف عنه بتشديد العين والباقر بتخفيفها، ورقق ورش راءه.

نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتَ ﴿٤٤﴾ قيل: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ هذه السورة، فلما بلغ قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتَ ﴿٤٤﴾﴾ قال: لهذا أجزى الحديث.

وبينت الآيات مشاهد ليوم القيامة كأنها ترى رأي العين كما في الحديث السابق، وتلك الأحداث بعضها سابق على يوم القيامة وبعضها يكون فيه، وكذلك تقرير عقيدة البعث والحساب، وفيها من الوعيد الشديد ما يردع عن التماذي في الكفر والعصيان إذ سيرى كل إنسان ما قدم من خير أو شر، ويرى النار عياناً والجنة بياناً، فعند ذلك يعلم مصيره.

قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ أي لفت وذهب ضوءها، ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾ أي تساقطت وتناثرت، ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾﴾ أي أزيلت عن مواضعها، ونُسفت وسيرت في الهواء وصارت هباءً منبثاً، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسِِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾﴾ أي أهملت وتُركت لا راعي لها ولا طالب، لأنهم أتاهم ما شغلهم عنها، والعشار جمع عُشراء، وهي الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر، وخصها بالذكر لأنها أنفس أموال العرب، فإذا أهملوها، فكيف بغيرها؟ وفيه بيان لشدة أهوال يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾ أي جمعت يوم القيامة أمام الناس، ويقتص لبعضها من بعض، حتى إنه يقتص للشاة الجلحاء من القرناء، ثم يقول الله تعالى لها: كوني تراباً، كما في الحديث وقد مر في سورة النبأ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾ أي أوقدت فصارت ناراً، ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾ أي ضُمَّت إلى أشكالها في الخير والشر وضمَّت أصنافاً ليحشر كل صنف مع مَنْ يجانسه ويشاكله من السعداء والأشقياء.

أخرج ابن مردويه عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾ قال: «هما الرجلان يعملان العمل يدخلان به الجنة والنار».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾ قال: تزويجها أن يؤلف كل قوم إلى شبيهم، وقرأ: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿١١﴾﴾ [الصفات: ٢٢] أي أصنافهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ المؤودة هي البنت تدفن حية، وكانت بعض أحياء العرب في الجاهلية تفعله خشية الفقر أو العار لسوء ظنهم بالله تعالى. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٥٨ - ٥٩]، وسؤالها إنما هو على وجه التوبيخ والتبكيت لقاتلها بدون سبب، لأنها تسأل أمامه، ولا ذنب لها.

وكان للعرب تفنن في الواد. فمنهم من إذا صارت بنته سداسية يقول لأمها: طيبها وزينها حتى أذهب بها إلى أحماؤها. وقد حفر لها بئراً في الصحراء. فيبلغ بها البئر فيقول لها: انظري فيها. ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالأرض.

ومنهم من كان إذا قربت امرأته من الوضع، حفر حفرة لتمخض على رأس الحفرة. فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة، وإن ولدت ابناً حبسته. وقد اشتهر صعصعة بن ناجية ابن عقال، جد الفرزدق بن غالب، بأنه كان ممن فدى الموءودات في الجاهلية، ونهى عن قتلهن. قيل: إنه أحيا ألف موءودة، وقيل دون ذلك.

وروى أبو عبيدة: أن صعصعة - هذا - وفد على رسول الله ﷺ في وفد بني تميم. قال: وكان صعصعة منع الواد في الجاهلية، فلم يدع تميماً تئد وهو يقدر على ذلك. فجاء الإسلام وقد فدى في بعض الروايات أربعمائة موءودة، وفي أخرى ثلاثمائة، فقال للنبي ﷺ: بأبي أنت وأمي! أوصني. فقال: «أوصيك بأملك وأبيك وأختك وأخيك وأدانيك وأدانيك». فقال: زدني. فقال عليه الصلاة والسلام: «احفظ ما بين لحييك ورجليك». ثم قال عليه الصلاة والسلام: «ما شيء بلغني عنك فعلته؟» فقال: يا رسول الله، رأيت الناس يمجون على غير وجه ولم أدر أين الصواب. غير أنني علمت أنهم ليسوا عليه. فرأيتهم يثدون بناتهم، فعرفت أن ربهم ﷻ لم يأمرهم بذلك، فلم أتركهم. ففديت ما قدرت عليه. ويقال: إنه اجتمع جرير والفرزدق يوماً عند سليمان بن عبد الملك فافتخرا. فقال الفرزدق: أنا ابن محيي الموتى. فقال له سليمان: أنت ابن محيي الموتى؟ فقال: إن جدي أحيا الموءودة، وقد

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَخْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، وقد أحيا جدي اثنتين وتسعين موءودة، فتبسم سليمان. وقال: إنك مع شعرك لفقير.

وقد روى عبد الرزاق عن عمر بن الخطاب في هذه الآية قال: جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إني وأدت بنات لي في الجاهلية. قال: «أعتق عن كل واحدة منهن رقبة». قال: يا رسول الله، إني صاحب إبل. قال: «فانحر عن كل واحدة منهن بدنة».

وروى الدارمي في أوائل مسنده أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان، فكنا نقتل الأولاد، وكانت عندي ابنة لي، فلما أجابت، وكانت مسرورة بدعائي إذا دعوتها، فدعوتها يوماً فاتبعني فمررت حتى أتيت بئراً من أهلي غير بعيد فأخذت بيدها فرديتها في البئر، وكان آخر عهدي بها أن تقول: يا أبتاه، يا أبتاه، فبكى رسول الله ﷺ حتى وكف دمع عينيه. فقال له رجل من جلساء رسول الله ﷺ: أحزنت رسول الله ﷺ. فقال له رسول الله ﷺ: «كف، فإنه يسأل عما أهّمه». ثم قال له: «أعد عليّ حديثك»، فأعاده. فبكى رسول الله ﷺ حتى وكف الدمع من عينيه على لحيته. ثم قال له: «إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا، فاستأنف عملك».

وحكي أن عمرو بن العاص دخل على معاوية وعنده ابنته. فقال: من هذه يا معاوية؟ فقال: هذه تفاحة القلب وريحانة العين وشمامة الأنف. فقال: أمّظها عنك. قال: ولم؟ قال: لأنهن يلدن الأعداء، ويقربن البعداء، ويورثن الشحناء، ويثرن البغضاء. قال: لا تقل ذلك يا عمرو! فوالله ما مرّض المرضى، ولا نذب الموتى، ولا أعان على الزمان، ولا أذهب جيش الأحران مثلهن، وإنك لو أجدّ خالاً قد نفعه بنو أخته، وأباً قد رفعه نسل بنيه. فقال: يا معاوية! دخلت عليك وما على الأرض شيء أبغض إليّ منهن، وإني لأخرج من عندك وما عليها شيء أحب إليّ منهن.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ ﴿١٧﴾ أي صحف أعمال العباد تنشر لهم عند الحساب مكتوب فيها الحسنات والسيئات ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ ﴿١٨﴾ أي

أزيلت عن أماكنها كما يكشط جلد الذبيحة عنها عند سلعها ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ﴿٧﴾﴾ أي أوقدت والتهبت. قال قتادة: سعرها غضب الله وخطايا بني آدم. اهـ. ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُرْفِتْ ﴿١٣﴾﴾ أي قربت للمتقين ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ أي علمت كل نفس عند ذلك ما قدمت من خير أو شر، فقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ﴾ جواب لجميع ما سبق من الشروط من أول السورة، أي من قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ إلى ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُرْفِتْ ﴿١٣﴾﴾.

وهذه بعض أقوال السلف عن هذه الآيات:

أخرج الطبري بسنده الجيد عن أبي العالية، قال: حدثني أبي بن كعب، قال: ست آيات قبل يوم القيامة بينا الناس في أسواقهم، إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك، إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك، إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحركت واضطربت واحترقت، وفزعت الجن إلى الإنس، والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب والطيور والوحش، وماجوا بعضهم في بعض ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾ قال: اختلطت، ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿١١﴾﴾ قال: أهملها أهلها، ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾ قال: قالت الجن للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، قال: فانطلقوا إلى البحار، فإذا هي نار تأجج، قال: فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى، وإلى السماء السابعة العليا، قال: فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الرياح فأماتتهم.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ قال: ذهب ضوءها فلا ضوء لها ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٦﴾﴾ قال: تساقطت وتهافتت ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿١١﴾﴾ قال: سيبها أهلها أتاهم ما شغلهم عنها فلم تصر ولم تحلب ولم يكن في الدنيا مال أعجب إليهم منها ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾ قال: إن هذه الخلائق موافية يوم القيامة فيقضي الله فيها ما يشاء ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾ قال: ذهب ماؤها ولم يبق منها قطرة ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾ قال: ألحق كل إنسان بشيعته اليهود باليهود والنصراني بالنصراني ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿١٢﴾﴾ قال: هي في بعض القراءة ﴿سَأَلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ قال: لا بذنب. وكان أهل الجاهلية يقتل أحدهم

ابنته ويغذو كلبه، فعاب الله ذلك عليهم ﴿وَإِذَا الضُّعْفُ نُشِرَتْ ﴿١٥﴾﴾ قال: صحيفتك يا ابن آدم يملأ ما فيها، ثم تطوى، ثم تنشر عليك يوم القيامة فينظر الرجل ما يملأ في صحيفته ﴿وَإِذَا الْحَجِيمُ سُعِرَتْ ﴿١٦﴾﴾ قال: أوقدت ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُرْلِفَتْ ﴿١٧﴾﴾ قال: قربت ﴿عَمِتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٨﴾﴾ من عمل قال: قال عمر رضي الله عنه... إلى ههنا آخر الحديث.



﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْخَنَسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ﴿١٧﴾ وَالضُّبْحِ إِذَا نَفَسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْيُبَيْنِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ ﴿٢٥﴾ فَأَنَّى تَذَهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

بعد تقرير عقيدة البعث والجزاء، وبيان أحوال يوم القيامة وأهوالها، وتصوير ذلك تصويراً حياً كأن الإنسان يراه رأي العين وعند ذلك تتكشف الأحوال، وتعرف الحقائق والأعمال، ويعرف كل إنسان مصيره ومآله، أقسم الله تعالى على صدق القرآن وصحة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

فقال تعالى: ﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْخَنَسِ ﴿١٥﴾﴾، (لا) هنا ليست نافية، بل هي مثبتة للقسم، والمعنى: أقسم بالخنس، وقيل: إن (لا) زائدة، والتقدير أقسم بالخنس، وقيل: هو ردٌ لتكذيبهم بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم، وقولهم: إنه ساحر وكاهن ونحو ذلك، أي ليس الأمر كما زعمتم، أقسم... إلخ.

والخنس هي النجوم تبدو بالليل وتخنس بالنهار فتختفي فلا ترى، وقيل: هي الدراري الخمسة: عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل، وذلك أن هذه الكواكب تخنس في جريها، أي تتقهقر فيما ترى العين وهي جوار في السماء.

(١) ﴿بِضَنِينٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس والكسائي بالطاء المشالة والباقون بالضاد.

والخنس جمع خانس، وهو المتأخر من قولهم: خنس الرجل: إذا تأخر عن القوم أو رجع عنهم، لأن أصل الخنوس الرجوع إلى الخلف، والخناس: الشيطان، لأنه يخنس إذا ذكر الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿الْجَوَارِ﴾ وقف عليها يعقوب بالياء «الجواري» وغيره بحذف الياء، والمعنى: التي تجري وتسير مع الشمس والقمر ﴿الْكُنَّسِ﴾ أي الغيب التي تدخل في بروجها في رأي العين، من قولهم: كنس الوحش إذا دخل كناسه، وهو بيته الذي يأوي إليه.

قال القرطبي: النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل، وتكنس وقت غروبها، أي تستتر كما تكنس الظباء في كناسها. اهـ.

فأقسم الله تعالى بهذه النجوم، ثم أقسم بالليل والنهار فقال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾ أي أدبر ولم يبق إلا اليسير، وذلك وقت السحر، أو أقبل، لأن لفظ عسس بمعنى: أقبل أو أدبر، فهو من أسماء الأضداد، واختار ابن كثير أن الأرجح «أقبل» لمقابلته بالصبح، قال: فكأنه يقول: أقسم بالليل حين يقبل بظلامه، وبالنهار حين يقبل بضياؤه. اهـ. ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ﴾ أي أقبل وتبين واتسع ضياؤه حتى صار نهاراً واضحاً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وهذا هو جواب القسم، ﴿إِنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هو جبريل عليه السلام، فإنه رسول الله إلى الرسل بالوحي الذي ينزله عليهم، وهو كريم على الله تعالى، وأضاف إليه القرآن لنزوله به، وهو في الحقيقة كلام الله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ أي جبريل صاحب قوة عظيمة أمده الله تعالى بها، رآه الرسول محمد ﷺ على صورته التي خلقه الله تعالى عليها، له ستمائة جناح، قد سد الأفق، كما في الحديث الصحيح.

وقوله تعالى: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي صاحب مكانة وشرف ومزلة لديه تعالى ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ أي إن جبريل عليه السلام مطاع هناك في الملأ الأعلى، فهو مقدم ملائكة السماء، والمقرب عند ربه، والمطاع بين صحبه والأمين على ما أنزله الله به من وحيه.

وبعد أن وصف الله تعالى الرسول الملكي وصف الرسول البشري محمد ﷺ فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ (٢٢) أي ليس مجنوناً، بل هو أعدل العقلاء، وأكمل الناس عقلاً ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٧) [الصفات: ٢٧]، وهذا نفي لما كان يتهمه به أعداؤه ﷺ حسداً وهم يعرفونه تمام المعرفة، حيث نشأ بينهم ومعهم، وبقي فيهم أربعين سنة قبل النبوة، فيعرفون أمانته وصدقه، وكانوا يسمونه الصادق الأمين قبل البعثة ولهذا ذكر الصحبة فقال: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ وصاحب الإنسان معروف عنده.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْأَيْمَنِ﴾ (٢٢) أي ولقد رأى محمد ﷺ جبريل ﷺ بالأفق الأعلى البين الظاهر، فإن النبي ﷺ قد رأى جبريل ﷺ على صورته التي خلقه الله عليها مرتين، مرة في غار حراء، ومرة في السماء السابعة لما عرج به.

وأخرج ابن عساكر عن معاوية بن قرة قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما أحسن ما أثنى عليك ربك ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ (٢٠) مُطَاعٌ ثُمَّ أَمِينٌ ﴿٢١﴾ فما كانت قوتك وما كانت أمانتك؟ قال: أما قوتي فإني بُعثت إلى مدائن لوط وهي أربع مدائن، وفي كل مدينة أربعمئة ألف مقاتل سوى الذراري فحملتهم من الأرض السفلى حتى سمع أهل السماء أصوات الدجاج ونباح الكلاب، ثم هويت بهم فقتلتهم، وأما أمانتي فلم أؤمر بشيء فعدوته إلى غيره».

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ لجبريل ليلة الإسراء: «اكشف عن النار» فكشف عنها فنظر إليها، فذلك قوله: ﴿مُطَاعٌ ثُمَّ أَمِينٌ﴾ (٢١) على الوحي ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ (٢٢) محمد ﷺ.

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ في «العظمة» عن أبي صالح في قوله: ﴿مُطَاعٌ ثُمَّ أَمِينٌ﴾ (٢١) قال: أمين على سبعين حجاباً يدخلها بغير إذن ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ (٢٢) قال: محمد ﷺ، وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْأَيْمَنِ﴾ (٢٢) قال: كنا نحدث أنه الأفق الذي يجيء منه النهار، وفي لفظ: إن الأفق من حيث تطلع الشمس.

وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن مسعود ﴿وَلَقَدْ رَآهُ

بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ﴿١٣﴾ قال: جبريل في ررف أخضر قد سد الأفق.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ﴿١٣﴾ قال: رأى جبريل له ستمائة جناح قد سد الأفق.

قال ابن كثير رَضِيَ اللهُ: والظاهر - والله أعلم - أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء، لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية، وهي الأولى، وأما الثانية وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴿١٥﴾﴾ [النجم: ١٣ - ١٥]، فتلك إنما ذكرت في سورة النجم، وقد نزلت بعد سورة الإسراء. اهـ^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿١٤﴾﴾ أي ببخيل، وهو نفي البخل عنه ﷺ، فلا يبخل بالوحي، ولا يقصر في التبليغ، بل هو أشد الناس بذلاً لما أوحى إليه، يعلم الناس ويرشدهم إلى ما فيه سعادتهم، حريص على هدايتهم، وفي قراءة (بظنين)^(٢) بالظاء المشالة، أي ما هو بمتهم على ما يخبر به من الغيب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ أي ليس القرآن بقول شيطان من الشياطين المستترفة للسمع المرجومة بالشهب، وهو نفي لقولهم: إنه كهانة. ﴿فَأَيُّ تَذَهُبُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي فأي طريق تسلكون في تكذيبكم للقرآن، واتهامكم له بالسحر والكهانة والشعر والأساطير مع وضوحه وبيان كونه حقاً من عند الله تعالى، ولعل ذلك يقال لمن ينكر حقيقة ظاهرة، كأن يقال: أين يذهب عقلك؟

وقال قتادة: ﴿فَأَيُّ تَذَهُبُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي عن كتاب الله وعن طاعته. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ ﴿١٧﴾﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾﴾ أي تذكرة وموعظة للخلق أجمعين ﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿١٨﴾﴾ بدل من ﴿العالمين﴾ أي إنه ذكرى لمن أراد الاستقامة على الطريق الحق، بصرف إرادته وميله إليه،

(١) تفسير ابن كثير (٤/٥١٢).

(٢) قد تقدم بيان ذلك.

والثبات عليه، أما مَنْ أعرض ونأى، فمن أين تنفعه الذكرى؟ قال مجاهد:
﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (١٨) قال: يتبع الحق.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٩) أي ليست
المشيئة موكولة إليكم، فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل، بل ذلك كله تابع
لمشيئة الله تعالى، رب الإنس والجن والعالم كله، ومثل هذه الآية قوله
تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لِنُفَيْسَ أَنْ تُوْهِبَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠].

رُوي أن أبا جهل لما سمع قوله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (١٨)
قال: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا
نَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٩)

سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

مكية وآياتها تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انثَرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٤﴾
 وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴿٥﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ ﴿٦﴾ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ
 الْكَبِيرِ ﴿٧﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَّلَكَ ^(١) ﴿٨﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٩﴾
 كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ ^(٢) بِالَّذِينَ ﴿١٠﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١١﴾ كِرَامًا كَنِينِينَ ﴿١٢﴾ يَعْلَمُونَ مَا
 تَفْعَلُونَ ﴿١٣﴾ .

روى الإمام أحمد والترمذي وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كَأَنَّهُ رَأَى عَيْنٍ، فَلْيَقْرَأْ ﴿إِذَا السَّمَاءُ كُوِّرَتْ﴾ ﴿١﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ ﴿٢﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ﴿٣﴾».

فهذه السورة كسابقتها سورة التكويم، تتحدث عن الانقلاب الكوني وما يحدث من أهوال يوم القيامة إيذاناً بنهاية هذا العالم، وما يتبع ذلك من عرض وحساب وجزاء فجنة أو نار.

ومما يذكر عند هذه السورة هذا الحديث: أخرج النسائي عن جابر قال: قام معاذ فصلى العشاء فطول، فقال النبي ﷺ: «أفتان أنت يا معاذ؟ أين أنت من ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿١﴾ و﴿وَالضُّحَى﴾ ﴿٢﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ ﴿٣﴾ ويؤخذ من

(١) ﴿فَعَدَّلَكَ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف العاشر بتخفيف الدال وقرأ الباقون بتشديدها.

(٢) ﴿تُكذِّبُونَ﴾ قرأ أبو جعفر بياء الغيبة والباقون ببناء الخطاب.

هذا الحديث أن على الإمام تخفيف الصلاة، وأن يقتدي بأضعفهم. أي المصلين».

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾، أي انشقت، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمْ وَرُزُلِ الْمَلَكِئِكَةِ تَنْزِيلًا ﴿١٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾﴾ [الانشقاق: ١، ٢]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرحمن: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انثَرَتْ ﴿٢﴾﴾ أي تساقطت، ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾﴾ أي فُتِح بعضها إلى بعض، فصارت بحراً واحداً واختلط عذبتها بمالحها ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴿٤﴾﴾ أي قلب ترابها وأخرج ما فيها من الموتى وقاموا لله ﷻ، فهذه الأمور الأربعة إذا حصلت ﴿عِلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ وهذا جواب ﴿إِذَا﴾ في أول الآيات، وهذه الأمور منها ثلاثة في الدنيا وهي: انفطار السماء، وانتثار الكواكب، وتفجر البحار، أي تكون في النفخة الأولى، أما الرابع وهو بعثرة القبور فيكون في الآخرة في النفخة الثانية وهي نفخة البعث، فيقوم الناس لرب العالمين وتنشر صحف أعمال العباد، فتعلم كل نفس ما قدمت وأخرت. وذلك بما يعرض عليها من الكتاب، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَمِنَهُ طَلَبُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخِرُ لَوْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]، فيجد الإنسان أعماله حاضرة، ما قدم وما أخر، وإن كان قد نسي ما أسلف من أعمال فكتاب الأعمال ﴿لَا يُفَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

والمراد التحذير من المعاصي والحث على الطاعة، لأن كل شيء مدون مكتوب، وسيحاسب عليه العبد، ويعفو الله عن من يشاء ﴿وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ومن ثم يشمل المعنى أعمال الإنسان الحسنة والسيئة التي تصاحبه في حياته أو يبقى أثرها بعده، وهي السنة الحسنة والسنة السيئة، كما في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سَنَةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مَنْ غَيْرَ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ

أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦١﴾﴾ أي أي شيء خدعك وجراك على عصيان ربك والانحراف عن فطرته، وهذا تهديد لا كما يظن البعض من أنه إرشاد إلى الجواب، لأنه قال: ﴿الْكَرِيمِ﴾ حتى قال قائلهم: غره كرمه! بل المعنى في هذه الآية: ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم، أي العظيم، حتى أقدمت على معصيته وقابلته بما لا يليق؟

رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦١﴾﴾ فقال: غره والله جهله، وعن قتادة قال: غره شيطانه المسلط عليه.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ﴾ أي الذي أوجدك من العدم ﴿فَسَوَّكَ﴾ أي جعلك سويًا متساوي الأعضاء والقوى، مزوداً بالحواس من السمع والبصر، وفيك العقل والعلم والفهم ﴿فَعَدَّلَكَ﴾ أي جعلك معتدل القامة، مستوي الخلق لا كالبهائم ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَبُّكَ ﴿٦٢﴾﴾ أي إن الله تعالى ركبك في أي صورة شاءها، وهو سبحانه وتعالى ركبك أيها الإنسان في أحسن الصور وأجملها، ويشمل اختلاف الناس في أمور عدة، كالشبه بأحد الأبوين، والجمال والقبح والتوسط بينهما، والبياض والسواد وما بينهما، وغير ذلك، وكله بمشيئة الله تعالى. لا اختيار للإنسان فيه، لكن الله سبحانه خلق الإنسان في أحسن تقويم.

قال ابن القيم رحمته الله في «الجواب الكافي»: فإن العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وآخرته، ولا بد. ولكن تغالطه نفسه، ومن ذلك من يغتر بفهم فاسد، فهمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة فاتكلوا عليه. قال: كأغترار بعض الجهال بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦١﴾﴾ فيقول: كرمه. وقد يقول بعضهم: إنه لقن المغتر حجته. وهذا جهل قبيح. وإنما غره بربه الغرور، وهو الشيطان، ونفسه الأمارة بالسوء، وجهله وهواه. وأتى سبحانه بلفظ ﴿الْكَرِيمِ﴾، وهو السيد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاغترار به ولا إهمال حقه. فوضع هذا المغتر (الغرور)

في غير موضعه، واغتر بمن لا ينبغي الاغترار به. انتهى^(١).

وقال الإمام أبو حامد الغزالي في «إحياء علوم الدين»: «على العبد أن يستعمل الخوف. فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه، ويقول: إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب. وإنه مع أنه كريم، خلد الكفار في النار أبد الآباد. مع أنه لم يضره كفرهم. بل سلط العذاب والمحن والأمراض والعلل والفقر والجوع على جملة من عباده في الدنيا، وهو قادر على إزالتها. فَمَنْ هذه سنته في عباده، وقد خَوَّفني عقابه، فكيف لا أخافه؟ كيف أغتر به؟ فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل. فما لا يبعث على العمل فهو تمنّ وغرور، ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم، وسبب إقبالهم على الدنيا، وسبب إعراضهم عن الله تعالى، وإهمالهم السعي للآخرة، فذلك غرور. وقد روي أن الغرور سيغلب على قلوب آخر هذه الأمة. وقد كان ذلك، فقد كان الناس في الأعصار الأول يواظبون على العبادات، ويؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، يخافون على أنفسهم، وهم طول الليل والنهار في طاعة الله، يبالغون في التقوى والحذر من الشبهات، والشهوات، ويبكون على أنفسهم في الخلوات. وأما الآن^(٢) فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين. مع إكبابهم على المعاصي وانهماكهم في الدنيا وإعراضهم عن الله تعالى. زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله، راجون لعفوه ومغفرته. كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون. فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى، وينال بالهوي، فعلى ماذا كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم؟

ثم قال: والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف. لا يتفكر فيه متكفر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه، إن كان مؤمناً بما فيه. وترى الناس يهدونه هذا. يخرجون الحروف من مخارجها ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها،

(١) الجواب الكافي ص(١١).

(٢) هذا قول حجة الإسلام أبي حامد الغزالي رحمته الله، وهو قد عاش ما بين (٤٦٠، و٥٠٥ هجرية)، فماذا يقول لو رأى زماننا ونحن الآن في بداية القرن الخامس عشر الهجري؟ نسأل الله الرحمة، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

وكانهم يقرؤون شعراً من أشعار العرب. لا يهمهم الالتفات إلى معانيه، والعمل بما فيه. وهل في العالم غرور يزيد على هذا؟ اهـ.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي ما غرك كرم الله ولا حلمه ﴿بَلْ تُكْذِبُونَ بِالَّذِينَ﴾ أي بالبعث والجزاء في الدار الآخرة، فهو الذي جرأكم على الكفر والعصيان، فهم مكذبون عموماً بالجزاء أو بالدين نفسه^(١)، فهذا هو الذي غرهم بربهم، لا كرمه كما أسلفنا.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ أي رقباء من الملائكة يحفظون أعمالكم ويحسونها عليكم، كما قال تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿كِرَامًا﴾ على الله ﴿كِنِينٍ﴾ يكتبون أقوالكم في صحائفكم التي سوف تخرج لكم عند الحساب ﴿يَعْمَلُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [ص: ٧] من خير أو شر، فيحسونه عليكم، وهذا - والله أعلم - إما بالمشاهدة إن كان فعلاً، وإما بالسمع إن كان قولاً، وإن كان من أعمال القلب فيما يطلعهم الله عليه فيكتبونه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمَلَهَا كُتِبَتْ لَهُ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تَكُتَبْ وَإِنْ عَمَلَهَا كُتِبَتْ» [رواه مسلم وهذا لفظه].

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: جعل الله على ابن آدم حافظين في الليل وحافظين في النهار يحفظان عمله ويكتبان أثره.

وأخرج البزار عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ عَنِ التَّعَرِّيِّ فَاسْتَحْيُوا مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ الَّذِينَ مَعَكُمْ الْكِرَامُ الْكَاتِبِينَ الَّذِينَ لَا يَفَارِقُونَكُمْ إِلَّا عِنْدَ إِحْدَى ثَلَاثِ حَاجَاتٍ: الْغَائِطُ وَالْجَنَابَةُ وَالْغَسْلُ».

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: خرج رسول الله ﷺ عند الظهر فرأى رجلاً يغتسل بفلاة من الأرض، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فاتقوا الله وأكرموا الكرام الكاتبين الذين معكم ليس يفارقونكم إلا عند إحدى

(١) من قواعد التفسير وشرح الحديث أن النص إذا احتمل معنيين لا ينافي أحدهما الآخر حمل عليهما.

منزلتين: حيث يكون الرجل على خلائه، أو يكون مع أهله، لأنهم كرام كما سماهم الله، فيستتر أحدكم عند ذلك بجرم حائط أو بعيهه فإنهم لا ينظرون إليه».

وأخرج البزار عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من حافظين يرفعان إلى الله ما حفظا في يوم فيرى في أول الصحيفة وآخرها استغفاراً إلا قال الله: قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة».



﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٦﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٧﴾ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا تُمَّ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٨﴾ يَوْمَ ﴿١﴾ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾﴾

بعد أن ذكر الله تعالى بعض أهوال يوم القيامة، وأنه في ذلك اليوم يجد الإنسان أعماله خيراً وشرها، ونعى على الإنسان اغتراره وانخداعه، حتى تجرأ على معصية خالقه، وقابل نعمه بما لا يليق، وبيّن أن الأعمال تُكتب وتُحصى على كل إنسان بواسطة كرام كاتبين لا تغيب عنهم أعمال العباد بما أقدرهم على ذلك، ذكر هنا انقسام الناس يوم القيامة إلى أبرار وفجار، وذكر مآل كل من الفريقين، ثم ذكر يوم الحساب والجزاء والقيامة، وعظم شأنه تحذيراً للعباد، وبيّن الله تعالى ضعف الإنسان أمام هذه الأحداث، فليس لأحد أن ينفع أحداً أو يدفع عنه ضرراً ما لم يأذن الله، وأن الله تعالى هو المتفرد بالحكم والسلطان والجلال على الدوام، وإن كان مَلَكٌ أحداً من عباده شيئاً في الحياة الدنيا، فإنه تعالى يستأثر بكل شيء في ذلك اليوم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ الأبرار هم الذين بروا وصدقوا في إيمانهم بأداء ما افترض الله عليهم واجتناب معاصيه. وهؤلاء لهم الجنة في

(١) ﴿يَوْمَ لَا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب برفع الميم على أنه خبر المبتدأ محذوف، وقرأ الباقون بنصب الميم على الظرفية.

الآخرة، وهي غاية النعيم، كما أنهم في الدنيا أطيب الناس قلوباً، وأهدأهم بالاً، وأكثرهم طمأنينة ورضاً بقضاء الله تعالى وقدره، لصدق إيمانهم وقوة يقينهم، وهذا أيضاً من النعيم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ الفجَّار جمع فاجر، وهو الكافر الخارج عن طاعة الله تعالى وهو مَنْ لم توجد فيه صفات الأبرار المذكورة. فمآل الفجار النار المحرقة ﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي يدخلونها ويحترقون بها يوم يُدان الناس بالأعمال، وهو يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي بخارجين، لأنهم مخلدون فيها كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ وَمَتَّأٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة: ٣٧] أي من النار.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٧﴾﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٨﴾ الاستفهام للتفخيم والتعظيم، أي أي شيء أعلمك بيوم الدين؟ فإنه يوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين، فهذا يستدعي إطالة التفكير فيه.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كل شيء في القرآن من قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ فقد أدراه، وكل شيء من قوله: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ﴾ فقد طوي عنه. اهـ.

ثم فسر الله تعالى بعض أحوال ذلك اليوم فقال: ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي من دفع ضرر أو جلب خير إلا بإذن الله تعالى. ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ أي يوم لا يُملك الله في ذلك اليوم أحداً شيئاً كما ملكهم في الدنيا. وفي معنى الآية قوله تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] قال قتادة: ليس ثمَّ أحد يقضي شيئاً، أو يصنع شيئاً إلا الله رب العالمين. اهـ.

وفي ذلك اليوم لا تنفع شفاعاة ولا خلة ولا قرابة إلا بإذن الله تعالى. وويل للكافرين الخارجين عن طاعة الله تعالى. وهنا تمتلئ النفوس خوفاً ورعباً من هول ذلك اليوم، وتجأر النفوس المؤمنة إلى الله تعالى يا رب سلِّم سلِّم.

رُوي أن الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك حج بالناس سنة ٩٧ من الهجرة، فمرَّ على المدينة المنورة وهو يريد مكة المكرمة، فقال: أما هنا أحد يذكرنا؟ فقيل له: أبو حازم سلمة بن دينار، فأرسل إليه فدعاه فحضر. فقال سليمان: يا أبا حزم ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم أخربتم آخرتكم وعمرتم

الدنيا، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب، قال: صدقت. فكيف القدوم على الله ﷻ غداً؟ قال: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالأبق يقدم على مولاه. فبكى سليمان عند ذلك وقال: ليت شعري ما أنا عند الله؟ قال: اعرض عملك على كتاب الله ﷻ، قال: وأين أجده؟ قال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، قال: يا أبا حازم فأبي عباد الله أفضل؟ قال: أولوا المروءة والتقى، قال: فأبي الأعمال أفضل؟ قال: أداء الفرائض مع اجتناب المحارم، قال: فأبي الدعاء أسمع؟ قال: دعوة المحسن للمحسن - وهو يقصد بهذا دعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب كما ورد في الحديث - ثم قال سليمان: فأبي الصدقة أذكى؟ قال: صدقة السائل البائس، وجهد من مُقِلِّ ليس فيها مَنْ ولا أذى، قال: فأبي القول أعدل؟ قال: قول الحق عند من يخافه أو يرجوه، قال: فأبي الناس أحمق؟ قال: رجل انحط في هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنياه غيره. قال سليمان: ارفع إليّ حوائجك، قال: تُنجيني من النار وتدخلي الجنة! قال: ليس ذلك إليّ، قال: فلا حاجة لي غيرها، قال: فادعوا الله لي، قال: اللهم إن كان سليمان وليك فيسره للخير، وإن كان عدوك فخذ بناصيته لما تحب وترضى. قال سليمان: زدني، قال: قد أوجزت وأكثر إن كنت من أهله وإن لم تكن من أهله، فما ينبغي لي أن أرمي عن قوسٍ ليس لها وتر. قال: أوصني، قال: سأوصيك وأوجز: عظم ربك ونزهه أن يراك حيث نهاك، أو يفتقدك حيث أمرك. انتهى.

وقال الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وهو يعظ الناس - قال: رحم الله رجلاً خلا بكتاب الله فعرض نفسه عليه فإن وافقه حمد ربه وسأله الزيادة من فضله، وإن خالفه أعتب وأتاب ورجع من قريب.

رحم الله رجلاً وعظ أخاه وأهله فقال: يا أهلي صلاتكم صلاتكم، زكاتكم زكاتكم، جيرانكم جيرانكم، إخوانكم إخوانكم، مساكينكم مساكينكم. فإن الله تبارك وتعالى أثنى على عبد من عباده فقال: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ٥٥] وقال أيضاً: يا ابن آدم كيف تكون مسلماً ولم يسلم منك جارك، وكيف تكون مؤمناً ولم يأمنك الناس؟

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

مدنية الأوائل مكية الأواخر وآياتها ست وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ .

روى النسائي عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك.

قيل: وهي مكية على الأظهر، لا سيما خاتمتها من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿١٩﴾﴾ فهذه من صفات المستهزئين الذين كانوا بمكة، أما المنافقون بالمدينة فإنهم كانوا يظهرهم الإيمان. فلا يظهرهم كفرةً ولا استهزاءً، فإن ذلك يؤدي إلى كشف حالهم، فهذا مما يؤيد كون هذه السورة مدنية الأوائل مكية الأواخر، والتطفيف على ما يقال كان موجداً بمكة والمدينة. والله أعلم.

قال بعض العلماء: أما حديث ابن عباس أنه لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا أخبث الناس كيلاً فأنزل الله ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك، قال: إن معنى الإنزال في إطلاق السلف لا يكون مقصوداً على أن كذا سبب النزول، بل إن كذا مما نزل فيه كذا، فكان أهل المدينة تُلِّي عليهم ما سبق إنزاله بمكة، وقيل لهم: أنزل الله حظر ما أنتم عليه من الوعيد فأقلعوا وامتنعوا عن التطفيف. اهـ.

وهذه السورة العظيمة تضمنت تفصيلاً لبعض أنواع الفجور، كالنطفيف في الكيل والوزن، والتكذيب بيوم الدين، والاعتداء على الغير، والقول بأن القرآن أساطير الأولين، وسبب هذا جزاؤه يوم القيامة، ثم تفصيل جزاء الأبرار، وبينت جانباً من حال الناس في الموقف يوم القيامة، حين يشتد بالخلائق الخوف، وتبلغ القلوب الحناجر من خوف من يعلم الظواهر والسرائر، فينادي الملك الرحمن: ﴿يَعْبَادِ لَا حَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ مَحْزُونُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨]، فإذا سمعت الخلائق هذا النداء طمع كل منهم فيه فيقول ﷻ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٦٩] فعند ذلك يئأس من الرحمة الكفار والمنافقون والفجار، ويطمع فيها من آمن بالواحد القهار واتبع سنة رسوله ﷺ، عند ذلك تنشر الدواوين، وتوضع الموازين، وتتطاير الصحف، ف ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنبَتَتْهُمْ ذُرِّيَّتَهُم بِإِيمَانٍ لِّحَقِّنَا بِهِم ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَنَّهُمْ مِنَّ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ أَمْرٍ إِنَّمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

ثم ذكر جانباً من حال المستهزئين وكيف أنهم في جهلهم يعمهون، ويظنون أنهم على حق وغيرهم على باطل ثم تجلّى الحق حين حكم الله تعالى بين عباده وفصل بينهم، إنه جازى كلّاً على عمله، الكفار بجهنم وسعيرها، والمؤمنين بالجنة ونعيمها، ذلك اليوم الذي ينعم فيه المؤمنون بجنة الخلد، ويصطلي فيه الكفار بنار جهنم، في ذلك اليوم يوم الحصاد يضحك المؤمنون من الكفار، يضحكون ضحك الموفق المسرور لا ضحك الجاهل المغرور، لأنهم وجدوا ما وعدهم ربهم حقاً وسعدوا سعادة لا نهاية لها، أما الكفار فوقعوا في شر أعمالهم وباؤوا بالخسران المبين، قال تعالى: ﴿هَلْ تُؤْتَىٰ﴾ أي هل جوزي ﴿الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ نقول: نعم يا رب.

قوله تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّينَ﴾ .

﴿وَبَلِّغْ﴾: كلمة عذاب أو واد في جهنم توعد الله به المطففين، وهم الذين ينقصون المكيال والميزان.

قال ابن عباس رضي الله عنه: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث

الناس كيلاً، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ فأحسنوا الكيل. اهـ.

ثم بين الله تعالى معنى المطففين، فقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالَهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ أي يأخذن وافياً وينقصون حق غيرهم.

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥﴾﴾، [الإسراء: ٣٥] وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٦﴾﴾ [الرحمن: ٩].

وقد أهلك الله قوم شعيب لأنهم كانوا يبخسون الناس في الميزان والمكيال.

ثم توعد الله أولئك المطففين فقال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿١﴾﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾.

أي أما يخاف أولئك من البعث والنشور والقيام بين يدي الله تعالى، الذي يعلم السرائر والضمائر في يوم عظيم الهول، كثير الفزع، من خسر فيه أدخل ناراً حامية؟

قال رسول الله ﷺ: «يوم قوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه» [رواه البخاري].

وأخرج الإمام أحمد من حديث أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل، ويزاد في حرها كذا وكذا، تغلي منها الهوام كما تغلي القدور، يغرقون فيها على قدر خطاياهم، منهم من يبلغ إلى كعبيه، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه، ومنهم من يبلغ إلى وسطه، ومنهم من يلجمه العرق».

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لبشير الغفاري: «كيف أنت صانع في يوم يقوم الناس فيه ثلاثمائة سنة لرب العالمين من أيام الدنيا، لا يأتيهم فيه خبر من السماء ولا يؤمر فيهم بأمر؟».

قال بشير: المستعان الله.

قال النبي ﷺ: «إذا أويت إلى فراشك فتعوذ بالله من كرب يوم القيامة وسوء الحساب».

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «خمسٌ بخمسٍ: ما نَقَضَ قَوْمٌ العَهْدَ إلا سلط عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طفقوا المكيال إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر»^(١).

وعن مالك بن دينار قال: دخلت على جارٍ لي أعوده، وقد نزل به الموت، فجعلت ألقنه كلمة الشهادة، وهو يقول: جبلان من نار، جبلان من نار. فما زال يقول حتى مات، فسألت عنه؟ قالوا: كان له مكيال وميزان يطفف بهما. اهـ.

والتطفيف محرم لأنه أكل أموال الناس بالباطل سواء كان في الكيل أو الوزن، فالمطفف هو الذي يأخذ حقه كاملاً أو يزيد عليه، ويعطي غيره ناقصاً، وهذا يشمل كل ما كان من هذا القبيل، فمثلاً الموظف الذي يقصر في أداء عمله بالإهمال أو بأي وجه من أوجه التقصير، ويأخذ أجره (مرتبته الشهري) كاملاً، فإنه واقع تحت وطأة هذا الوعيد فعلى المسلم أن يتقي الله تعالى في معاملة الغير، ولا يأخذ إلا حقه، ولا يفرط في حق غيره، ويتدبر هذه الآيات وغيرها من كتاب الله تعالى، وكذلك حديث الرسول ﷺ، ويسدد ويقارب، نسأل الله التوفيق لما يحبه ويرضاه.



(١) حديث حسن، أخرجه الطبراني في الكبير (١١/١٠٩٩٢) والدليمي في الفردوس (٢/٢٨٠٠) عن ابن عباس عن النبي ﷺ، وأخرجه ابن ماجه في سننه (٢/٤٠١٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما. وحسنه الألباني رحمته الله في صحيح الجامع (١/٣٢٤٠) وصحيح الترغيب (٧٦٣).

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ ﴿١﴾

(١) ﴿بَلْ رَانَ﴾ سكت حفص سكة لطيفة من غير تنفس على لام ﴿بَلْ﴾ ويلزم منه إظهار اللام، وغيره بترك السكت مع إدغام اللام في الراء بلا غنة.

والسكت وارد للقراء في حالات كثيرة، والذي يهمنا هنا هو سكت حفص عن عاصم من طريق الشاطبية، حيث قال الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى في حرز الأمان عند فرش الحروف في سورة الكهف:

وسكتة حفص دون قطع لطيفةً على ألف التنوين في عوجاً بلا
وفي نُونٍ مَنْ رَاقٍ وَمَرْقَدٌ نَاولاً م بَل رَانَ والباقون لا سكتٌ موصلاً

فالسكت في هذه الأربعة المواضع وصلاً عند حفص متفق عليه، وهو كما يلي:

١ - السكت على الألف المبدلة من التنوين في لفظ ﴿عَوْجاً﴾ من قوله تعالى: ﴿وَلَرَّ يَجْعَلُ لَّهُمْ عِوَجًا قِيمًا﴾ [الكهف: ١، ٢] ويجوز الوقف على ﴿عَوْجاً﴾ لأنه رأس آية، وإنما السكت حال الوصل.

٢ - السكت على الألف من لفظ ﴿مَرْقِدًا﴾ من قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَتَوَلَّوْنَا مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقِدًا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ [يس: ٥٢].

ويجوز الوقف على ﴿مَرْقِدًا﴾ وهو وقف تام، وإنما السكت حال الوصل كما تقدم.

٣ - السكت على النون من لفظ ﴿مَنْ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَيَقُلْ مَنْ رَاقٍ﴾ [القيامة: ٢٧] ويلزم من السكت إظهار النون عند الراء لأن السكت يمنع الإدغام ولا يجوز الوقف على ﴿مَنْ﴾.

٤ - السكت على اللام من لفظ ﴿بَلْ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [المطففين: ١٤] ثم يقول: ﴿رَانَ﴾ ويتابع القراءة ويلزم من السكت إظهار اللام عند الراء لأن السكت يمنع الإدغام هنا. ولا يجوز الوقف على ﴿بَلْ﴾ لأنه ليس موضع وقف.

وروي لحفص السكت جوازاً في وجه له بين السورتين من غير تنفس من موضع واحد من القرآن الكريم وهو بين سورة الأنفال وسورة التوبة ومحله على الميم من ﴿عَلِيمٌ﴾ ثم يقول: ﴿بِرَاءةً﴾ ويتابع القراءة.

فه في هذا الموضع ثلاثة أوجه:

١ - السكت كما بيَّنا.

٢ - الوقف، وهو قوف تام لأنه رأس آية بل نهاية سورة.

٣ - الوصل بين ﴿عَلِيمٌ﴾ و﴿بِرَاءةً﴾ وحينئذ يتعين الإقلاب.

عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تُكَدِّبُونَ ﴿١٨﴾ .

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر عن التطفيف وعن التكذيب بيوم الحساب أو هي بمعنى حقاً. ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ﴾ الذي كتبت فيه أعمالهم ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ قيل: إنه مأخوذ من السجن وهو الضيق، وعن ابن عمر قال: سجين الأرض السابعة السفلى وفيها أرواح الكفار، وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «سجين أسفل سبع أراضين، وعليون في السماء السابعة تحت العرش».

ورود في حديث البراء بن عازب الطويل المشهور في سياق عن المحتضر وما يكون بعد الموت أن الله تعالى يقول: «اكتبوا كتاب عبدي في السجين في الأرض السابعة السفلى». والمراد العبد الكافر، وقد تقدم الحديث كاملاً عند تفسير سورة النازعات. وعلى هذا فإن سجين هو أسفل ما يكون في الأرض. والله أعلم.

وأخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق شمر بن عطية أن ابن عباس رضي الله عنهما سأل كعب الأخبار عن قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ ﴿٧﴾ قال: إن روح الكافر يصعد بها إلى السماء فتأبى السماء أن تقبلها فيهبط بها إلى الأرض فتأبى الأرض أن تقبلها، فيدخل بها تحت سبع أراضين حتى ينتهي بها إلى السجين، وهو خد إبليس، فيخرج لها من تحت خد إبليس كتاباً فيختم ويوضع تحت خد إبليس لهلاكه للحساب، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ وقوله: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ

= وأيضاً جاء عن حفص السكت وعدمه على الهاء من لفظ ﴿مَائِيَّةٌ﴾ قوله تعالى: ﴿مَا أَغْرَىٰ عَنَىٰ مَائِيَّةٌ ﴿١٧﴾ هَلَاكَ عَنَىٰ سُلْطَانِيَّةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩] وله فيها ثلاثة أوجه: ١ - السكت. ٢ - الوقف. ٣ - الوصل مع الإدغام.

فالسكت وعدمه إنما يكون في حالة الوصل والوجهان صحيحان مقروء بهما والسكت هو المقدم في الأداء. والله أعلم.

من كتاب جهد الفقير في تجويد كلام العلي القدير ١٤٥ - ١٤٦، للمؤلف.

لِنَفِي عِلِّيِّينَ ﴿٩﴾ قال: إن روح المؤمن إذا عرج بها إلى السماء فتفتتح لها أبواب السماء، وتلقاه الملائكة بالبشرى حتى ينتهي بها إلى العرش، وتعرج الملائكة فيخرج لها من تحت العرش رق فيرقم ويختم ويوضع تحت العرش لمعرفة النجاة للحساب يوم القيامة، ويشهد الملائكة المقربون، فذلك قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُونَ ﴿١٠﴾ كَتَبَ تَرْفُؤْمُ ﴿٩﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِئٌ ﴿٨﴾ الاستفهام للتعظيم، أي ما الذي أعلمك ما سجين؟ وقيل: أي ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ولا قومك، وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ تَرْفُؤْمُ ﴿٩﴾ أي كتاب الفجار مكتوب فيه أعمالهم، مثبتة عليهم، لا يزداد في ذلك ولا ينقص ولا يبدل ولا يُنسى حتى يُجازوا به .

وقوله تعالى: ﴿وَبَلِّغْ كَلِمَةَ عَذَابٍ أَوْ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ ﴿١٠﴾ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾ أي يكذبون بيوم الحساب والجزاء وهو يوم القيامة، فإن المكذب بذلك اليوم لا يستقيم على شريعة الله تعالى ولا يتورع عن أي ذنب، لأنه يعيش ليومه كالبهائم، ولا يحسب للدار الآخرة أي حساب، وبالتالي يمكن أن يطفف ويفجر ويفعل ما يمليه عليه هوى نفسه، فليس له في الآخرة إلا النار وبئس المصير .

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ أي وما يكذب بيوم الدين إلا كل متجاوز الحد في الكفر والبغي والعدوان، مبالغ في الآثام والعصيان، مستحق لحر النيران ﴿إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا﴾ إشعار بأنه لا يتلو القرآن ولا يفكر في ذلك، ولكن إذا تتلى عليه آيات القرآن من غيره ﴿قَالَ أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ﴾ أي إذا سمع آيات القرآن الناطقة بحصول البعث والجزاء، قال عنها: هذه حكايات وخرافات الأوائل، فهو لا ينتفع بالقرآن لأنه عديم الإيمان .

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ ﴿١٣﴾ أي ليست هذه الآيات أساطير الأولين بل هي الحق المبين والشفاء لما في الصدور، ولكن هؤلاء ﴿رَأَى عَلَى قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي غطى على قلوبهم ما اكتسبوه من الآثام، فحجبها عن الحق، فصاروا لا يعرفون الرشد من الغي، والران هو الحجاب عن الحق، وأصل معناه الصدأ القار الذي لا يزول بسهولة، فيحصل من تكرار الفعل ملكة

راسخة في النفس لا تقبل الزاويل، فبكثرة المعاصي يرسخ حجبها في القلب بحيث لا يزول^(١) - نسأل الله السلامة - وقيل: الران ما غطى على القلب وركبه من القسوة لفعل الذنب بعد الذنب. وهو نفس ما قلناه من حيث المعنى. والله أعلم.

وروى ابن ماجه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن إذا أذنب، كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر، صقل قلبه، فإن زاد زادت، فذلك الران الذي ذكره الله تعالى في كتابه ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٤)».

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ (١٥) أي حقاً إن الكفار لمحجوبون عن رؤية الله تعالى يوم القيامة كما حجبوا في الدنيا عن توحيده، وبهذه الآية استدلل أهل السنة والجماعة على ثبوت رؤية الله تعالى. فما حجب هؤلاء في السخط إلا وقد مكن الأبرار من رؤيته تعالى في حال الرضا.

قال الإمام الشافعي رحمه الله في قول الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ (١٥) قال: ذلك دلالة على أن أولياء الله يرون الله عياناً. اهـ.

فروية المؤمنين لربهم ﷻ ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ (٧٢) ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (٧٣) [القيامة: ٢٢، ٢٣] وقال تعالى: ﴿لَلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنِهِمْ زِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقد فسر النبي ﷺ الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله تعالى، كما في الصحيح.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ (٦٦) أي أولئك الكفار يدخلون النار يسطلون بحرهما وعذابها، فيجمع لهم العذاب الروحي بالحجب والبدني بالنار، ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (٦٧) أي يقال لهم توبيخاً وتبكيثاً: هذا العذاب جزاء ما كنتم به تكذبون بما أوعدكم به وجاءكم به الرسول ﷺ، فلو أنكم آمنتم بالله ورسوله واتبعتم شرائع الدين ما صرتم إلى هذا الحال البئيس، فعند ذلك يحزنون حزناً عظيماً لم يسبق لهم مثله، وما أشد على الإنسان إذا

(١) أنصح بقراءة «حل عقدة الإصرار» من كتاب التوبة في كتاب إحياء علوم الدين لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي المتوفى (٥٠٥هـ)، رحمه الله.

أصابه مكروه أن يذكر وهو يتألم بأن وسائل نجاته من مصابه كانت متاحة له، وكانت في متناول يديه، ولكنه أهملها وراء ظهره. ونورد فيما يلي مقالة ابن القيم رحمته الله لما فيها من التوضيح والبيان.

قال ابن القيم في «إغاثة اللهفان»^(١) في هذه الآية ما مثاله: جمع لهم سبحانه بين العذابين عذاب الحجاب وعذاب النار، فألم الحجاب يفعل في قلوبهم وأرواحهم، نظير ما تفعله النار في أجسامهم. كحال من حيل بينه وبين أحب الأشياء إليه في الدنيا، وأخذ بأشد العذاب. فإن أخص عذاب الروح أن تتعلق بمحسوب لا غنى لها عنه، وهي ممنوعة من الوصول إليه. فكيف إن حصل لها مع توارى المحبوب عنها وطول احتجابها، بغضه لها ومقته وطرده وغضبه الشديد عليها؟ بأي نسبة لألم البدن إلى هذا الألم الذي لا يتصوره إلا من بلي به أو بشيء منه؟ فلو توهمت النفوس ما في احتجاب الله سبحانه عنها يوم لقائه من الألم والحسرة، لما تعرضت لأسباب ذلك الاحتجاب، وأنت ترى المحبين في الدنيا لصورة، منتهى حسنها إلى ما يعلم، كيف يضجون من ألم احتجاب محبوبهم عنهم وإعراضه وهجره إذا حيل بينهم وبينه، وشاهدوا غيرهم وقد ظفر بوصله وفاز بقربه ورضاه، ثم قال رحمته الله: والروح لا حياة لها ولا نعيم ولا سرور ولا لذة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودها وإلهها ومرادها، الذي لا تقر عينها إلا بقربه والأنس به والعكوف بكليتها على محبته والشوق إلى لقائه. فهذا غاية كمالها وأعظم نعيمها وجنتها العاجلة في الدنيا فإذا كان يوم لقائه كان أعظم نعيمها رفع الحجاب الذي كان يحجبها في الدنيا عن رؤية وجهه وسماع كلامه. وفي حديث الرؤية: «فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجهه»^(٢).

(١) إغاثة اللهفان (٣٢/١) بتصرف.

(٢) أخرجه مسلم والإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والطبراني في الكبير من حديث صهيب. وأحاديث رؤية المؤمنين لربهم رحمته الله ثابتة في الصحيحين، منها قوله رحمته الله: «إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون الشمس صحوماً ليس دونها سحاب» أخرجه البخاري ومسلم. وقوله عليه الصلاة والسلام: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته» أخرجه البخاري ومسلم.

ثم قال: وكما جمع سبحانه لأعدائه بين هذين العذابين، وهما: ألم الحجاب وألم العذاب، جمع لمحبيه بين نوعي النعيم القرب والنظر، ونعيم الأكل والشرب والنكاح والتمتع بما في الجنة. اهـ.



﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلْتَيْنَ ﴿٧٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلْتُونَ ﴿٧٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٨٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُرَقُّونَ ﴿٨١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٨٢﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٨٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٨٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْحُومٍ ﴿٨٥﴾ خَتَمَهُمُ (٢) مِسْكًَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ ﴿٨٦﴾ وَمِمَّا جُمِعَ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٨٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٨٨﴾ .

بعد أن ذكر الله تعالى الفجار وأحوالهم ومآلهم ذكر الأبرار ونعيمهم، فقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلْتَيْنَ ﴿٧٨﴾﴾، قوله: ﴿كَلَّا﴾ أي حقاً أو للردع، أي ليس الأمر كما يتوهمه الكفار والفجار من إنكار البعث والجزاء، وقد وردت ﴿كَلَّا﴾ في القرآن ثلاثاً وثلاثين مرة، كلها في النصف الثاني، وليس في النصف الأول منها شيء، وهي إما بمعنى «لا» أو «حقاً» فإن كانت بمعنى «لا» فيحسن الوقف عليها مثل قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا﴾ [مريم: ٧٨، ٧٩]، فيحسن أن يقف على «كلا» هنا ثم يبدأ بقوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ...﴾ إلخ، علماً بأن الوقف على رؤوس الآي سنة متبعة، وإن كانت «كلا» بمعنى حقاً، فلا يحسن الوقف عليها، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشْرِ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٤٢﴾﴾ [المدثر: ٣١، ٣٢] علماً بأنه يجوز في جميع مواضع «كلا» أن توصل بما بعدها وبما قبلها وأن لا يوقف عليها ولا يبدأ بها. والله أعلم.

(١) ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٨٤﴾﴾ قرأ أبو جعفر ويعقوب ﴿تَعْرِفُ﴾ بضم التاء وفتح الراء مبيناً للمفعول و﴿نَضْرَةَ﴾ بالرفع نائب فاعل، وقرأ الباقون ﴿تَعْرِفُ﴾ بفتح التاء وكسر الراء مبيناً للفاعل و﴿نَضْرَةَ﴾ بالنصب مفعول.

(٢) ﴿خَتَمَهُمُ﴾ قرأ الكسائي بفتح الخاء وألف بعدها وفتح التاء، على أنه اسم لما يختم به الكأس، أي آخره مسك، وقرأ الباقون، بكسر الخاء وفتح التاء وألف بعدها، والختم: هو الطين الذي يختم به الشيء، فجعل بدله المسك.

﴿إِنَّ﴾ من أدوات التوكيد و﴿كَيْتَبَ﴾ صحائف أعمالهم و﴿الْأَبْرَارِ﴾ جمع بر أو بار، وهم المطيعون المحسنون الذين بروا وصدقوا في إيمانهم بأداء الفرائض واجتناب النواهي سرّاً وعلانية.

فهؤلاء الأبرار كتاب أعمالهم في عِللين، وهو مكان عالٍ مشرف في أعلى الجنة، بعكس كتاب الفجار الذي مكانه سجين في أسفل الأرض السابعة.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عليون في السماء السابعة تحت العرش».

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلِيُّنَ ﴿١٩﴾﴾ أي ما الذي أعلمك ما عليون؟ وهو استفهام تفخيم وتعظيم، أي إنه عظيم.

وقوله تعالى: ﴿كَيْتَبُ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾﴾ أي أن كتاب الأبرار مرقوم مكتوب فيه أعمالهم لا يبدل ولا يغير، وهو في عِللين ﴿يَشْهَدُ الْقُرُونُ ﴿٢١﴾﴾ من الملائكة.

أخرج عبد بن حميد من طريق الأجلح عن الضحاك رضي الله عنه قال: إذا قبض روح العبد المؤمن يعرج به إلى السماء الدنيا، فينطلق معه المقربون إلى السماء الثانية. قال الأجلح: فقلت: وما المقربون؟ قال: أقربهم إلى السماء الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة حتى ينتهي به إلى سدرة المنتهى. فقال الأجلح: فقلت للضحاك: ولم تسمى سدرة المنتهى؟ قال: لأنه ينتهي إليها كل شيء من أمر الله لا يعدوها فيقولون: رب عبدك فلان وهو أعلم به منهم، فيبعث الله إليهم بصك مختوم يأمنه من العذاب، وذلك قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كَيْتَبَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلِيَيْنَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلِيُّنَ ﴿١٩﴾ كَيْتَبُ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُ الْقُرُونُ ﴿٢١﴾﴾.

وأخرج عبد بن حميد من طريق خالد بن عرعة وأبي عمجيل أن ابن عباس سأل كعباً عن قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كَيْتَبَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلِيَيْنَ ﴿١٨﴾﴾ الآية، قال: إن المؤمن يحضره الموت ويحضره رسل ربه فلا هم يستطيعون أن يؤخروه ساعة ولا يعجلوه حتى تجيء ساعته، فإذا جاءت ساعته قبضوا نفسه، فدفعوه إلى ملائكة الرحمة، فأروه ما شاء الله أن يروه من الخير، ثم عرجوا بروحه إلى السماء فيشيعة من كل سماء مقربوها حتى ينتهوا به إلى السماء

السابعة، فيضعونه بين أيديهم، ولا ينتظرون به صلاتكم عليه، فيقولون: اللهم هذا عبدك فلان قبضنا نفسه، فيدعون له بما شاء الله أن يدعو، فنحن نحب أن يشهدنا اليوم كتابه، فينثر كتابه من تحت العرش فيثبتون اسمه فيه، وهم شهوده، فذلك قوله: ﴿كُتِبَ مَرْتُومٌ ﴿١٠﴾ يَشْهَدُهُ الْقُرُونُ ﴿١١﴾﴾. وسأله عن قوله: ﴿إِنَّ كُتِبَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ الآية، قال: إن العبد الكافر يحضره الموت ويحضره رسل الله، فإذا جاءت ساعته قبضوا نفسه فدفعوه إلى ملائكة العذاب، فأروه ما شاء الله أن يروه من الشر ثم هبطوا به إلى الأرض السلفية وهي سجين، وهي آخر سلطان إبليس، فأثبتوا كتابه فيها. وسأله عن ﴿سِدْرَةَ الْمُنْعَى﴾ فقال: هي سدرة نابتة في السماء السابعة، ثم علت على الخلائق إلى ما دونها و﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾.

وأخرج ابن المبارك عن ضمرة بن حبيب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الملائكة يرفعون أعمال العبد من عباد الله يستكثرونه ويزكونه حتى يبلوغ به حيث يشاء الله من سلطانه، فيوحي الله إليهم أنكم حفظة على عبيدي وأنا رقيب على ما في نفسه، إن عبيدي هذا لم يخلص لي عمله فاجعلوه في سجين. ويصعدون بعمل العبد يستقلونه ويحترقونه حتى يبلغوا به إلى حيث شاء الله من سلطانه، فيوحي الله إليهم أنكم حفظة على عمل عبيدي وأنا رقيب على ما في نفسه، إن عبيدي هذا أخلص لي عمله فاجعلوه في عليين».

وأخرج ابن الضريس عن أم الدرداء قالت: إن درج الجنة على عدد آي القرآن، وإنه يقال لصاحب القرآن اقرأ وارقه فإن كان قد قرأ ثلث القرآن كان على الثلث من درج الجنة، وإن كان قد قرأ نصف القرآن كان على النصف من درج الجنة، وإن كان قد قرأ القرآن كان في أعلى عليين، ولم يكن فوقه أحد من الصديقين والشهداء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ وهو نعيم الجنة، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿عَلَى الْأَرْزَاقِ يُنظَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي جالسون على الأسرة ذات الحجال^(١)، ينظرون إلى ما أعطاهم الله من

(١) الحجال - جمع حجلة بفتح الحاء -: وهو بيت مربع من الشياح الفاخرة يُرعى على السرير.

الكرامة وأنواع النعيم في الجنة ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ (٢٤) أي إذا رأيتهم تعرف أنهم أهل النعمة لما ترى في وجوههم من الحسن والبياض ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُورٍ﴾ (٢٥) أي خمر صافية طيبة بيضاء لذة للشاربين، مختوم على أوانيها، لا يفكها إلا هم ﴿يَخْتَمُّهُ مِسْكٌ﴾ أي آخر شربه يفوح منه رائحة المسك، وفي قراءة سبق بيانها ﴿وَمَزَاجُهُمْ﴾ بيان لجنس الخاتم ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ أي في مثل هذا النعيم المذكور ﴿فَلْيَتَنَافَسِ السُّنَّاسُونَ﴾ أي فليرغب الراغبون بالاستتباع إلى طاعة الله تعالى، كقوله: ﴿لِيُنْزِلَ هَذَا فَيَمْعَلِ الْعَمَلُونَ﴾ (٦١) [الصفات: ٦١]، وكذلك قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١]، وذلك يعني المسارعة والمسابقة في دروب الطاعات.

والتنافس مأخوذ من الشيء النفيس الذي تحرص عليه نفوس الناس، ويريده كل أحد لنفسه، وينفس به على غيره، أي يضمن به ويبخل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَزَاجُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ (٢٧) أي ما يمزج به ذلك الرحيق هو من ماء عين تُسَمَّى التسنيم، وهو شراب ينصب عليهم من علو، وهو أشرف شراب أهل الجنة، يشربه المقربون صرفاً ويمزج لسائر أهل الجنة.

وأصل التسنيم في اللغة الارتفاع، تقول: تسنمت الجبل إذا صعدت إلى قمته. والتسنيم هنا هي عين ماء تجري من علو إلى أسفل.

وقال ابن عباس: التسنيم يعلو شراب أهل الجنة وهو صرف للمقربين، ويمزج لأصحاب اليمين. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ (٢٨) عيناً منصوب على المدح أو الحال ﴿يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي يشرب منها أو ملتذاً بها أو ممزوجاً بها، وقيل: الياء مزيدة أو بمعنى من، وهي عين في الجنة يشرب منها المقربون صرفاً وتمزج لسائر أهل الجنة كما أسلفنا، وفي الحديث: «أبما مؤمن سقى مؤمناً شربة ماء على ظمأ، سقاه الله من الرحيق المختوم» أو كما قال ﷺ، والله أعلم.



﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٣٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿٤٠﴾ وَإِذَا أُنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٤١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٤٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٤٤﴾ عَلَىٰ الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٤٥﴾ هَلْ نُؤِيبَ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ .

بعد أن ذكر الله تعالى مآل الفريقين، حيث الجحيم والعذاب الأليم لأعدائه، والنعيم والهناء لأوليائه، وأسباب ذلك، بيّن بعض ما كان يفعله الكفار يفعلونه تجاه المؤمنين في الدنيا من استهزاء واستخفاف وما سيكون في الدار الآخرة من رفعة المؤمنين وإذلال الكافرين، حتى إن المؤمنين يردون للكافرين الصاع صاعين.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ الإجماع هو ارتكاب الإثم العظيم، وأعظمه الشرك والكفر، والمراد هنا كفار قريش ومن وافقهم على الكفر ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ أي كانوا في الدنيا يستهزئون ويسخرون بالمؤمنين لأنهم آمنوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً، وهذا يشمل من نزلت فيهم الآية ومن شاكلهم إلى آخر الزمان. ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ﴾ أي إذا مرّ المؤمنون بالمجرمين أو (٢) مرّ المجرمون بالمؤمنين ﴿يَتَغَامِرُونَ﴾ أي إن المجرمين يغمز بعضهم بعضاً استهزاء وسخرية بالمؤمنين، والغمز: هو الإشارة بالجفن والحاجب.

والآيات نزلت في كفار قريش مثل: أبي جهل والوليد والعاص وأشباههم، كانوا يستهزئون ويسخرون بجمع من المؤمنين مثل: عمار بن ياسر وخباب وصهيب وبلال وغيرهم ﷺ ممن فتح الله عليهم ونور قلوبهم بالإيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ﴾ أي انصرف المجرمون ورجعوا إلى ذويهم ﴿أُنْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ أي رجعوا متلذذين بالسخرية وحكاية ما يعيبون به أهل

(١) ﴿فَكِهِينَ﴾ قرأ حفص وأبو جعفر بحذف الألف بعد الفاء والباقون بإثباتها.

(٢) سبق بيان أن النص إذا احتمل معنيين لا تنافي بينهما جاز حمله عليهما.

الإيمان، وكل هذا منهم إنكار لتوحيد الله تعالى وكفر به، تعالى الله علواً كبيراً، والويل لهم والصفار والحقار والنار ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ أي إذا رأى المجرمون المؤمنين ﴿قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ بتركهم دينهم واعتناق دين محمد ﷺ الجديد في نظرهم، فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ أي إن هؤلاء المجرمين ما بُعثوا من جهة الله تعالى موكلين بالمؤمنين، يحفظون عليهم أعمالهم وأحوالهم ويشهدون برشدتهم أو ضلالهم، فهذا منهم تطفل وجهل وسوء فهم، وفي الآية تهكم ظاهر بالكفار.

وقوله تعالى: ﴿قَالِيَوْمَ﴾ أي يوم القيامة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ أي في ذلك اليوم العظيم، وهو يوم الجزاء والثواب يضحك المؤمنون من الكفار، ضحك المسرور بما نال من الكرامة والفوز، ضحك لا بكاء بعده، وليس كضحك المجرمين في الدنيا الذي سوف يعقبه البكاء والتحسر والحزن.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى الْأَرْكَانِ يَنْظُرُونَ﴾ إلى ما أعطاهم الله تعالى من النعيم وما حل بالمجرمين من عذاب الجحيم.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، ﴿هَلْ﴾ هنا للتقرير، ومعنى ﴿تُؤِيبُ﴾ أي أثيب وجوزي، والثواب: هو ما يرجع على العبد نظير عمله، ويستعمل في الخير والشر.

والمعنى أن الله تعالى قد تُؤِيبُ الكفار وجزاهم جزاء فعلهم في الدنيا ﴿وَلَا يَظَلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ونظير هذه الآيات قوله تعالى: ﴿قَالَ أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا فَرِيقًا مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٩﴾ فَأَتَّخَذَتُهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْنَهُمْ ذِكْرِي وَكَنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٢١﴾ [المؤمنون: ١٠٨ - ١١١].

وأخرج أحمد في «الزهدي» وابن أبي الدنيا في «الصمت» والبيهقي في «البعث» عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المستهزئين بالناس في الدنيا يرفع لأحدهم يوم القيامة باب من أبواب الجنة فيقال: هلم هلم فيجيء بكربه وغمه فإذا أتاه أغلق دونه، ثم يفتح له باب آخر فيقال: هلم هلم فيجيء

بكرهه وغمه، فإذا أتاه أغلق دونه، فما يزال كذلك حتى إنه ليفتح له الباب فيقول: هلم هلم فلا يأتيه من إياسه».

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿قَالَ يَوْمَ الَّذِينَ
ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ قال: قال كعب: إن بين أهل الجنة وأهل النار
كوى لا يشاء الرجل من أهل الجنة أن ينظر إلى عدوه من أهل النار إلا فعل.

سُورَةُ الْاِنشِقَاقِ

مكية وآياتها خمس وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحَفَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحَفَّتْ (٥) يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوَفِّي كِتَابَهُ بِمِيزِينَةٍ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَنُقَلِّبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوَفِّي كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا (١١) وَيَصَلِّي سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُمْ كَانُوا فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَن لَنْ يُحْمَرُوا (١٤) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) ﴿

روى الإمام مالك عن أبي سلمة أن أبا هريرة قرأ بهم: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ (١) فسجد فيها. فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها. ورواه مسلم والنسائي. وأخرج البخاري عن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة. فقرأ: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ (١) فسجد. فقلت: ما هذه؟ قال: سجدت بها خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه. وفي رواية للنسائي عن أبي هريرة قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ في ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ (١) و﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (١).

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأَى عَيْنَ، فَلْيَقْرَأْ: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ كُوِّرَتْ ﴾ (١) و﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفطرت ﴾ (١) و﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ (١)».

(١) ﴿ وَيَصَلِّي ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام، وقرأ الباقون بفتح الياء وإسكان الصاد وتخفيف اللام

هذه السورة الكريمة كسورتي التكوير والانفطار في وصف أهوال يوم القيامة، سيما وأن الحديث الشريف جمع بين هذه السور الثلاث في كونها وصفاً حياً لأحداث يوم القيامة كما تقدم، وبينت السورة خضوع المخلوقات كبيرها وصغيرها وما بين ذلك للخالق ﷻ، وأن الإنسان مسرع مقبل على لقاء الله تعالى، وأنه سوف يرى ما قدم من عمل إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وبينت انقسام الناس يوم القيامة إلى أصحاب يمين يفرحون بالفوز والنجاة، وأصحاب شمال يدعون بالويل والثبور، وختمت السورة بوعيد الكافرين ووعد المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [١] فتصدع السماء وانشقاقها يكون يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ أي استمعت وأطاعت أمر ربها ﷻ، فانصدعت وتشققت كما أراد الله تعالى: وَحُقَّ لَهَا وَوَجِبَ أَنْ تَقَادَ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَسْمَعَ وَتَطِيعَ، فلا شيء يستعصي عليه ﷻ، وهو خالقها وخالق كل شيء، وقد أطاعت في ابتداء خلقها كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَالْأَرْضِ أُنِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [١١] وأطاعت في انتهاء الخلق هنا.

ومعنى (أذنت) أي سمعت، والعرب تقول: «أذن لك في هذا إذناً» أي استمع لك، ومنه الحديث المتفق عليه قول النبي ﷺ: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن» أي ما استمع الله لشيء كاستماعه لنبي يتغنى بالقرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي بسطت وجعلت مستوية، وذلك بإزالة جبالها وأكامها، فصارت قاعاً صافصفاً كما قال تعالى: ﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١١٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١١٧﴾﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

وأخرج الحاكم بسند جيد عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «تَمَدَّ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَدَّ الْأَدِيمِ، لا يكون لابن آدم منها إلا موضع قدميه».

وقال ابن عباس: مدت مد الأديم العكاظي، لأن الأديم إذا مد زال كل انثناء فيه واستوى.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ أي ما في جوفها من الأموات والكنوز ﴿وَوَعَلَّتْ﴾ أي عما كان في بطنها. وقال مجاهد: أي أخرجت ما فيها من الموتى، وقال: أي ألقى ما في بطنها من الأموات وتخلت منهم. اهـ.

والمقصود أن الله تعالى يبعث من في القبور إلى الحشر والنشور فيخرجون عزلاً عراً غزلاً كما بدأ أول خلق يعيده، وأن كل ما في الأرض يخرج منها بإذن الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ [الزلزلة: ١، ٢].

وردد أن الأرض إذا سئلت ما لها؟ تقول: ربي أمرني أن ألقى ما في جوفي، وأن أتخلى فأكون كما كنت إذ لا شيء في.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾﴾ أي واستمعت لأمر ربها وأطاعت، وحق لها أن تسمع وتطيع.

وجواب «إذا» الأولى والثانية محذوف تقديره: إذا حدث ما حدث رأيتم أعمالكم من خير وشر، وقد تقدم في التكوير والانفطار جواب الشرط كهذا، وهو قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ [التكوير: ١٤]، وقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ [الانفطار: ٤]، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدَمًا فَمُلْقِيهِ ﴿١﴾﴾ الخطاب لجنس الإنسان، أي يا ابن آدم، والكادح هو الساعي بجد ونوع مشقة، والمعنى: يا ابن آدم إنك مجد في عملك ليل نهار إلى أن تموت، وتلقى ربك بعملك، فيجازيك عليه، فاحرص أن يكون عملك مما يرضي الله تعالى وينجيك من سخطه، وإياك وما يسخطه عليك فتهلك. والله أعلم.

والجمهور على أن معنى ﴿فَمُلْقِيهِ﴾ أي ملاق ربك بعملك كما فسرنا، ومن الناس من يرد الضمير إلى العمل، أي فملاق عملك.

قال البخاري: حدثنا حجاج، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن أنس، عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ قال: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه،

ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» قالت عائشة - أو بعض أزواجه -: إنا لنكره الموت قال: «ليس ذلك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه. وإن الكافر إذا حضر بُشِّرَ بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله وكره الله لقاءه».

وقال قتادة: إن كدحك أيها الإنسان لضعيف، فمن استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله فليفعل، ولا قوة إلا بالله. اهـ.

ثم ذكر الله تعالى انقسام الناس عند ملاقاته إلى قسمين: فمنهم من يأخذ كتابه بيمينه، ومنهم من يأخذ كتابه وراء ظهره فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْقِكَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ أي أعطي كتاب أعماله بيمينه، وهم من آمن وعمل صالحاً وتوفرت فيه صفات الأبرار المذكورة في آيات كثيرة من القرآن ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (٨)، أي سهلاً، وذلك بأن ينظر في أعماله فيغفر له سيئها ويجازيه على أحسنها.

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يدني العبد يوم القيامة، حتى يضع كنفه^(١) عليه، فيقول له: فعلت كذا وكذا - ويعدد عليه ذنوبه - ثم يقول: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم» فهذا المراد من الحساب اليسير؛ اللهم اجعلنا من أهله.

وأخرج البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد يحاسب إلا هلك»، قالت: قلت: يا رسول الله جعلني الله فداك، أليس يقول الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْقِكَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ (٧) ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (٨)؟ قال: «ذاك العرض يعرضون، ومن نُوقِشَ الحساب هلك».

وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (٩) أي يرجع من الحساب إلى أهله في الجنة فرحاً مسروراً بما أعطاه الله من الفضل والنعيم المقيم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْقِكَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ (١٠) أي أعطي كتاب عمله

(١) الكنف - بالتحريك -: الجانب والناحية. وهو تعبير عن جعله تحت ظل رحمته تعالى يوم القيامة.

بشماله من وراء ظهره ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ ١١ أي ينادي بالهلاك قائلاً: واثبوره، واولاه ﴿وَيَصَلَّى سَعِيرًا﴾ ١٢ أي يدخل ناراً شديدة الإلتهاب فيحترق بها. عياداً بالله تعالى. ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ ١٣ أي كان في أهله في الحياة الدنيا غافلاً لاهياً لا يفكر في الآخرة ولا يعمل لها، لأنه لا يؤمن بالبعث، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ ١٤ أي ظن أنه لن يرجع إلى ربه ولن يبعث بعد الموت، لاعتقاده أنه يحيى ويموت وما يهلكه إلا الدهر، فلم يكن يرجو ثواباً، ولا يخاف عقاباً، ولا يرعوي مهما فعل من المآثم، على الضد من المؤمن الذي عاش في الدنيا مؤمناً بلقاء الله تعالى، واثقاً من ذلك، عاملاً بالخير صالحاً تقياً يخشى الله ويتقه ويخاف العقاب ويرجو الثواب، حتى إنه لما فاز وأخذ كتاب أعماله بيمينه قال: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾ ١٥ [الحاقة: ٢٠] أي إني علمت وأيقنت بأني سألقى جزائي يوم القيامة، فأعددت له عدته من الإيمان والعمل الصالح، فأكرمني ربي بفضله ورحمته.

ومن ذلك قول المؤمنين عندما بلغوا المنى بفضل الله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُتْفِقِينَ﴾ ١٦ ﴿فَمَنْ أَلَّهْ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَدَابَ السَّمُورِ﴾ ١٧ ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ ١٨ [الطور: ٢٦ - ٢٨].

ثم قال تعالى تقريراً لحقيقة البعث والجزاء، وحكاية عن ذلك الشقي الذي أخذ كتاب عمله وراء ظهره، نتيجة عدم إيمانه بالبعث والرجوع إلى الله تعالى، قال: ﴿بَلَى﴾ أي ليحورنَّ وليرجعنَّ إلى ربه حياً كما كان قبل موته وليحاسبن ﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ لا يخفى على الله شيء من أمره وأمر غيره، وقد علم ما أسلف في الأيام الخالية، وسيحاسبه وغيره بحكمته وعدله.

ونظير الآيات:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاقُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَةَ﴾ ١٩ ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾ ٢٠ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ ٢١ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قَطْرُهَا ذَوَابُّ الْمُدِ﴾ ٢٢ ﴿كُلُوا وَأَشْرَبُوا وَهَنِيئًا مِمَّا اسَلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ اللَّالِيَةِ﴾ ٢٣ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَرَأَيْتُ لَوْ كُنْتُ بِمِثْلِ مَا اسَلَفْتُمْ﴾ ٢٤ ﴿وَلَوْ أَدْرَأْتُمْ أَنِّي لَأَنْتَبِهَنَّ لَأَعْتَذِرْتُ وَكَانَتِ الْآفَافِيَّةَ﴾ ٢٥ [الحاقة: ١٩ - ٢٧].



﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْشَّفَقِ﴾ (١١) ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ (١) ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٣﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴿٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٥﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٧﴾ .

بعد إثبات حقيقة رجوع الإنسان إلى ربه وملاقاته إياه وحسابه إما حساباً يسيراً لأصحاب اليمين وإما حساباً عسيراً لأصحاب الشمال، أقسم الله تعالى ببعض آياته الظاهرة الجلية لكل إنسان ليل نهار أن البعث كائن لا محالة، وأن الناس تمر بأحوال بعد أحوال من النطفة والخلق في بطون الأمهات والولادة ثم الطفولة وما بعدها إلى الموت ثم البعث والحساب ثم المقر الأخير وهو الجنة أو النار، ثم ختمت السورة بالإنكار على الكفار عدم إيمانهم مع وضوح الدلائل على البعث وصحة الرسالة وصدق المرسل بها، ثم البشارة لهم بالعذاب الموجه، ووعد المؤمنين بالثواب والنعيم الدائم في الجنة.

قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْشَّفَقِ﴾ (١١) ﴿الشفق؛ الحمرة التي تشاهد في الأفق الغربي بعد غروب الشمس، وإذا غابت هذه الحمرة خرج وقت المغرب ودخل وقت العشاء عند عامة العلماء.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلَ وَمَا وَسَقَ﴾ (٧) ﴿أي جَمَعَ وَضَمَّ وستر ما انتشر في النهار﴾ وَالْقَمَرَ إِذَا أَسَقَ ﴿٨﴾ أي اجتمع وتَمَّ نوره واكتمل وصار بدرأ، وذلك في الليالي البيض، وجواب القسم قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ (٢) أي حالاً بعد حال، حال الموت ثم البعث ثم العرض والحساب والجزاء ثم الجنة أو النار، ويدخل في ذلك أطوار الإنسان وأحواله قبل ذلك منذ أن كان نطفة فمضغة فعلقه مخلقة ثم ولادة فنشأة بجميع مراحلها إلى أن يموت ويبعث على ما سبق بيانه، والله أعلم.

(١) ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر، وعاصم، وأبو جعفر ويعقوب بضم الباء، على خطاب الجمع إذ المراد بالإنسان الجنس، وضممة الباء تدل على واو الجمع المحذوف لالتقاء الساكنين، وقرأ الباقون بفتح الباء على خطاب الواحد، وهو الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي أي شيء يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله والدار الآخرة مع كثرة الأدلة والبراهين البينة، ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ وما لهم أيضاً إذا تلى عليهم القرآن لا يخضعون ولا يخشعون ولا ينقادون ولا يخرون للإذقان سجداً تعظيماً للقرآن والسجود للرحمن، واستدل العلماء بهذه الآية على مشروعية سجدة التلاوة، وقد ذكرنا حديث أبي هريرة أنفأ. وسجود التلاوة واجب عند أبي حنيفة واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله، لكن هذا قول مرجوح، وذلك أنه ثبت في الصحيح عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه خطب الناس يوماً فقرأ سورة النحل فلما وصل آية السجدة نزل من المنبر فسجد، ثم قرأها من الجمعة الثانية فمر بها ولم يسجد فقال رضي الله عنه: إن الله لم يفرض علينا السجود إلا أن نشاء، وكان ذلك بمحضر من الصحابة رضي الله عنهم ولم يُنكر عليه أحد، وسنته رضي الله عنه من السنن التي أمرنا باتباعها. [أخرجه البخاري في كتاب سجود القرآن، باب من رأى أن الله لم يوجب السجود في التلاوة ١٠٧٧].

وقوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ بالقرآن والبعث، ولذلك لا يخضعون ولا يخشعون ولا يسجدون عند تلاوة القرآن، فالإيمان يحمل صاحبه على امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وهؤلاء كفار كذبة، فهذا هو سبب إعراضهم وعدم خضوعهم وخشوعهم وسجودهم عند استماعهم للقرآن يتلى. ورؤي أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ذات يوم ﴿وَأَسْبَحْهُ وَاقْرَبْهُ﴾ فسجد هو ومن معه من المؤمنين، وقريش تصفق فوق رؤوسهم وتصفر استهزاء.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي بما يجمعون في صدورهم من التكذيب والكفر، وفي نفوسهم من الحسد والكبر والبغض للمؤمنين، ﴿فَبَيَّنَّاهُمْ يُعَدَابِ أَيْمِهِ﴾ أي أخبرهم يا رسولنا بالعذاب الموجه الذي لا بد أن يلقيه بسبب كفرهم وتكذبيهم وعنادهم، والبشرى هي الإخبار بما تتغير له بشرة الوجه، وتستعمل في الخير والشر، وهي هنا بشرى لهم بما يسوؤهم تهكماً بهم ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ استثناء منقطع معناه: لكن الذين صدقوا الله ورسوله وجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿لَهُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ مَّمْنُونٌ﴾ أي لهم ثواب غير مقطوع ولا منقوص، وذلك في الجنة دار السلام، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهلها.

سُورَةُ الْبُرُوجِ

مكية وآياتها ثنتان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قِيلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْاَوْقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَبُوتُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾

في هذه السورة تذكير وتسلية للمؤمنين، وتهديد ووعد للكافرين بعرض قصة تذكّر المؤمنين بما تعرّض له سلفهم من التعذيب والإحراق بالنار، لا لشيء، إلا لأنهم يقولون: ربنا الله، وكيف كان صبرهم عظيماً قوياً، فتحملوا ما نالهم من الكفار وصبروا على التعذيب بالنار حتى الموت، لقوة إيمانهم ويقينهم بأن ما عند الله أفضل، فاصبروا أنتم أيها المسلمون على أذى مشركي قريش الذي لم يبلغ ما فعله أصحاب الأخدود، أما الكفار فالويل لهم والعاقبة للمتقين، ثم تحدثت السورة عن قدرة الله تعالى على الانتقام من أعدائه، وختمت بعرض أخبار عن بعض الأمم الماضية كفرعون وشمود، وبينت مكانة القرآن الذي تعهد الله بحفظه.

روى الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرأ في العشاء الآخرة بـ ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾ و﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾ الواو هنا حرف قسم، و﴿الْبُرُوجِ﴾

جمع برج، وهي المجموعة العظيمة من النجوم، سُمِّيَتْ بروجاً لعلوها وارتفاعها، كالقصور العالية، أو أنها منازل عالية في السماء هي منازل الكواكب الشمس والقمر، يسير القمر في كل برج منها يومين وثلاث يوم، فذلك ثمانية وعشرون يوماً، ثم يستتر ليلتين، وتسير الشمس في كل برج منها شهراً، وقد تقدم ذكرها عند قوله تعالى: ﴿نَبَأَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١] وهي اثني عشر: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، وهي مقسمة بين فصول السنة الأربعة: الربيع والصيف والخريف والشتاء.

والمعنى: أقسم بالسماء ذات البروج، والله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، أما المخلوق فلا يقسم إلا بالله تعالى.

وفي الصحيحين قوله ﷺ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمِتَ» [رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عمر].

وقوله تعالى: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۖ﴾ وهو يوم القيامة، وَعِدَ فِيهِ الْعِبَادَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْئَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧].

وقوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ﴾ يوم الجمعة ﴿وَمَشْهُودٍ﴾ يوم عرفة، روى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يوم القيامة، واليوم المشهود يوم عرفة، والشاهد يوم الجمعة، وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل منه، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب الله له، ولا يستعيذ من شر إلا أعاده الله منه».

وقال مجاهد: ﴿وَشَاهِدٍ﴾ قال: الإنسان ﴿وَمَشْهُودٍ﴾ قال: يوم القيامة. وقال قتادة: ﴿وَشَاهِدٍ﴾ يوم الجمعة ﴿وَمَشْهُودٍ﴾ يوم عرفة، وعن ابن عباس: ﴿وَشَاهِدٍ﴾ يقول الله: ﴿وَمَشْهُودٍ﴾ يوم القيامة.

وقيل: الشاهد: الكرام الكاتبين، والمشهود عليهم: بنو آدم، وقيل: الشاهد النبي محمد ﷺ، والمشهود عليهم الأمة، وقيل: الشاهد أمة محمد ﷺ والمشهود عليهم سائر الأمم، وقيل غير ذلك، وقال بعض العلماء: والأحسن

أن يراد ما هو أعم، ولذلك نكرهما ليعم كل شاهد ومشهود، والله أعلم.

وجواب القسم ﴿قِيلَ اصْحَبْ الْأَخْدُودَ﴾ القتلى هنا بمعنى اللعن والطرده والإبعاد عن رحمة الله تعالى، وفي ذلك هلاكهم وأخذهم بالعذاب جزاء ما فعلوا بالمؤمنين، و﴿الْأَخْدُودُ﴾ الشق المستطيل في الأرض كالخندق، وجمعه أخاديد، وهي حفر حفرها الكفار وأوقدوا فيها ناراً وأتوا بالمؤمنين وعرضوا عليهم الكفر أو الإلقاء في النار، فاختاروا البقاء على إيمانهم بالله تعالى وصبروا على الإلقاء في النار، ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُجُودِ﴾ بدل من ﴿الْأَخْدُودِ﴾ أي أن الأخدود هي أخدود النار، ﴿ذَاتِ الْوُجُودِ﴾ الحطب الموقد به النار ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ أي على حافات أخدود النار قاعدون يتشفون من المؤمنين ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ أي حضور شاهدون تعذيب المؤمنين، ويرون النار تحرق أجسادهم ولا يرقون لهم لقسوة قلوبهم، فلذلك استحقوا الطرد من رحمة الله تعالى والهلاك والعذاب المؤلم يوم يلقونه. ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أي ما أنكر هؤلاء الذين أحرقوا أجساد المؤمنين إلا الإيمان بالله ﴿الْعَزِيزُ﴾ القوي الذي يخشى عقابه ﴿الْحَمِيدُ﴾ الذي يُرجى ثوابه. ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي المختص بملك السموات والأرض ومن فيهما وما فيهما وما بينهما وما وراء ذلك وما دونه، فهو ﴿مَلِكُ الْمَلِكِ﴾ مالك الملك كله ورب كل شيء ومليكه. ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي مطلع على كل شيء، لا تخفى عليه خافية، ومن ذلك صبر المؤمنين وثباتهم على الحق، وإيثارهم رضا الله تعالى على كل شيء، حتى على حياتهم، ومطلع على فجور الكافرين، وسيجزى كلًّا بعمله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي فتنوهم عن دينهم وأحرقوهم بالنار ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ أي ثم لم يرجعوا عن ذلك، ويقلعوا ويندموا ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمُ وَلَهُمْ عَذَابٌ الْحَرِيقِ﴾ أي لهم عذاب جهنم بكفرهم، ولهم عذاب الحريق بما أحرقوا المؤمنين. لأنهم أحرقوا المؤمنين بدون ذنب إلا إيمانهم بربهم، فاستحقوا أن يُحرقوا كما أحرقوا، وشتان بين نار الدنيا ونار الآخرة، فقد فضلت نار الآخرة على نار الدنيا بتسعة وستين جزءاً كلهن حرهن مثل حرها.

وقيل: لهم عذاب جهنم في الآخرة وعذاب الحريق في الدنيا، وذلك أن الله تعالى أحرقهم بالنار التي أحرقوا بها المؤمنين ارتفعت إليهم من الأخدود، والله أعلم.

وقصة أصحاب الأخدود جاءت متعددة، وملخصها أن قومًا كفارًا حاولوا بالمؤمنين أن يرتدوا عن دينهم فعجزوا، فحفروا حفراً مستطيلة في الأرض كمجرى النهر، ثم أجبوا فيها النيران، وأحرقوا فيها المؤمنين الذين لم يطيعوهم بترك الإيمان إلى الكفر، ففاز من احترق بنار الكفار بالجنة، وخسر الكفار وباءوا بسخط الله وأليم عقابه. وإليك القصة كما في الصحيح.

قال مسلم: حدثنا هذاب بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت، فابعث إليّ غلاماً أعلمه السحر. فبعث إليه غلاماً يعلمه، فكان في طريقه، إذا سلك راهب، فقعده إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس. فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم! إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة، حتى يمضي الناس. فرماها فقتلها، ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بُني! أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدلّ عليّ. وكان الغلام يُبرئ الأكمه والأبرص ويُداوي الناس من سائر الأدواء فسمع جليس للملك كان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما ههنا لك أجمع، إن أنت شفيتني فقال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوتُ الله فشفاك، فأمن بالله فشفاه الله فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك: من ردّ عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله فأخذه فلم يزل يُعذبه

حتى دلّ على الغلام فجيء بالغلام فقال له الملك: أي بني! قد بلغ من سحرك ما تُبريء الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل فقال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يُعذبه حتى دل على الراهب فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ثم جيء بجليلس الملك فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم! اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقدفوه فذهبوا به فقال: اللهم! اكفنيهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ثم خُذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله، رب الغلام ثم ارميني فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهماً من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله، رب الغلام ثم رماه فوق السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات فقال الناس: آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام برب الغلام، فأنتي الملك فقيل له: رأيت ما كنت تحذر؟ قد، والله! نزل بك حذرک قد آمن الناس. فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخُذت وأضرم النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها أو قيل له: اقتحم. ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتعاسست أن تقع فيها فقال لها الغلام: يا أمه! اصبري فإنك على الحق».



﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ هُوَ بُدِيءٌ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ^(١) ﴿١٥﴾ فَقَالَ لَمَّا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ الْجَنَّاتِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ^(٢) ﴿٢٢﴾ .

لما ذكر الله تعالى وعيد الكفار أتبعه بذكر ما أعد للمؤمنين، وهذا هو نهج القرآن في عرض الترغيب والترهيب، يذكر عذاب أهل النار ونعيم أهل الجنة وصفات كل فريق، ليعيش الإنسان بين الخوف والرجاء، فهما جناحان يطير بينهما العبد حتى يأتيه اليقين، فيحط رحاله في القبر الذي يعقبه البعث والحساب والثواب أو العقاب.

وهكذا ينبغي للوعاظ والخطباء أن يسيروا على هذا المنوال في الخطب والدروس الدعوية، لأن الإنسان إذا سمع شدة العذاب ومسبباته نأى بنفسه عنها قدر المستطاع، وراح يبحث عن مسببات الرحمة والنعيم، فإذا ذكر الترهب وجب بعده ذكر الترغيب والعكس، فهذا هو الوعظ النافع، فبعد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ إِمَّا لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلْحَرِيقٍ ﴾ ﴿١٦﴾ قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ ﴿١١﴾ .

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي إن الذين جمعوا بين الإيمان وعمل الصالحات، سواء من هؤلاء المفتونين أو غيرهم ﴿ لَهُمْ ﴾ عند الله ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي بساتين وحدائق زاهرة تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة، والتي ذكرت في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ

(١) ﴿ الْمَجِيدُ ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بخفض الدال صفة للعرش، وقرأ الباقون برفعها خير بعد خير أو صفة لـ [ذو].

(٢) ﴿ مَحْفُوظٍ ﴾ قرأ نافع برفع الظاء صفة للقرآن، وقرأ الباقون بخفضها صفة للوح.

لَذَّةٍ لِلشَّرِيبِ وَأَنْهَرُ مَنْ عَسَلَ مُصْفًى وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴿١٥﴾ [محمد: ١٥]، وفي الجنة من النعيم ما لا يخطر على البال كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧]، وقال الله تعالى في الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». فنسأل الله الجنة ونستجير به من النار.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى النعيم المذكور ﴿الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ أي التام الذي لا فوز مثله، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ البطش الأخذ بعنف وشدة، ويقع ذلك العقاب الشديد لمن يستحقه، وإلا فإن رحمة الله تعالى واسعة، والله تعالى يعفو عن كثير من الذنوب ويستر ويتجاوز، لكن أخذه للظالم شديد كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٧٢﴾﴾ [هود: ١٠٢] فالبطش شديد لمن يستحقه، أما من لا يستحق البطش فإن الله تعالى يعامله برحمة منه وفضل، ورحمته تعالى سبقت غضبه، اللهم ارحمنا يا أرحم الراحمين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيُئِذُّ ﴿١٣﴾﴾ أي يبدأ الخلق في الدنيا ثم يعيدهم أحياء بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ﴾ [الروم: ٢٧]، فإن الله ﷻ هو الذي يُبدئ كل ما يُبدأ ويعيد كل ما يُعاد، وكل الأمور بيده تعالى يفعل ما يشاء.

وقال البخاري: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا شعبة عن المغيرة بن النعمان - شيخ من النَّخَع - عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خطب النبي ﷺ فقال: «إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ثم إن أول من يُكسى يوم القيامة إبراهيم، ثم يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا رب أصحابي، فيقال: لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]، فيقال: إن هؤلاء الذين لم يزلوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم».

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَفُوُّ﴾ لمن يرجع إليه بالتوبة، والمغفرة: ستر الذنوب مع العفو، كما في الحديث الصحيح: «إن الله يخلو بعبده المؤمن يوم القيامة ويقرره بذنوبه حتى يقر بها ويعترف، فيقول الله ﷻ: قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم».

وقوله تعالى: ﴿الْوَدُودُ﴾ أي المحب لمن أطاعه وأخلص له، فالله ﷻ يحب عباده المخلصين، وهو ﷻ محبوب كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، ومنه قول النبي ﷺ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّابِيَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولَهُ» وذلك في غزوة خيبر، كان الذي أعطاه الراية علي بن أبي طالب ﷺ.

والله تعالى يحب المتقين، ويحب المتطهرين، ويحب الصابرين، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا محبته، وأن يفيض علينا لطفه وكرمه ومحبته وإحسانه، إنه بر رحيم.

وقوله تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ أي صاحب العرش ومالكة، والعرش هو الذي استوى عليه الله تعالى استواء يليق بجلال وجهه الكريم وسلطانه العظيم من غير تمثيل ولا تكييف، والعرش هو أعظم المخلوقات، كما جاء في الأثر: أن السماوات السبع والأراضين السبع بالنسبة إلى الكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، وأن فضل الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة.

قوله تعالى: ﴿الْمَجِيدُ﴾ بخفض الدال صفة للعرش، وبرفعها صفة لله تعالى ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ أي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ولا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، روي أن أبا بكر الصديق ﷺ، قيل له وهو في مرضه الذي مات فيه: هل نظر إليك الطبيب؟ قال: نعم، قالوا: وماذا قال لك؟ قال: قال لي: إني فعّال لما أريد.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أُنثِيَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ أي قد أتاك خبر الجموع الكافرة، الذين تجندوا على الأنبياء، ثم بين من هم فقال تعالى: ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ أي هؤلاء هم الجنود، وقوله: ﴿فِرْعَوْنَ﴾ أي فرعون وجنوده، اكتفى بذكره عنهم لأنهم أتباعه، والمراد بحديثهم ما صدر عنهم من التمادي في

الكفر والضلال وما حل بهم من العذاب والنكال، وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ، وتهديد ووعد لكفار قريش وأن الله تعالى قادر على إهلاكهم، فقد أهلك من هو أشد منهم قوة، وخص فرعون وثمود لأن ثمود في بلاد العرب، وقصتهم عندهم مشهورة، وكذلك فرعون قصته مشهورة عندهم وعند أهل الكتاب، فذكرهم بما علموا من طغيان القوم وما حل بهم من الهلاك نتيجة ذلك، فكأنه يقول: اتعظوا وأطيعوا الله ورسوله قبل أن يصيبكم ما أصابهم.

وقوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ (١٦) أي هم في شك وريب وكفر وعناد، و«بل» إضراب انتقالي للأشد، أي إن الكافرين من قومك أشد في تكذيبهم لك من تكذيب أولئك لرسولهم. وفي قوله تعالى: ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ إشارة إلى تمكنه من نفوسهم، أي التكذيب، وأنه لشدته محيط بهم من كل جانب.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ (١٧) أي إن الله تعالى قادر على أن ينزل بهم ما أنزل بأولئك، والإحاطة بالشيء الحصر له من جميع الجوانب، فهم في قبضته وتحت سطوته ﷻ ولا مفر ولا مهرب لأحد من أمر الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ (١٨) «بل» إضراب عن شدة تكذيبهم، أي هذا القرآن الذي كذب به قومك هو كتاب عظيم سام شريف لا يُمَاتَلُ في أسلوبه وهدايته، لا كما يصفونه بأنه أساطير الأولين أو شعر أو كهانة بل هو قرآن مجيد بالغ الغاية في المجد والشرف والسمو والرفعة، هداية وتشريع لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وتكذيبهم له لا يضره شيء، وما ضر السحاب من نبج الكلاب.

وقوله تعالى: ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ (١٩) أي عن الزيادة والنقص والتحريف والتبديل. فالقرآن محفوظ عند الله تعالى، تعهد بحفظه تبارك وتعالى كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٩) [الحجر: ٩]، واللوح المحفوظ عند الله ﷻ هو أم الكتاب كما قال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (٣٩) [الرعد: ٣٩] وقد كتب الله تعالى في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء، وكما بينا آنفاً في ﴿مَحْفُوظٍ﴾ قراءتان: لنافع برفع الظاء صفة للقرآن، وقراءة الجمهور بالخفض صفة للوح.

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن اللوح المحفوظ من درة بيضاء
دفتاه ياقوت أحمر، كتابته نور وقلمه نور، ينظر الله فيه كل يوم ثلاثمائة وستين
نظرة، يميت ويحيي، ويُعز ويُدل، ويفقر ويغني، ويفعل ما يشاء. اهـ.

وروي عن ابن عباس أنه قال: إن في صدر اللوح: لا إله إلا الله
وحده، دينه الإسلام ومحمد عبده ورسوله، فمن آمن بالله ﷻ، وصدق بوعدده
واتبع رسله، أدخله الجنة.

وعن ابن عباس قال: خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام، فقال
للقلم قبل أن يخلق الخلق: اكتب علمي في خلقي، فجرى بما هو كائن إلى
يوم القيامة.

سُورَةُ الطَّارِقِ

مكية وآياتها سبع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا ﴿١﴾ عَلَيْهَا حَافِظٌ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُمْ عَلَى رَبِّهِمْ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ قَا لَمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ لَقَوْلٌ فَصَلِّ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْمَزَلِ ﴿١٤﴾ لَهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَآكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَنهَلَتْهُمْ رُؤْيَا ﴿١٧﴾﴾ .

روى الإمام أحمد: عن عبد الرحمن بن خالد بن أبي جبل العدواني عن أبيه؛ أنه أبصر رسول الله ﷺ في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصا، حين اتاهم يتغي عندهم النصر. فسمعتهم يقرأ: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾﴾ حتى ختمها قال: فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك، ثم قرأتها في الإسلام. قال: فدعنتني ثقيف فقالوا: ماذا سمعت من هذا الرجل؟ فقرأتها عليهم. فقال من معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا، لو كنا نعلم ما يقول حقاً لاتبعناه. وروى النسائي عن جابر، قال: صلى معاذ المغرب فقرأ البقرة أو النساء، فقال النبي ﷺ: «أفتان أنت يا معاذ؟ ما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق والشمس وضحاها ونحو هذا؟».

افتتحت هذه السورة بقسم من الله تعالى على إثبات أمور العقيدة، شأنها شأن السور المكية في تأسيس أصول عقيدة التوحيد والوحي والنبوة

(١) ﴿١﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر بتشديد الميم وقرأ الباقون بتخفيفها.

والبعث والجزاء لأن القوم كانوا مشركين في جاهلية جهلاء لا يؤمنون ببعث ولا حساب ولا جنة ولا نار، وبينت الهيمنة الإلهية على الناس وحفظ أعمالهم، ودعتهم للتفكير في أصل نشأتهم من العدم، يتمثل ذلك في ماء مهين لا يمكن أن تكون فيه حياة إلا بإرادة الله تعالى ليستدلوا بذلك على أن الذي أنشأهم أول مرة قادر على إعادتهم بعد الموت، ثم أردفت بقسم آخر على أن القرآن قول فصل وما هو بالهزل، ومع ذلك أنكره الكفار وكادوا له ولمن جاء به من عند الله تعالى فرد الله تعالى كيدهم في نحورهم وأذاقهم أصناف العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ﴿١٦﴾ أقسم الله تعالى بالسما والطارق، والسما هو كل ما علاك، والطارق هو ما يطرق ويأتي ليلاً، ولما كان لفظ الطارق يشمل كل طارق آت بليل، والباري ﷻ أراد طارقاً معيناً فخم من شأنه بالاستفهام عنه، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ ﴿١٧﴾ أي أي شيء أعلمك بالطارق؟ ثم بينه تعالى بقوله: ﴿النَّجْمِ الثَّاقِبِ﴾ ﴿١٨﴾ أي الذي ينفذ ضوءه في الظلام، فيحتمل أن يكون المراد به جميع النجوم فتكون «ال» للجنس، ويحتمل أنه النجم اللامع الذي يثقب الظلام بنوره، وأياً كان، فإن هذه النجوم من آيات الله تعالى الدالة على كمال قدرته في سيرها وانتظامها واختلاف منافعها، فمنها الهادي - بهداية الله - في البر والبحر، يستدل به المسافرون على معرفة طريقهم، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَنَّا وَابْلَغْنَا وَهُمْ يُهْتَدُونَ﴾ ﴿١٩﴾ [النحل: ١٦]. ومنها زينة للسماء ورجوماً للشياطين كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ﴾ [الملك: ٥]، فسبحان الله، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، أقسم بما أقسم، وله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، أما نحن فليس لنا إلا أن نقسم بالله تعالى، وجواب القسم قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ ﴿٢٠﴾ «إن» نافية و«لما» بمعنى إلا، والمعنى: ما كل نفس إلا عليها حافظ يتولاها ويمن عليها بالخير والنماء والبقاء إلى أن يحين أجلها، والحافظ هو الله تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤] والله تعالى حافظ السموات والأرضين ومن فيهن، قال تعالى: ﴿وَلَا يُوَدُّهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقيل: الحافظ هو الملك

الذي يكتب أعمال العباد، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَنِينًا ﴿١١﴾﴾ [الانفطار: ١٠، ١١] فهذه مهمتهم كما بينها الله تعالى، وهناك ملائكة موكلون برعاية العباد وحفظهم من المكاره كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مَعَقِبَةٌ ﴿١٢﴾ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴿١٣﴾﴾ [الرعد: ١١]، أي يحفظونه بأمر الله.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ أي فلينظر الإنسان في أول شأنه نظر تفكر واعتبار، وهو النظر بالبصيرة من أي شيء خلقه الله؟ والجواب إنه ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾ أي ماء مدفوق، وهو المني المنصب في الرحم، يخرج من بين صلب الرجل، أي عظام ظهره وترائب المرأة، أي عظام صدرها، أو موضع القلادة من الصدر، وباجتماع الماءين ثم استقراره في الرحم يتكون الجنين بإرادة الله تعالى. ويقول أهل الاختصاص في هذا الأمر: الصلب: هو منقطة العمود الفقري، - والترائب: هي عظام الصدر.

وقد بينت الدراسات الجلينية الحديثة أن نواة الجهاز التناسلي والجهاز البولي في الجنين تظهر بين الخلايا الغضروفية المكونة لعظام العمود الفقري وبين الخلايا المكونة لعظام الصدر.

وتبقى الكلى في مكانها وتنزل الخصية إلى مكانها الطبيعي في الصفن عند الولادة. وعلى الرغم من انحدار الخصية إلى أسفل فإن الشريان الذي يغذيها بالدم طول حياتها يتفرغ من الأورطة بحذاء الشريان الكلوي.

كما أن العصب الذي ينقل الإحساس إليها ويساعدها على إنتاج الحيوانات المنوية وما يصاحب ذلك من سوائل متفرع من العصب الصدري العاشر الذي يغادر النخاع الشوكي بين الضلعين العاشر والحادي عشر.

وواضح من ذلك أن الأعضاء التناسلية وما يغذيها من أعصاب وأوعية دموية تنشأ من موضع في الجسم بين الصلب والترائب «العمود الفقري والقفص الصدري».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ أي إن الله تعالى الذي خلقه مما ذكر من ماء دافق فجعله بشراً سوياً، ثم أماته قادر على إرجاعه حياً ﴿يَوْمَ يُبَلِّ السَّرَّابِرُ ﴿٩﴾﴾ أي تختبر الضمائر، وتتكشف العقائد، ويُميِّز ما طاب منها وما

خاب، وورد عن السلف أن الوضوء والغسل والصلاة والزكاة والصيام من السرائر، وكذلك الأمور التي تخص المرأة كالحيض والحمل وعدم ذلك، من سرائرها.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ (١٠) وذلك يوم القيامة، ليس للإنسان الكافر المكذب بالبعث والدار الآخرة من قوة يدفع بها عن نفسه عذاب الله، ولا ناصر ينتصر به فيخلصه.

والخلاصة أنه ليس له قوة ذاتية ولا قوة خارجية، فلا يستطيع أن يدافع عن نفسه، ولا أحد يستطيع الدفاع عنه، إذ زالت الفروق بين الناس، وأصبحوا سواسية أمام الخالق ﷻ، فكل إنسان يجد ما قدم من عمل حاضر، ﴿وَلَا يَظَلُّ رُبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الرَّجْعِ﴾ (١١) وَالْأَرْضَ ذَاتَ الصَّوْعِ﴾ (١٢) أقسم الله تعالى بالسماء ذات الرجوع وهو المطر، سُمِّي بذلك لأنه يرجع ويتكرر وبه حياة الأرض، وأقسم بالأرض ذات الصدع، وهو التشقق بالنبات والزرع، أقسم بذلك ﷻ على ﴿إِنَّهُ﴾ أي القرآن الكريم ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ أي حق فارق بين الحق والباطل ﴿وَمَا هُوَ بِأَمْرٌ﴾ (١٣) أي ما هو بالكلام الذي ليس له أصل في الفطرة ولا معنى في القلب، بل هو جد الجد.

أخرج ابن مردويه عن علي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا نبي جبريل فقال: يا محمد، إن أمتك مختلفة بعدك. قلت: فأين المخرج يا جبريل؟ فقال: كتاب الله به يقصم كل جبار، من اعتصم به نجا، ومن تركه هلك، قولٌ فصل ليس بالهزل».

وأخرج ابن أبي شيبة والدارمي والترمذي ومحمد بن نصر وابن الأنباري في المصاحف عن الحارث الأعور قال: دخلت المسجد فإذا الناس قد وقعوا في الأحاديث، فأتيت علياً فأخبرته، فقال: أوقد فعلوها؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون فتنة»، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر من بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا

تزيغ به الأهواء، ولا تشيع منه العلماء، ولا تلتبس منه الألسن، ولا يخلق من
الرد، ولا تنقضي عجائبه هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا
سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن: ١، ٢] من قال به صدق، ومن
حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم.

وأخرج محمد بن نصر والطبراني عن معاذ بن جبل قال: ذكر
رسول الله ﷺ يوماً الفتن فعظمها وشددها فقال علي بن أبي طالب: يا
رسول الله فما المخرج منها؟ قال: «كتاب الله فيه المخرج، فيه حديث ما
قبلكم ونبأ ما بعدكم وفصل ما بينكم، من تركه من جبار يقصمه الله، ومن يبتغي
الهدى في غيره يضلّه الله، وهو جبل الله المتين والذكر الحكيم والصراط
المستقيم، هو الذي لما سمعته الجن لم تنتاه أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا
﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن: ١، ٢] هو الذي لا تختلف به الألسن ولا تخلقه
كثيرة الرد».

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾ أي إن المكذبين بالقرآن يمكرون
مكرًا لإبطال أمر الله تعالى وإطفاء نوره، وهم المشركون وأمثالهم، وكيدهم
يتمثل في أمور كثيرة، منها اجتماعهم في دار الندوة بمكة وتشاورهم فيه،
وتأمرهم على قتله، وقولهم بأن القرآن أساطير الأولين، قولهم: إن محمداً
ساحر أو شاعر أو مجنون ﴿وَإَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ وكيد الله تعالى استدراجه إياهم
من حيث لا يعلمون.

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ﴾ أي أنظرهم ولا تستعجل لهم، ﴿أَنهَلَهُمْ
رُؤْيَا﴾ أي إمهالاً يسيراً، وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ وتهديد للكافرين من قريش
وغيرهم، وقد حقق الله تعالى النصر وارتفعت راية الإسلام، وعلت مكانته،
وخفتت رياح الكفر، واضمحل واندحر أهله، ودخل الناس في دين الله
أفواجا، والحمد لله.

سُورَةُ الْأَعْلَى

مكية وآياتها تسع عشرة آية

أخرج البخاري وغيره عن البراء بن عازب أنه قال: «أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فجعلنا يُقرئنا القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به حتى رأيت الولاة والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء، فما جاء حتى قرأت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ في سور مثلها». وأخرج أحمد والبخاري وابن مردويه عن عليّ قال: «كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾». أخرجه أحمد عن وكيع عن إسرائيل عن توبر بن أبي فاختة عن أبيه عن عليّ. وأخرج أحمد ومسلم وأهل السنن عن النعمان بن بشير «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين وفي الجمعة بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾»، و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَلِيظَةِ﴾، وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعاً، وفي لفظ «وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما» وفي الباب أحاديث. وأخرج مسلم وغيره عن جابر بن سمرة أن النبي ﷺ «كان يقرأ في الظهر بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾». وأخرج أبو داود والنسائي وابن ماجه والدارقطني والحاكم والبيهقي عن أبي بن كعب قال: «كان رسول الله ﷺ يوتر بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾»، و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾»، وقيل: إن الإكثار من تلاوة هذه السورة يورث الحفظ.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ ۝ (٣) فَهَدَى ۝ (٤) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝ (٥) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۝ (٦) سُنْفُرًا تَكُفَلَا تَنْسَى ۝ (٧) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۝ (٨) وَيُبَشِّرُكَ لِلْيُسْرَى ۝ (٩) فَذَكِّرْ ۝ (١٠) إِنَّ نَفْعَ الذِّكْرِى ۝ (١١) سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْفَى ۝ (١٢) وَيُنَجِّبُهَا الْأَشْفَى ۝ (١٣) الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَى ۝ (١٤) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۝ (١٥)﴾ .

هذه السورة مكية في قول الجمهور كما سبق، وتشمل الأمر بالتسبيح وتنزيه الله تعالى عما لا يليق به، وفيها الأمر بالدعوة والتذكير وبيان أن الخير كله والفلاح في التطهر من دنس الذنوب والتجافي عن متاع الدنيا الزائل والإكثار من الباقيات الصالحات، وأشارت كسائر سور القرآن الكريم إلى الاستعداد ليوم المعاد، وهذا هو نهج الكتب السماوية السابقة.

قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ (١)﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وأتمته تابعة له، أو الخطاب له لفظاً، وللعوم حكماً، والمعنى: نزه الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته، فهو ﷺ رفيع المقام، علا وظهر على كل شيء، فَيَنْزَهُ ﷺ عن كل نقص، فله صفات الكمال المطلق، وتام القدرة، وينزه عما يقوله الظالمون مما لا يليق به جل وعلا من الشريك والزوجة والولد، ﷺ عما يشركون.

ويشمل الأمر بالتسبيح المعروف، مثل: سبحان الله، سبحان ربي الأعلى، ويؤيد ذلك ما قاله ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ (١)﴾ قال: «سبحان ربي الأعلى». اهـ.

وكان النبي ﷺ يحب هذه السورة ويقرأها كل ليلة في وتره كما سبق في الحديث، ففي هذه السورة بشارة من الله تعالى لنبية ﷺ بعدم نسيان القرآن إلا ما شاء الله، والتيسير له في كل أمر من أمور الدعوة والعبادة وكل أوجه

(١) ﴿قُدِّرَ﴾ قرأ الكسائي بتخفيف الدال وقرأ الباقون بتشديدها .

(٢) ﴿لِلْيُسْرَى﴾ قرأ أبو جعفر بضم السين وقرأ الباقون بإسكانها .

الخير، وقد أمر النبي ﷺ أن يجعل هذا التسيح في السجود كما روى الإمام أحمد عن عقبه بن عامر قال: لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٦)، قال لنا رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»، ولما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١١٦)، قال: «اجعلوها في سجودكم».

و﴿الْأَعْلَى﴾ هو الأرفع من كل شيء، قدرة وملكاً وسلطاناً، واستدل السلف بظواهره بإثبات العلو بلا تكيف، والمسألة معروفة.

وقوله ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ يعني: نزه اسم ربك، وتنزيه الاسم مستلزم تنزيه المسمى، فالمقصود تنزيه الله تعالى على كل ما لا يليق بجلاله وعظمته، وقيل: معناه: سبح ربك ذكراً اسمه، أي سبحه بالقلب واللسان، وذلك بذكر اسمه، أي سبحان الله، سبحان ربي الأعلى... وهكذا، كما قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٦).

ويشمل التنزيه تكريم اسم الله تعالى عن أن يطلق على غيره - جل وعلا - إذا كان مختصاً به ﷺ كالاسم الجليل، وقد ورد عن السلف شدة حرصهم على تنزيه اسمه تعالى، ومن ذلك ما روي عن الإمام مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه كان إذا لم يجد ما يعطي السائل يقول: ما عندي ما أعطيك، أو ائتني في وقت آخر، أو نحو ذلك، ولا يقول نحو ما يقول الناس: يرزقك الله تعالى، أو يبعث الله تعالى لك، أو يعطيك الله تعالى، أو نحوه؛ فستل عن ذلك فقال: إن السائل أثقل شيء على سمعه وأبغضه إليه قول المسؤول له ما يفيد رده وحرمانه، فأنا أجل اسم الله سبحانه من أن أذكره لمن يكره سماعه ولو في ضمن جملة. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ (١) أي خلق المخلوقات فأتقن خلقها وأحكم صنعها على أتم حال، فلا تفاوت فيها ولا خلل، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (٢) أي قدر لكل شيء ما يصلحه، فهدها إليه وعرفه أوجه الانتفاع به. وقوله: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْأَرْزَقَ﴾ (٣) أي من جميع صنوف النباتات والزرع ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ (٤) أي صيره بعد خضرته ونضرتة جافاً أسود يابساً تطير به الريح، وبعد أن يصير كذلك يكون أيضاً طعاماً نافعاً للبهائم، فسبحان الله! وفيه إشارة إلى زوال الدنيا وما فيها، وأن الله تعالى فعال لما يريد، يوجد ثم يعدم، ويحيي ثم يميت، من أعلى المخلوقات إلى أصغرها، هذه سنة الله

تعالى فيها، مهما بلغت من النمو والازدهار والزخرف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلَتْ مِنْ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ تَبَأُ الْأَرْضِ وَمِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا آتْنَاهَا أَمْزَناً لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ ثُمَّ بَسِجُ فَرَّثَهُ مُمْصِقًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ [الحديد: ٢٠]، فكل مخلوق إلى زوال، وبعده البعث والحياة الأزلية.

وقوله تعالى: ﴿سُقِّرْتُكَ فَلَا تَنْسَى ﴿٦﴾﴾ هذا وعد من الله تعالى لنبية ﷺ أنه يقرئه القرآن فيحفظه الرسول ﷺ ولا ينساه.

قال مجاهد: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي، لم يفرغ جبريل من آخر الآية، حتى يتكلم النبي ﷺ بأولها، مخافة أن ينساها، فنزلت: ﴿سُقِّرْتُكَ فَلَا تَنْسَى ﴿٦﴾﴾. اهـ.

وفي معنى الآية قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَّعَلَّ بِهٖ ﴿١١﴾﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصَبْ قُرْآنَهُ ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿٩﴾﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩].

فهذا التوجيه الإلهي، وهذه الهداية الخاصة بنبي الله ﷺ، فصار النبي ﷺ ينصت حتى ينتهي جبريل ﷺ من قراءة الوحي ثم يقرأه.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي ما شاء الله تعالى أن تُنَسَّاه، فإن الأمر بيد الله ﷻ ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنشِئُ﴾ [الرعد: ٣٩]، وكما قال تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٦﴾﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٠٦، ١٠٧].

فالنبي ﷺ لا يتفلسف من القرآن، ولكن ربما يُنسى آية فيتذكرها سريعاً، كما ذكر ابن جرير أنه قد روي أنه أسقط آية في قراءته في الصلاة، فحسب أبيُّ أنها نسخت، فسأله، فقال: (نُسِّيتُها)، فإن الرسول ﷺ يحفظ هذا الكتاب العظيم الضخم من غير دراسة ولا تكرار، ولا ينساه أبداً إلا ما شاء الله على ما سلف. فهذه ميزة خاصة بالنبي ﷺ ومعجزة باهرة، أما نحن فإذا لم نراجع ونكرر باستمرار فسوف يتفلسف منا القرآن.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعاهدوا هذا القرآن، فوالذي نفس محمد بيده، لهو أشد تفلناً من الإبل في عقلها». وفي رواية: «أشد تفضياً من قلوب الرجال من النعم من عقلها». والمعنى: داوموا على تكرار القرآن ودرسه لثلاث سنوه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ أي إن الله تعالى عالم بما يجهر به العباد وما يخفونه من الأقوال والأفعال، لا يخفى عليه شيء، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ نَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

وقوله تعالى: ﴿وَتَسِّرْكَ لِلْيَسْرَى﴾ أي نوفر لك للطريقة اليسرى، وهي الشريعة السمحة السهلة التي هي أيسر الشرائع وأوفقها بحاجة الناس في كل زمان ومكان، وهي شريعة الإسلام، وهذه بشارة ثانية من الله تعالى لنبيه ﷺ، بأن ييسره الله تعالى لليسرى، بعد أن بشره بحفظ القرآن وثباته في قلبه ﷺ.

فهذه هي الشريعة السمحة، وهذا هو الدين الواضح الجلي، الخالي من كل حرج، فعليك الدعوة إليه والتذكير ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ أي ذكر الناس بآيات الله تعالى، وذكرهم بأيام الله وعظهم إن نفعت الذكرى أو لم تنفع، إنما عليك البلاغ، و﴿سَيَذَكُرُ مَنْ يَخْشَى﴾ أي سيتعظ من يخشى الله تعالى ﴿وَيُجَنَّبُهَا﴾ أي الذكري ويتباعد عنها ﴿الْأَشْقَى﴾ أي في علم الله تعالى، قال قتادة: فلا والله، لا يتنكب عبد هذا الذكر زهداً فيه وبغضاً لأهله إلا شقياً بين الشقاء. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى﴾ أي النار العظيمة الفظيعة، لأنها أعظم وأشد حراً من نار الدنيا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ناركم هذه ما يوقد بنو آدم جزء واحد من سبعين جزءاً من نار جهنم»، قالوا: والله إن كانت لكافية، قال: «فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً وكلهن مثل حرها» [رواه البخاري ومسلم].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ أي لا يهلك فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه، مع أنهم أحياء، لكن أحياء يعذبون كما قال تعالى: ﴿كَلِمًا

نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾
 [النساء: ٥٦]. وفي الحديث الصحيح: قال مسلم: وحدثني نصر بن علي
 الجهضمي، حدثنا بشر (يعني ابن المفضل) عن أبي مسلمة، عن أبي نصره،
 عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم
 لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم (أو قال:
 بخطاياهم) فأماتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحماً، أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضباط
 ضباط، فبُثُوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينتبون
 نبات الحبة تكون في حميل السيل». فقال رجل من القوم: كأن رسول الله قد
 كان بالبادية.



﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْتِرُونَ^(١) الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) أي قد فاز من طهر نفسه بالإيمان،
 وصالح الأعمال، وأخلص للواحد الديان، واتبع نبي الرحمة سيد ولد عدنان
 ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ أي ذكر الله تعالى بقلبه ولسانه على كل أحواله، عند القيام
 من النوم وعند الوضوء وبعده وفي الصلاة وبعدها، وقبل الأكل وبعده، وعند
 اللباس وعند الخروج، إلى آخر ما هو مذكور من الأذكار في كتب عمل اليوم
 والليلة المسندة بأحاديث صحيحة، خالية من الابتداع^(٢)، فلا يخلو المؤمن من
 ذكر الله تعالى إذا وفقه الله. وفي الحديث مرفوعاً: «ما عمل آدمي عملاً أنجى
 له من عذاب الله من ذكر الله»، ورُوي عنه ﷺ أنه قال للذي قال له: أوصني،
 قال: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله» أو كما قال ﷺ، وقوله تعالى:
 ﴿فَصَلِّ﴾ أي صلى الصلوات الخمس وما استطاع من النوافل، على أن الصلاة
 النافعة هي المقامة على الوجه الذي أمر الله به وصواباً لفعل النبي ﷺ كما

(١) ﴿تُؤْتِرُونَ﴾ قرأ أبو عمرو بياء الغيب وقرأ الباقون بياء الخطاب.

(٢) أي الأذكار.

قال: «صلوا كما رأيتموني أصلي» فتقام تامة في أوقاتها بخشوع مع كل ما يلزمها من أركان وواجبات وسنن وطهارة المكان والبدن والثوب وأخرج البزار وابن مردويه عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وخلع الأنداد، وشهد أنني رسول الله ﷺ وذكّر أسر ربه فصّل» قال: «هي الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بمواقيتها».

وقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي بل تفضلون أيها الناس هذه الحياة الدنيا الفانية على الحياة الآخرة الباقية التي لا نهاية لها ولا زوال، فتعملون للدنيا، وتنسون الآخرة ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي إن الحياة الآخرة أفضل من الحياة الدنيا لخلوصها عما يكدر، وأدوم لعدم انصرامها.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان عن عرفجة الثقفي قال: استقرأت ابن مسعود ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ فلما بلغ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ترك القراءة وأقبل على أصحابه، فقال: آثرنا الدنيا على الآخرة فسكت القوم. فقال: آثرنا الدنيا لأننا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها، وزويت عنا الآخرة فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ أي ما تضمنته هذه الآيات من المواعظ، وكون الإنسان يقدم دنياه على آخرته ثابت في الصحف الأولى، وهي ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ إبراهيم الخليل، وموسى الكليم ﷺ، فذلك مما توافقت فيه الشرائع وسجلته الكتب السماوية.

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن أبي ذر ﷺ قال: «قلت: يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب؟ قال: مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل على شيث خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وعلى موسى قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان». قلت: يا سول الله: فما كانت صحف إبراهيم؟ قال: «أمثال كلها أيها الملك المتسلط المبتلي المغرور لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم، فإني لا أُردها ولو كانت من كافر، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ثلاث

ساعات ساعة ينجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه ويتفكر فيما صنع، وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال، فإن في هذه الساعة عوناً لتلك الساعات واستجماعاً للقلوب وتفريراً لها، وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مقبلاً على شأنه حافظاً لسانه، فإن من حسب كلامه من عمله أقل الكلام إلا فيما يعنيه، وعلى العاقل أن يكون طالباً لثلاث مرمة لمعاش، أو تزود لمعاد، أو تلذذ في غير محرم». قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف موسى؟ قال: «كانت عبراً كلها عجبت لمن أيقن بالموت كيف فرح، ولمن أيقن بالموت ثم يضحك، ولمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم يطمئن إليها، ولمن أيقن بالقدر ثم ينصب، ولمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل». قلت: يا رسول الله، هل أنزل عليك شيء مما كان في صحف إبراهيم وموسى؟ قال: «يا أبا ذر نعم ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾».

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

مكية وآياتها ست وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وَجُوهُ يَوْمٍ خَشِيعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى ﴿١﴾ نَارًا حَامِيَةً تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ عَآئِنَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ﴿٦﴾ لَا يُسِينُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾ وَجُوهُ يَوْمٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾ ﴿١٢﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٣﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٥﴾ وَنَارٌ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٦﴾ وَزَرَّاقٌ مَبْتُونَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾ .

روى مسلم وغيره عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقرأ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿١﴾ والغاشية، في صلاة العيد ويوم الجمعة.

بدأت هذه السورة المكية بالإجماع «الغاشية» بعرض مشوق عن ذلك اليوم العظيم، يوم القيامة، يوم يذهل فيه الناس، وترتعد القلوب، ويبلغ الخوف غايته، والفرع أشده، حينئذ ينقسم الناس إلى قسمين، قسم في الجنة

(١) ﴿تَصَلَّى﴾: قرأ أبو عمرو، وشعبة، ويعقوب، بضم التاء مبنياً للمفعول، ونائب الفاعل ضمير يعود على الوجه. وقرأ الباقون بفتح التاء مبنياً للفاعل، والفاعل ضمير يعود على الوجه أيضاً.

(٢) ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ ﴿١١﴾: قرأ نافع «تسمع» بضم التاء الفوقية المضمومة على البناء للمفعول، ﴿لَغِيَةً﴾ بالرفع نائب فاعل. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ورويس، ﴿يَسْمَعُ﴾ بالياء التحتية المضمومة على البناء للمفعول. ﴿لَغِيَةً﴾ بالرفع نائب فاعل. وجاز تزكير الفعل وتأنينه لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي. وقرأ الباقون ﴿تُسْمَعُ﴾ بفتح التاء على البناء للفاعل، ﴿لَغِيَةً﴾ بالنصب مفعول به.

وقسم في النار، قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ (١) ﴿الخطاب للنبي ﷺ أو لمن يتأتى خطابه، والاستفهام للتعظيم والتعجب مما في حيزه مع تقريره، ومعنى ﴿حَدِيثٍ﴾ أي نبأ وخبر، و﴿الْغَاشِيَةِ﴾ أي الداهية العظيمة التي تغشى الناس، وهي يوم القيامة، ولقد تحدث القرآن عن يوم القيامة كثيراً تحذيراً للناس وإنذاراً لهم قبل وقوعه، مثل قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْقَاؤاً رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (٢) ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (٣) [الحج: ١، ٢]، وهنا إنذار للكفار وتحفيز للمؤمنين ليتنبه الجميع ويتفكروا في حقيقة الحياة الدنيا الزائلة، وأن وراءهم أحداث عظيمة تبدأ بالغاشية، وفيها ينقسم الناس إلى فريقين ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ (٤) أي ذليلة ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ (٥) أي ذات نصب وتعب من جرّ السلاسل والأغلال وتكليف أشق الأعمال في النار.

وقوله تعالى: ﴿تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ (٦) أي تدخل ناراً متناهية في الحرارة ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آٰبِيَةٍ﴾ (٧) أي بلغت غايتها في شدة الحر، ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ﴾ (٨) الضريع من جنس الشوك ترعاه الإبل ما دام رطباً، فإذا يبس تحامته، وهو سم قاتل. وعن ابن عباس أنه قال: هو الشبرق، وقال قتادة: هو شر الطعام وأبشعه. اهـ. والمقصود أنه طعام المعذبين، نسأل الله السلامة.

وفي سورة الحاقة قال تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلِينَ﴾ (٩) [الحاقة: ٣٦] فلا تنافي بينهما، لأن العذاب أنواع، والمعذبون طبقات، فمنهم أكلة الزقوم، ومنهم أكلة الغسلين، ومنهم أكلة الضريع ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ (١٠) أي لا يخصب البدن ولا يندفع به الجوع، وقيل: إنه لما نزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ﴾ (١١) قال المشركون: إن إبلنا لتسمن بالضريع، فنزل قوله تعالى: ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ (١٢) أي الضريع، رداً عليهم لأنهم قد كذبوا، فإن الإبل إنما تأكله رطباً، فإذا يبس تعافه ولا تأكله.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ (١٣) قال: الساعة ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ (١٤) ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ (١٥) قال: تعمل وتنصب في النار ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آٰبِيَةٍ﴾ (١٦) قال: هي التي قد طال أنيها ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ

إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ﴿١١﴾ قال: الشبرق^(١).

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَدَيْيَةِ ﴿١١﴾﴾ قال: حديث الساعة ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ﴿١٢﴾﴾ قال: ذليلة في النار ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿١٣﴾﴾ قال: تكبرت في الدنيا عن طاعة الله فأعملها وأنصبها في النار ﴿تُشَقَّقُ مِنْ عَيْنِ عَائِيَةٍ ﴿١٤﴾﴾ قال: إناء طبخها منذ خلق الله السموات والأرض ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ﴿١٥﴾﴾ قال: الشبرق شر الطعام وأبشعه وأخبثه. انتهى.

وبعد بيان حال المكذبين وعذابهم وشقاءهم ذكر الله تعالى نعيم المؤمنين، فقال تعالى: ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾﴾ وهي وجوه المؤمنين يوم القيامة نضرة ذات حسن وبهجة وسرور بما أعطاه الله تعالى من الثواب الجزيل، وقد علم المؤمنون بهذا المصير السعيد وهم في قبورهم، لأن المؤمن يُفْتَحُ له باب إلى الجنة وهو في قبره، فيأتيه من روحها ونعيمها، كما في الحديث، فتلك الوجوه ناعمة. بما تفضل الله عليها من النعيم ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ أي لعملها الذي عملته في الدنيا، لأنها وصلت به إلى هذا النعيم بمشيئة الله تعالى، وكانت هذه الوجوه قد جدت وثابتت في طريق البر والفضائل، وصبرت على طاعة الله، وعن معاصيه، وعلى أقداره المؤلمة، فنالت ما وعداها الله تعالى، وعند الصباح يحمد القوم السرى.

وقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٦﴾﴾ أي رقيقة بهية وهم في الغرفات آمنون روى مسلم عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «إن في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض...» الحديث.

والجنة دار النعيم أعدها الله تعالى لأوليائه في الدار الآخرة، والآيات والأحاديث التي تحدثت عن نعيم أهل الجنة كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله ﻻ»: «أعددت

(١) الشبرق - بكسر الشين وإسكان الباء بعدها راء مكسورة -: وهو نبت ذو شوك، تأكله الإبل رطباً، فإذا يبس يقال له: ضريع ويصير سماً قاتلاً، فتعافه الإبل ولا تأكله.

لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر،
واقروا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [رواه البخاري
ومسلم].

عن أسامة بن زيد أنه: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل من مشمر للجنة،
وإن الجنة لا خطر لها وهي ورب الكعبة نورٌ تلاًلاً، وريحانةٌ تهتزُّ، وقصرٌ
مشيدٌ، ونهرٌ مطردٌ، وثمرَةٌ نضيجةٌ، وزوجةٌ حسناء جميلةٌ، وحلٌّ كثيرةٌ، ومقامٌ
في أبدٍ في دار سليمةٍ، وفاكهةٌ وخضرةٌ، وحبرةٌ ونعمةٌ في محلَّةٍ عاليةٍ بهيةٍ»
قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها، قال: «قولوا: إن شاء الله»،
فقال القوم: إن شاء الله^(١).

وقوله تعالى: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَفِيَةً﴾ أي لا تسمع أيها السعيد الفائز
بدار النعيم فيها كلمة لغو أو نفساً تلغو، لأن أهل الجنة كلامهم فيها التسييح
والتحميد والحكمة، يُلهمون التسييح كما يلهمون النفس، وهي دار خالية من
كل ما يكدر، فيها النعيم الكامل والسعادة الدائمة ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا
﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦] وقوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ
﴿١٢﴾ أَي لَا انْقِطَاعَ لَهَا ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ أي مرتفعة، ليروا إذا جلسوا
عليها جميع ما وهبهم الله تعالى من الملك والنعيم الدائم في الجنة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ أي وفيها أقداح ليست لها عراً،
وضعت بين أيديهم ليشربوا بها ما لذ من الشراب، ﴿وَنَمَارِقُ﴾ أي وسائد
﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ أي بعضها إلى جانب بعض فوق الأسرة للاستناد إليها ﴿وَزُرَّاقٌ﴾
أي بسط ﴿مَبْتُوثَةٌ﴾ أي مفروشة هنا وهناك ومبسوطة.

ومما يجب أن يُعلم أن ما ذكر من النمارق والأكواب والسرر والزرابي
لا يشبه ما نعرفه منها في الدنيا، كما في الحديث القدسي المتفق عليه عن أبي
هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله ﷻ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا

(١) قال في شرح السنة: أخرجه ابن ماجة (٤٣٣٢)، وابن حبان (٢٦٢٠) في الزهد، باب
صفة الجنة. وقال: الضحاك المغافري لم يوثقه غير ابن حبان، وشيخه سليمان بن
موسى الأموي الدمشقي مختلف فيه.

عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقروا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ
نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

وكما قال ابن عباس رضي الله عنه: ليس في الآخرة مما في الدنيا إلا الأسماء فقط. اهـ. فالأسماء واحدة ولكن الحقائق مختلفة، فنسأل الله تعالى الجنة ونعيمها بفضله ورحمته إنه جواد كريم.



﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿١٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿١٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿١٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿١٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿١٦﴾﴾.

بعد بيان جانب من أهوال يوم القيامة، وانقسام الناس إلى أشقياء تعلق وجوههم علائم الذلة والمهانة، وسعداء تُشاهد على وجوههم علامات الترف والنعيم، وبيان جزاء كل فريق، أخذت الآيات تقيم الحجة على منكري ذلك، إذ إن إنكارهم هذا يستلزم إنكارهم البعث والإعادة والجزاء، فلفت أنظارهم إلى ما هو نصب أعينهم من دلائل قدرة الله تعالى، وخص منها أربعة أشياء، لأنها مألوفة لديهم، ونصب أعينهم في كل حين، وهي: الإبل، لأنها لصيقة بحياتهم إذ ذاك، حيث ينتفعون بها في الحل والترحال، ويأكلون لحومها، ويشربون ألبانها، ويلبسون من أوبارها، والسماء التي تظلمهم، والأرض التي تقلهم، والجبال وما فيها من المنافع والمعادن.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾﴾ أي أينكرون البعث والحساب، والثواب والعقاب وما أعد الله تعالى للمؤمنين من النعيم في جنة الخلد، وما أعده للكافرين من العذاب في النار، أفلا ينظرون نظر اعتبار وتدبر إلى الإبل التي هي نصب أعينهم كيف خلقها الله ﷻ بهذا الجسم الكبير

(١) ﴿إِيَابَهُمْ﴾ قرأ أبو جعفر بتشديد الياء وقرأ الباقون بتخفيفها.

الذي يتحمل المشاق، كيف أن البعير يقطع المسافات الطويلة بالحمل الثقيل، ويأكل ما يجد من نبات البراري، ويصبر على العطش عشرة أيام فأكثر، وتُحَمَّل الإبل بالأثقال وهي باركة ثم تنهض بها، لما وهبها الله تعالى من القوة، وذلك لمنفعة الإنسان لأنه لا يستطيع تحميلها وهي واقفة لارتفاعها، والإبل تنقاد للضعيف ولو كانت قافلة، والإبل تتأثر بالصوت الحسن، كما في خبر «رفقا بالقوارير»، وهي أنفس أموال العرب وأكثر الحيوانات نفعاً للناس، وفيها من المزايا وعجيب خلق الله تعالى ما لم يُعلم حتى الآن، وإليك ما قاله الاختصاصيون في هذا الشأن.

قالوا: في خلق الإبل آيات معجزات دالة على قدرة الله ليتدبر في ذلك المتدبرون. فمن المعروف أن من صفاتها الظاهرة ما يمكنها من أن تكون سفن الصحراء بحق، فالعينان ترتفعان فوق الرأس وترتدان إلى الخلف فضلاً عن طبقتين من الأهداب تقيانها الرمال والقذى؛ وكذلك المنخران والأذنان يكتنفهما الشعر للعرض نفسه. فإذا ما هبت العواصف الرملية انقل المنخران، وانثنت الأذن - على صغرها وقلة بروزها - نحو الجسم. أما القوائم فطوال تساعد على سرعة الحركة، مع ما يناسب ذلك من طول العنق، وأما الأقدام فمنبسطة في صورة خفاف تمكن الإبل من السير فوق الرمال الناعمة؛ وللجمل لكل تحت صدره ووسائد قرنية على مفاصل أرجله تمكنه من الرقود فوق الأرض الخشنة الساخنة، كما أن على جانبي ذيله الطويل شعراً يحمي الأجزاء الخلفية الرقيقة من الأذى.

أما مواهب الجمل الوظيفية فأبلغ وأبدع، فهو في الشتاء لا يطلب الماء، بل قد يعرض عنه شهرين متتاليين إذا كان الغذاء غزاً رطباً أو أسبوعين إن كان جافاً. كما أنه قد يتحمل العطش الكامل في قيظ الصيف أسبوعاً أو أسبوعين، يفقد في أثنائهما أكثر من ثلث وزن جسمه، فإذا ما وجد الماء تجرع منه كمية هائلة يستعيد بها وزنه المعتاد في دقائق معدودات. والجمل لا يخزن الماء في كرشه كما كان يظن. بل إنه يحتفظ به في أنسجة جسمه ويقتصد في استهلاكه غاية الاقتصاد، فمن ذلك أنه لا يلهث أبداً ولا يتنفس من فمه ولا يصدر من جلده إلا أدنى العرق، وذلك لأن حرارة جسمه تكون

شديدة الانخفاض في الصباح المبكر؛ ثم تأخذ في الارتفاع التدريجي أكثر من ست درجات قبل أن تدعو الحاجة إلى تلطيفها بالعرق والتبخر، وعلى الرغم من كمية الماء الهائلة التي يفقدها الجسم بعد العطش الطويل فإن كثافة دمه لا تتأثر إلا في أدنى الحدود ومن ثم لا يقضي العطش عليه. وقد ثبت أن دهن السنام مخزن للطاقة يكفيه غوائل الجوع، ولكنه لا يفيد كثيراً في تدبير الماء اللازم لجسمه.

وما زال العلماء يجدون في الجمل كلما بحثوا مصداقاً لحض الله تعالى لهم على النظر في خلقه المعجز. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَالِى السَّمَاءِ﴾ أي أفلا ينظرون أيضاً إلى السماء التي يشاهدونها دائماً ليل نهار ﴿كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ أي بما فيها من الكواكب رفعت هذا الرفع العظيم بدون عمد، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢] وكواكبها تسير بنظام دقيق لا يتغير وقد أمسك كل منها مداره.

وقوله تعالى: ﴿وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أي أفلا ينظرون أيضاً إلى الجبال كيف أقيمت منتصبة ثابتة لا تتحرك حفاظاً على الأرض من الميدان.

وقوله تعالى: ﴿وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي أفلا ينظرون أيضاً إلى الأرض كيف بسطت ومهدت بحيث يستقر عليها كل شيء.

والخلاصة أن الله تعالى أمرهم أن ينظروا نظر اعتبار في كيفية خلق هذه المخلوقات المشاهدة لهم والذالة على وحدانية الله تعالى وقدرته التامة على إعادتهم أحياء بعد الموت، فيسمعوا ويطيعوا ويؤمنوا.

قال أبو سليمان الخطابي رحمته الله: ذكر الله تعالى هذه الأربعة: الإبل والسماء والأرض والجبال، وخصها بالذكر من بين سائر الأشياء لأن الأعرابي إذا ركب بعيه وخرج إلى البرية، فلا يرى إلا بعيه الذي هو راحبه والسماء التي فوقه والأرض التي تحته والجبال التي هي نصب عينه. اهـ.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال: لما نعت الله ما في الجنة عجب من ذلك أهل الضلالة، فأنزل الله ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى

الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾ وكانت الإبل عيشاً من عيش العرب وخولاً من خولهم ﴿وَالِىَ السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٨﴾ وَالِىَ الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٩﴾ قال: تصعد إلى الجبل الصخور عامة يومك، فإذا أفضت إلى أعلاه أفضت إلى عيون منفجرة وأثمار متهدلة لم تغرسه الأيدي ولم تعمله الناس نعمة من الله إلى أجل ﴿وَالِىَ الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿١٠﴾ أي بسطت يقول: إن الذي خلق هذا قادر على أن يخلق في الجنة ما أراد. اهـ.

وبعد أن بيّن الله تعالى من آياته هذه الآيات الأربع: الإبل والسماء والجبال والأرض، وأن لو نظر فيها أولئك نظر اعتبار لاهتدوا إلى الحق، وعرفوا أن الخالق لكل شيء لا يعجزه بعث عباده وجزاؤهم، أمر رسوله محمد ﷺ بتذكير الناس ودعوتهم إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأخبره الله تعالى أن مهمته التبليغ والوعظ والتذكير، وسوق الحجج، أما الهداية فبيد الله تعالى، فقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١١﴾ أي فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم، ولا تذهب نفسك حسرات عليهم أن لا يؤمنوا، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِن عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿١٢﴾ أي ما أنت بمتسلط تقهرهم على الإيمان، إنما السلطان والسيطرة لله تعالى، كما قال تعالى ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدٍ﴾ [ق: ٤٥] وقال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿١٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿١٤﴾ الاستثناء منقطع، أي لكن من أعرض عن الإيمان، واستكبر ولم يقبل الحق الذي جاء به الرسول ﷺ فيعذبه الله العذاب الذي ليس فوقه عذاب، وقيل: إن العذاب الأصغر ما نالهم في الدنيا من الجوع والقحط والقتل والأسر، وكل ذلك عذاب أصغر إذا قيس بعذاب الآخرة. فلذلك قال ﴿الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ﴾ لأن قبله عذاب أصغر، والله أعلم، وقوله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿١٥﴾ أي رجوعهم ومعادهم بالموت والبعث إلينا وحدنا لا لغيرنا ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿١٦﴾ أي نحن نحاسبهم على أعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وفي الآية وعد

للمؤمنين ووعيد للكافرين، لأن الله تعالى سيجازي كلاً بعمله، ولا يظلم ربك أحداً، فما أسعد الأتقياء، وما أتعس الأشقياء، فنسأل الله تعالى الحساب اليسير، ونعوذ به من الحساب العسير، وأذكر نفسي وإخواني المسلمين بالدعاء النبوي الشريف الذي يستحب أن يقال عند النوم وهو قوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من كرب يوم القيامة ومن سوء الحساب»^(١).

أخرج النسائي عن جابر قال: صلى معاذ صلاة، فجاء رجل فصلى معه فطوّل، فصلّى في ناحية المسجد ثم انصرف، فبلغ ذلك معاذاً فقال: منافق، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله جئت أصلي فطوّل عليّ، فانصرفت فصليت في ناحية المسجد فعلفت ناضحي، فقال رسول الله ﷺ: «أفتان أنت يا معاذ؟ أين أنت من ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾، ﴿وَالنَّجْمِ﴾».

(١) تقدم.

سُورَةُ الْفَجْرِ

مكية وآياتها ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ﴾ ١ ﴿وَلَيْلٍ عَشِيرٍ﴾ ٢ ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ ٣ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ﴾ ٤ ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَبْرِ﴾ ٥ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ ٦ ﴿إِذْ دَاوَتْ الْعِجَادِ﴾ ٧ ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ ٨ ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ ٩ ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ﴾ ١٠ ﴿الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ ١١ ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ ١٢ ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ ١٣ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ﴾ ١٤ ﴿

بدأت هذه السورة بإقسامات تناولت بعض الظواهر المشاهدة على أن الكفار سيعذبون كما عذب غيرهم من الأمم السابقة المكذبة لرسول الله تعالى، كقوم عاد وثمود وقوم فرعون، وبينت سنن الله تعالى في ابتلاء العباد بالخير والشر، وأن عطاءه أو إمساكه لا يدل على رضاه أو سخطه كما يظن المشركون أن ما هم فيه من كثرة الحطام علامة إلى إكرامهم، وأن ما فيه المؤمنون من الخصاصة علامة على إهانتهم، لا ليس الأمر كذلك، لأن الله تعالى يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، أما الآخرة وما فيها من النعيم فلا يعطيها إلا لمن أحب، وبينت شح الكافرين وحرصهم الشديد على

(١) ﴿وَالْوَتْرِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بكسر الواو وقرأ الباقون بفتحها.

(٢) ﴿يَسَّرَ﴾ أثبت ياءه وصلاً نافع وأبو جعفر والبصري، وأثبتها في الحالين ابن كثير المكي ويعقوب، وحذفها الباقون مطلقاً.

(٣) ﴿بِالْوَادِ﴾ أثبت الياء وصلاً ورش، وفي الحالين البزي ويعقوب، أما قنبل فأثبتها وصلاً وزوي عنه الوجهان وقفناً، وحذفها الباقون مطلقاً.

الحطام الفاني، ثم حُتمت السورة ببيان انقسام الناس يوم القيامة إلى قسمين: أشقياء يتمنون أن لو قدموا من الصالحات ما ينجيهم عندما عاينوا أهوال يوم القيامة، وسعداء نفوسهم مطمئنة فرحة مسرورة بما قدمت من أعمال صالحة، حيث تُدعى كل نفس منهم إلى دخول الجنة في زمرة عباد الله الصالحين.

قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١١ وَيَالِ عَشْرِ ۝١٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝١٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝١٤﴾ في هذه الآيات أقسم الله تعالى بخمسة أشياء هي: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١١﴾ وهو ضوء الصباح عند مطارده ظلمة الليل، ويترتب على طلوع الفجر أحكاماً شرعية مهمة، مثل؛ إمساك الصائم، ودخول وقت صلاة الصبح، وبعده ينتهي الليل ويبدأ النهار الذي تنتشر فيه المخلوقات لطلب الرزق؛ وقوله تعالى: ﴿وَيَالِ عَشْرِ ۝١٢﴾ قيل: هي عشر ذي الحجة، لأنها أيام الاهتمام بنسك الحج، وروى البخاري مرفوعاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء».

وقيل: المراد بها العشر الأواخر من رمضان، أي لياليها، لأن فيها ليلة القدر كما قال تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝١٧﴾ [القدر: ٣] وصح عن النبي ﷺ أنه كان إذا دخل العشر الأخيرة من رمضان شدَّ مؤزره وأحيا ليله وأيقظ أهله. وأياً كانت، فهي عشر مفضلة عند الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝١٣﴾ الشفع: هو الزوج من كل شيء، والوتر: هو الفرد من كل شيء. وقيل: المراد بالشفع هنا هو كل الخلق لقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] ومن ذلك السماء والأرض، والبر والبحر، والجن والإنس، والشمس والقمر، والمراد بالوتر الله ﷻ كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحد، مَنْ أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر» والقسم هنا يشمل كل شيء من شفع ووتر، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ﴾ أي والليل إذا ذهب وانقضى كقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ﴾ [المدرثر: ٣٣]، وكقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾ [التكوير: ١٧] والسُّرَى: هو السير في الليل، والليل دائب في السريان، وفي تعاقب الليل والنهار نعم عظيمة لا حصر لها، فالتقيد بذلك لما في التعاقب من قوة الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة، وكم في الليل من النعم الدينية والدنيوية، ففيه صلاة المغرب والعشاء، وصلاة التهجد وصلاة الوتر وغير ذلك، وإجابة الدعاء كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثَلَاثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟».

وفي الليل راحة الأبدان بالنوم، وغير ذلك، فأقسم الله تعالى به من جملة ما أقسم به من آيات الدلالة على قدرته التامة ﷻ، والله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، أما نحن فليس لنا أن نقسم بغير الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ﴾ أي فيما ذكر ﴿قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ لذي عقل، والمعنى: أليس في هذا الذي أقسمنا به ما يقنع مَنْ له عقل! والاستفهام تقريرى لفخامة شأن الأمور المقسم بها، وجواب القسم محذوف تقديره: لِيُبَعِّثَنَّ، يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [١] إِمْرَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الاستفهام تقريرى، والمخاطب النبي ﷺ، وهو مقتضى التعريض بالمشركين ليعتبروا بما حلّ بقوم عاد، وفيه وعد للنبي ﷺ بنصره وظهور الإسلام والرؤية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قلبية أو علمية بمعنى: ألم ينته إلى علمك فعل ربك بعاد وغيرهم ممن ذكر.

وعاد قبيلة معروفة في جنوب جزيرة العرب، أرسل الله تعالى إليهم هوداً عليه السلام، فبلغهم الرسالة، ولكنهم كذبوا وتكبروا، وقالوا: من أشد منا قوة، فأهلكهم الله، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنَّهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِبَابِنَا يَمْجِدُونَ﴾ [١٥] فَاسْأَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابَ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾ [فصلت: ١٥،

[١٦] فسلط الله عليهم الريح العقيم، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، وقد كان في أجسامهم شدة وقوة وطول، ولهم أبنية رفيعة، فلم يحمدوا الله تعالى على ذلك وغيره من النعم، ولم يقبلوا رسالته فيؤمنوا ويصدقوا، بل كفروا وكذبوا، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وما قصَّ الله تعالى علينا هذا وغيره إلا للاعتبار من زمن التنزيل إلى يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾ أي في العظم والبطش والأيدي قيل: كانوا أشد الناس في زمانهم وأقواهم بطشاً، لقد ذكّره الله تعالى بذلك على لسان نبيهم هود عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا ءَالَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

وورد في ذكر ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾﴾ عجائب وأقوال كثيرة، سأورد فيها قول إمامين من أئمة الإسلام هما ابن كثير وابن خلدون رحمهما الله.

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٤/٥٠٧، ٥٠٨): ومن زعم أن المراد بقوله: ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾﴾ مدينة إما دمشق أو إسكندرية، ففيه نظر. فإنه كيف يلتئم الكلام على هذا، إن جعل ﴿إِرمَ﴾ بدلاً أو عطف بيان؟ فإنه لا يتسق الكلام حينئذ. ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعباد، وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يرد، لا أن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم.

قال: وإنما نبهت على ذلك لئلا يغتر بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية، من ذكر مدينة يقال لها: ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾﴾، مبنية بلبن الذهب والفضة... إلخ. فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين، من وضع بعض زنادقتهم ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس؛ إن صدقهم في جميع ذلك. وحكاية عبد الله بن قلابة الأعرابي ليس يصح إسنادها ولو صح إلى ذلك الأعرابي، فقد يكون اختلق ذلك، أو أنه أصابه نوع من الهوس والخبال، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج، وليس كذلك. وهذا مما يقطع

بعدم صحته . وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتخيلين ، من وجود مطالب تحت الأرض ، فيها قناطر الذهب والفضة وألوان الجواهر واليواقيت واللالئ والإكسير الكبير . لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها . فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء . فيأكلونها بالباطل في صرفها في بخاخير وعقاقير ، ونحو ذلك من الهذيانات ، ويطنزون بهم . والله ﷻ الهادي للصواب . انتهى .

وقال ابن خلدون في مقدمة^(١) تاريخه في سياق الأخبار الواهية للمؤرخين ما مثاله وأبعد من ذلك ما يتناقله المفسرون في سورة الفجر ، في قوله تعالى : ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ فيجعلون لفظه ﴿إِرمَ﴾ اسماً لمدينة وصفت بأنها ذات عماد ، أي أساطين ، وينقلون أنه كان لعاد بن عوص بن إرم ابنان ، هما شديد وشداد ، ملكا من بعده ، وهلك شديد فخلص الملك لشداد ، ودانت له ملوكهم وسمع وصف الجنة فقال : لأبيننَّ مثلها . فبنى مدينة (إرم) في صحاري عدن في مدة ثلاثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة ، وأنها مدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من الزبرجد والياقوت ، وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة . ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته . حتى إذا كان منها على مسيرة يوم وليلة ، بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم . ذكر ذلك الطبري والثعالبي والزمخشري وغيرهم من المفسرين .

وينقلون عن عبد الله بن قلابة ، من الصحابة ، أنه خرج في طلب إبل له فوقع عليها وحمل منها ما قدر عليه . وبلغ خبره إلى معاوية فأحضره وقص عليه . فبحث عن كعب الأحبار وسأله عن ذلك فقال : هي ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج في طلب إبل له . ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال : هذا ، والله ، ذاك الرجل .

قال ابن خلدون أيضاً : وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في

(١) مقدمة ابن خلدون (٢٣) .

شيء من بقاع الأرض. وصحاري عدن التي زعموا أنها بنيت فيها هي في وسط اليمن وما زال عمرانه متعاقباً. والأدلاء تقص طرقه من كل وجه. ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ولا ذكرها أحد من الأخباريين ولا من الأمم، ولو قالوا: إنها درست فيما درس من الآثار لكان أشبه، إلا أن ظاهر كلامهم أنها موجودة. وبعضهم يقول: إنها دمشق، بناء على أن قوم عاد ملكوها. وقد انتهى الهذيان ببعضهم إلى أنها غائبة، وإنما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر. مزاعم كلها أشبه بالخرافات. والذي حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الإعراب في لفظة ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ أنها صفة ﴿إِرمَ﴾ وحملوا العماد على الأساطين، فتعين أن يكون بناء. وشرح لهم ذلك قراءة ابن الزبير (عاد إرم) على الإضافة من غير تنوين. ثم وقفوا على تلك الحكايات التي هي أشبه بالأقاصيص الموضوعة التي هي أقرب إلى الكذب المنقولة في عداد المضحكات. وإلا فالعماد هي عماد الأخبية بل الخيام. وإن أريد بها الأساطين، فلا بدع في وصفهم بأنهم أهل بناء وأساطين على العموم، بما اشتهر من قوتهم، لا أنه بناء خاص في مدينة معينة أو غيرها. وإن أضيفت كما في قراءة ابن الزبير، على إضافة الفصيصة إلى القبيلة، كما تقول: قرش كنانة وإلياس مضر، وربيعة نزار. وأي ضرورة إلى هذا المحمل البعيد الذي تمحلت لتوجيهه لأمثال هذه الحكايات الواهية التي ينزه كتاب الله عن مثلها لبعدها عن الصحة؟. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَتَمُودٌ﴾ وهم أصحاب الحجر قوم صالح عليه السلام، وبلادهم تسمى مدائن صالح شمال المدينة النبوية، ولقد مرَّ عليها النبي صلى الله عليه وآله في طريقه إلى تبوك وأسرع وفتح رأسه صلى الله عليه وآله وقال: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم» [رواه البخاري].

﴿الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ﴾ أي قصعوا الصخر من الجبال، واتخذوا فيها بيوتاً بوادي القرى، والمعنى: أي وذكّر أيضاً بعذاب الله تعالى الذي حلّ بشمود قوم صالح عليه السلام الذين قطعوا الصخور وأخذوا من الجبال بيوتاً نحتوها، حيث أقدرهم الله تعالى على ذلك ليشكروا نعمه ويؤمنوا به وبرسوله فيوحدوا الله تعالى ويتركوا الأوثان، ولكنهم أعرضوا عن الهدى الذي جاءهم

من ربهم، وأنكروا على نبيهم دعوتهم إلى توحيد الله تعالى ونبذ الأوثان، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا نَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاصِقَةٌ مِنَ الْعَذَابِ أَلْهَمُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَصْلِحْ فَذَكَّرْنَا فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنهَلَسْنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَىٰ مَرْيَبٍ ﴿١٢﴾﴾ [هود: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَاتِ اللَّهِ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف: ٧٤]، وقصصهم كثير في القرآن للاعتبار وغيرهم من الأمم السابقة المكذبة لرسول الله تعالى كذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٦﴾﴾ هو الطاغية الكافر المدعي ما ليس له، والذي أرسل الله تعالى إليه موسى ﷺ، وكان قد استذل بني إسرائيل في مصر يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، وسبب فعله القبيح هذا أن كهنته قالوا له: إنه سيولد في بني إسرائيل رجل يكون هلاكك على يده، فصار يقتل كل مولود ذكر ويترك الإناث، أو أنه إنما فعل ذلك بقصد إضعاف بني إسرائيل لأن في قتل الرجال واستبقاء النساء إذلالاً لمن يفعل بهم ذلك وأياً كان السبب فقد أتى من حيث يحذر إذ جعل الله هلاكه على يد رجل تربى في بيته.

وقد كان فرعون قد تجاوز الحد في الطغيان والفساد حتى إنه تجرأ على ما ليس له ولا لأحد من الخلق، فقال لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤] وقال لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٣٨] ونهاهم عن اتباع موسى ﷺ فقال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف: ٥٦] ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف: ٥٥] فأهلكه الله تعالى بالغرق في المياه التي كان يدعي ملكها وأنها تجري من تحته كما قال الله تعالى حكاية عنه قوله لقومه: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف: ٥١] فأهلكه الله تعالى بالغرق.

ومعنى ﴿ذِي الْأَوْتَادِ﴾ أي ذي القوة، لأنه صاحب جند وجيوش وجموع

تشدّ ملكه، أو هي أوتاد يشدّ بها مَنْ يعذبه، ونورد فيها هذا الأثر عن ابن عباس: إن فرعون إنما سُمّي ذا الأوتاد لأنه كانت له امرأة، وهي امرأة خازنة خزقيل، وكان مؤمناً كتم إيمانه مائة سنة، وكانت امرأته ماشطة بنت فرعون فبينما هي ذات يوم تمشط رأس بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها، فقالت: تعس مَنْ كفر بالله، فقالت بنت فرعون: وهل لك من إله غير أبي؟ فقالت: إلهي وإله أبيك وإله السماوات والأرض واحد لا شريك له، فقامت فدخلت على أبيها وهي تبكي، فقال: ما يُبكيك؟ قالت: الماشطة امرأة خازنك تزعم أن إلهك وإلهها وإله السماوات والأرض واحد لا شريك له، فأرسل إليها فسألها عن ذلك، فقالت: صدقت، فقال لها: ويحك اكفري بإلهك وأقرّي بأني إلهك، قالت: لا أفعل فمدها بين أربعة أوتاد ثم أرسل عليها الحيات والعقارب، وقال لها: اكفري بالله وإلا عذبتك بهذا العذاب شهرين، فقالت له: ولو عذبتني سبعين شهراً ما كفرت بالله، وكان لها ابنتان فجاء بابنتها الكبرى فذبحها على قلبها، وقال لها: اكفري بالله وإلا ذبحت الصغرى على فيك، وكانت رضيعاً، فقالت: لو ذبحت مَنْ على وجه الأرض على فيّ ما كفرت بالله ﷻ، فأتى بابنتها الصغرى فلما اضطجعت على صدرها وأرادوا ذبحها جزعت المرأة فأطلق الله لسان ابنتها فتكلمت وهي من الأربعة الذين تكلموا أطفالاً، فقالت: يا أمّاه لا تجزعي فإن الله قد بنى لك بيتاً في الجنة، اصبري فإنك تفضين إلى رحمة الله وكرامته، فذبحت فلم تلبث أن ماتت فأسكنها الله الجنة.

قال: وبعث في طلب زوجها خزقيل فلم يقدروا عليه، فقيل لفرعون: إنه قد رُوي في موضع كذا في جبل كذا، فبعث رجلين في طلبه فانتهيا إليه وهو يصليّ ويليه صفوف من الوحش خلفه يصلّون، فلما رأيا ذلك انصرفا، فقال خزقيل: اللهم إنك تعلم أنني كتمت إيماني مائة سنة ولم يظهر على أحد فأَيما هذان الرجلين كتم عليّ فاهده إلى دينك وأعطه من الدنيا سؤله، وأيما هذين الرجلين أظهر عليّ فعجل عقوبته في الدنيا واجعل مصيره في الآخرة إلى النار، فانصرف الرجلان إلى فرعون فأما أحدهما فاعتبر وآمن، وأما الآخر فأخبر فرعون بالقصة على رؤوس الملأ، فقال له فرعون: وهل كان معك

غيرك؟ قال: نعم فلان، فدعا به فقال: أحق ما يقول هذا؟ قال: لا ما رأيت مما قال شيئاً فأعطاه فرعون وأجزل وأما الآخر فقتله، ثم صلبه، قال: وكان فرعون قد تزوج امرأة من نساء بني إسرائيل يقال لها: آسية بنت مزاحم فرأت ما صنع فرعون بالماشطة، فقالت: وكيف يسعني أن أصبر على ما يأتي فرعون وأنا مسلمة وهو كافر؟ فبينما هي كذلك تؤامر نفسها إذ دخل عليها فرعون فجلس قريباً منها، فقالت: يا فرعون أنت أشرّ الخلق وأخبثهم عمدت إلى الماشطة فقتلتها، قال: فلعلّ بك الجنون الذي كان بها قالت: ما بي من جنون، وإن إلهي وإلهك وإله السموات والأرض واحد لا شريك له، فمزق عليها ثيابها وضربها وأرسل إلى أبويها فدعاهما، فقال لهما: ألا تريان أن الجنون الذي كان بالماشطة أصابها، قالت: أعوذ بالله من ذلك إنني أشهد أن ربّي وربك وربّ السموات والأرض واحد لا شريك له، فقال أبوها: يا آسية ألسيت من خير نساء العماليق وزوجك إله العماليق؟ قالت: أعوذ بالله من ذلك، إن كان ما يقول حقاً فقولا له أن يتوّجني تاجاً تكون الشمس أمامه والقمر خلفه والكواكب حوله، فقال لهما فرعون: اخرجا عني، فمدّها بين أربعة أوتاد يعذبها ففتح الله لها باباً إلى الجنة ليهوّن عليها ما يصنع بها فرعون، فعند ذلك قالت: ﴿رَبِّ آبِنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحریم: ١١]، فقبض الله روحها وأسكنها الجنة. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ أي تجاوزوا الحد، واعتدوا على عباد الله تعالى وهم المذكورون عاد وثمود وفرعون ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ أي الشرك والمعاصي وسائر الآثام ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي أنزل الله عليهم عذابه، وأحلّ بهم نعمته بما طغوا في البلاد وأفسدوا فيها، وقد بينّ الله تعالى نوع عذاب وهلاك كلّ منهم مفصلاً في القرآن، وإجمالاً فقد أهلك عاد بالريح العقيم، وثمود بالصيحة، وفرعون وجنوده بالغرق، كما في قوله تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَنَنْهَيْتُهُمْ أَنْ يَرْكَبُوا السَّفِينَةَ فَآذَنُوا بِهَا وَإِنَّا أَخَذْنَا بِنُفُسِهِمْ فَنُفِخْنَا فِيهَا نَفَسًا وَعَاذُوا بِالنُّجُومِ وَمَا كَانُوا يَلْجِئُونَ إِلَيْهَا وَإِنَّا لَنَدَّبْنَاهَا نَفْثًا فَنَسْفَثْنَا فَبَدَّلَ الْأَرْضَ غَايِبَةً مُتْحَلِّتًا وَمَا كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ﴾ أي إنه يَتَّبَعُ رقيب على أعمال العباد، يحصيها عليهم ويجازيهم بها، قال ابن عباس: يعني بحيث يرى ويسمع ويبصر ما تقول وتفعل وتهجس به العباد. اهـ. ولفظ المرصاد يطلق على مكان يرصد فيه شيء معين يُستفاد من وراء معرفته، أو ليعرف ما يحدث عن كذب.

والحاصل أن الآيات تفيد أن الله تعالى لا يفوته شيء، ولا يخرج عن إرادته شيء، وأن أولئك الطغاة، وهم الثلاثة الذين ذُكروا: عاد وثمود والفراعنة كان الله لهم بالمرصاد، وأذاقهم أليم عذابه وشديد عقابه، ففي ذلك إنذار لكل ظالم طاغ متكبر، أنه سيحلّ به ما حلّ بهم من العذاب، وفيها تسلية للنبي ﷺ مما يواجهه من تكذيب قومه له، وأن العاقبة للمتقين.

أخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن مقاتل بن سليمان قال: أقسم الله ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ﴾ يعني الصراط، وذلك أن جسر جهنم عليه سبع قناطر على كل قنطرة مائة قيام وجوههم مثل الجمر، وأعينهم مثل البرق، يسألون الناس في أول قنطرة عن الإيمان، وفي الثانية يسألونهم عن الصلوات الخمس، وفي الثالثة يسألونهم عن الزكاة، وفي الرابعة يسألونهم عن شهر رمضان، وفي الخامسة يسألونهم على الحج، وفي السادسة يسألونهم عن العمرة، وفي السابعة يسألونهم عن المظالم فمن أتى بما سئل عنه كما أمر جاز على الصراط، وإلا حبس، فذلك قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ﴾.

ومن ثم يُفخّم الراء في ﴿لِبِالْمِرْصَادِ﴾ عند جميع القراء، لوجود حرف الاستعلاء (الصاد) بعد الراء الساكنة المسبوقة بكسر أصلي، إذ القاعدة في الراء أنها إذا سكنت بعد كسر أصلي تُرَقِّق، ولكن منع منه حرف الاستعلاء هنا لأنه معه في نفس الكلمة وغير مكسور.

قال الحافظ ابن الجزري رحمته الله في المقدمة:

ورقق الراء إذ ما كسرت كذاك بعد الكسر حيث سكنت
 إن لم تكن من قبل حرف استعلاء أو كانت الكسرة ليست أصلاً



﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ ﴿١﴾ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ الْيَتِيمَ ﴿٧﴾ وَلَا تَحْقُقُونَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ طَعَاوِ الْمَسْكِينِ ﴿٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ﴿٤﴾ الثَّرَاثَ أَكْثَلًا لَّمَّا ﴿٩﴾ وَتُحِبُّونَ ﴿٥﴾ أَلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝﴾ .

تقرر هذه الآيات أن ترادف النعم على إنسان من صحة وجاه ومال ليس دليلاً على رضا الله عنه، كما أن التضييق عليه في الرزق ليس دليلاً على سخط الله عليه، ولكن في ذلك اختبار للطرفين، حيث يبتلي من يشاء بالنعم ليشكر، ويبتلي من يشاء بالتضييق ليصبر، ثم زجر عن هذا الاعتقاد الباطل ودم فعالهم كما في الآيات .

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ أي اختبره بالغنى واليسار ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ أي فضلني بما وسع علي وأعطاني لما لي عنده من الكرامة ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ أي اختبره بالفقر وضيق عليه ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ أي أذلني بالفقر، وذلك لسوء فكره، وقصور نظره في الحالين، وكان الواجب على الإنسان أن يشكر على الخير ويصبر على الشر، لأن أحواله دائرة بينهما، وكله ابتلاء من الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٤]، فالمطلوب الشكر عند النعماء والصبر على البلاء، لتظهر فائدة الابتلاء شكراً أو صبراً، والشاكر والصابر كلاهما في الجنة .

(١) ﴿فَقَدَرَ﴾ قرأ ابن عامر، وأبو جعفر بتشديد الدال، وقرأ الباقون بتخفيفها . وهما لغتان بمعنى واحد وهو التضييق .

(٢) (٣) (٤) (٥) ﴿لَا تَكْفُرُونَ ... وَلَا تَحْقُقُونَ ... وَتَأْكُلُونَ ... وَتُحِبُّونَ﴾ : قرأ أبو عمرو، ويعقوب بخلفٍ عن روح بياء الغيب في الأفعال الأربعة حملاً على معنى الإنسان في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ﴾ لأن المراد به الجنس، وقرأ الباقون بتاء الخطاب في الجميع على الالتفات، وهو الوجه الثاني لروح .

﴿وَلَا تَحْقُقُونَ﴾ : قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف العاشر، بفتح الحاء وإثبات ألف بعدها، على حذف إحدى التاءين تخفيفاً، لأن الأصل (تتحاضون) . وقرأ الباقون بضم الحاء وحذف الألف التي بعدها مضارع «حض يحض» .

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ كلمة زجر وردع للقوم عن اعتقادهم الخاطئ في حاله، أي ليس الإكرام بالغنى والإهانة بالفقر كما يظنون، بل إن ذلك حسب مشيئة الله وتقديره، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَسُدُّ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّقُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبا: ٣٦ - ٣٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جُرُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ أي أنتم إذا أكرمكم الله تعالى بالمال لا تحسنون لمن يستحق، وهم جنس اليتامى، ومفرده: يتيم، وهو من مات أبوه قبل بلوغه، أي فقد كافلة ومربيه، فحينئذ يتحتم على المسلمين كفاله وتربيته وتأديبه، لئلا يصبح عضواً فاسداً في المجتمع يضر نفسه وغيره، وبذلك أمر الكتاب والسنة كما يلي:

قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِاللَّيْلِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ [الماعون: ١ - ٣].

وقال تعالى: ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضَعِيفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ٩].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿١﴾﴾ [الضحى: ٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتِيمِ ظُلْمًا إِنَّهَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتِيمِ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَتُوا الْيَتِيمَ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا الْحَيثُ بِالطَّبِيبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النساء: ٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَا أَفْنَحُمُ الْعَقْبَةَ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقْبَةُ ﴿٢﴾ فَكَ رَقَبَةٌ ﴿٣﴾ أَوْ إِبْطَعَةٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿٤﴾ بَيْنَمَا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿٥﴾﴾ [البلد: ١١ - ١٥].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من قبض يتيماً من بين

المسلمين إلى طعامه وشرابه، أدخله الله الجنة البتة، إلا أن يعمل ذنباً لا يُغفر»
رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

وروي عن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَالَ ثَلَاثَةَ مِنَ الْأَيْتَامِ كَانَ كَمَنْ قَامَ لَيْلَهُ، وَصَامَ نَهَارَهُ، وَغَدَا وَرَاحَ شَاهِراً سَيْفَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَكُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِي الْجَنَّةِ إِخْوَاناً كَمَا أَنَّ هَاتَيْنِ أُخْتَانِ» وَأَلْصَقَ إِصْبَعِيهِ السَّبَابَةَ وَالْوَسْطَى. رواه ابن ماجه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً شكى إلى النبي ﷺ قسوة في قلبه، فقال له: «امسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين» [رواه أحمد].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما. [رواه البخاري].

وروى الحاكم وصححه: «أربعة حق على الله أن لا يدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيمها: مدمن الخمر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم بغير حق، والعاق لوالديه».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» [رواه البخاري ومسلم].

وفي حديث المعراج: «فإذا أنا برجال قد وكل بهم رجال يفكّون لحاهم، وآخرون يجيئون بالصخور من النار، فيقذفونها في أفواههم، فتخرج من أدبارهم، فقلت: يا جبريل، مَنْ هؤلاء؟ قال: الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً» [رواه مسلم].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَخْضُبُوا عَلَىٰ طَعَامِ الْيَتَامَىٰ﴾ أي لا يحض بعضكم بعضاً عليه، وإذا كان كذلك فهو لا يفعله بنفسه، وفي ذم من لا يكرم اليتيم ولا يحض على طعام المسكين أمر بالإكرام والحض والفعل، ففي ذلك يتحقق التعاون على البر والتقوى، الذي هو أساس رقي الأمم، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

وقوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ﴾ أي الميراث ﴿أَكْثَلًا لَّمَّا﴾ أي أكثلاً شديداً، فيأخذ نصيبه ونصيب غيره، فقد كانوا في الجاهلية لا يورثون النساء والصبيان كما تقدم في سورة النساء مفصلاً. وقوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي كثيراً. مع شدة الحرص عليه.

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ ﴿وَجِئْتَنِي بِوَمِيذِينَ بِيْجَهَنَّمَ يَوْمِيذٍ يَبْدَأُ الْإِنْسَانَ وَإِنَّ لَهُ الذِّكْرَى﴾ ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَبَابِي﴾ ﴿فَيَوْمِيذٍ لَا يُعَذِّبُ (١) عَذَابُهُ أَحَدٌ وَلَا يُؤْتِي (٢) وَثَقَهُ أَحَدٌ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾.

قوله ﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر لهم عن أقوالهم وأفعالهم من أن النعمة كرامة، والفقر إهانة، والانهماك في جمع الحطام الفاني ومنع حقوق العباد في المال كاليتامى والمساكين وغيرهم، فهذا فعل من لا يرجو ثواب الله تعالى في الدار الآخرة وقصر همه على الدنيا، فكأن المعنى - والله أعلم - : حقاً إنهم غافلون عما يستقبلهم بعد الموت، ألا فتنبهوا واستعدوا فإن أمامكم أهوال عظيمة ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أي كُسرت الأرض ودُقت وفتت جبالها حتى تصير هباء منبثاً، وتسوى الأرض حتى تصير قاعاً صافصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً، وتمد كما يمد الأديم، فيكون الناس عليها في مكان واحد، يُسمعهم الداعي وينفذهم البصر، فيجب أن تتذكروا هذا اليوم، وتستعدوا له، فإنه يوم عظيم شديد الهول، يتقرر بعده مصير الإنسان من سعادة أو شقاء.

ثم أخذت الآيات تصف أحوال ذلك اليوم فقال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ لفصل القضاء بين العباد، مجيء يليق بجلاله وعظمته، نؤمن به بلا تكييف ولا تمثيل لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قال ابن عثيمين رحمته الله في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ هذا المجيء هو مجيئه ﷻ لأن الفعل أسند إلى الله، وكل فعل يسند إلى الله فهو قائم به لا

(١) (٢) ﴿لَا يُعَذِّبُ﴾، ﴿وَلَا يُؤْتِي﴾ قرأ الكسائي ويعقوب بفتح الذال والشاء وقرأ الباقون بكسرهما.

بغيره، هذه القاعدة في اللغة العربية، والقاعدة في أسماء الله وصفاته كل ما أسنده الله إلى نفسه فهو له نفسه لا لغيره، وعلى هذا فالذي يأتي هو الله ﷻ، وليس كما حرفه أهل التعطيل حيث قالوا: إنه جاء أمر الله، فإن هذا إخراج للكلام عن ظاهره بلا دليل، فنحن من عقيدتنا أن نجري كلام الله تعالى، ورسوله ﷺ على ظاهره وأن لا نحرف فيه. ونقول: إن الله تعالى يجيء يوم القيامة هو نفسه، ولكن كيف هذا المجيء؟ هذا هو الذي لا علم لنا به، لا ندري كيف يجيء؟ والسؤال عن مثل هذا بدعة كما قال الإمام مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حين سُئِلَ عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]. فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرخضاء - يعني العرق - لشدة هذا السؤال على قلبه، لأنه سؤال عظيم سؤال متنطع، سؤال متعنت أو مبتدع يريد السوء، ثم رفع رأسه وقال: (الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة)، الشاهد الكلمة الأخيرة - السؤال عنه بدعة -.

واعتبر هذا في جميع صفات الله فلو سألنا سائل قال: إن الله يقول: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدِي﴾ [ص: ٧٥]. يعني آدم، كيف خلقه بيده؟ نقول: هذا السؤال بدعة، قال: أنا أريد العلم ولا أحب أن يخفى علي شيء من صفات ربي فأريد أن أعلم كيف خلقه؟ نقول: نحن نسألك أسئلة سهلة هل أنت أحرص على العلم من الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ؟ إما أن يقول: نعم، وإما أن يقول: لا، والمتوقع أن يقول: لا. هل الذي وجهت إليه السؤال أعلم بكيفية صفات الله ﷻ أم الرسول عليه الصلاة والسلام؟ سيقول: الرسول، إذاً الصحابة أحرص منك على العلم والمسؤول الذي يوجه إليه السؤال أعلم من الذي تسأله ومع ذلك ما سألوا؛ لأنهم يلتزمون الأدب مع الله ﷻ، ويقولون بقلوبهم وربما بألسنتهم إن الله أجل وأعظم من أن تحيط أفهامنا وعقولنا بكيفيات صفاته، والله ﷻ يقول في كتابه في الأمور المعقولة: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]. وفي الأمور المحسوسة: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

فنقول: يا أخي إلزم الأدب، لا تسأل: كيف خلق الله آدم بيده؟ فإن هذا السؤال بدعة، وكذلك بقية الصفات لو سأل: كيف عين الله ﷻ؟ قلنا له: هذا

بدعة، لو سأل: كيف يد الله ﷻ، قلنا: هذا بدعة عليك أن تلزم الأدب، وأن لا تسأل عن كيفية صفات الله ﷻ. لما قال هنا في الآية الكريمة: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ وسأل: كيف يجيء؟ نقول: هذا بدعة - هذه القاعدة التزموها - وكل إنسان يسأل عن كيفية صفات الله فهو مبتدع متنطع، سائل عما لا يمكن الوصول إليه، فموقفنا من مثل هذه الآية ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أن نؤمن بأن الله يجيء لكن على أي كيفية؟ الله أعلم. والدليل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فنحن نعلم النفي ولا نعلم الإثبات، يعني نعلم أنه لا يمكن أن يأتي على كيفية إتيان البشر، ولكننا لا نثبت كيفيته، وهذا هو الواجب علينا. انتهى من «تفسير ابن عثيمين» جزء عم (٢٠٥).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: واعلم أن من المتأخرين من يقول: إن مذهب السلف إقرارها على ما جاءت به، مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد، وهذا لفظ مجمل. فإن قوله: (ظاهرها غير مراد) يحتمل أنه أراد بالظاهر نعوت المخلوقين وصفات المحدثين. مثل أن يراد بكون الله قَبْلَ وجه المصلي، أنه مستقر في الحائط الذي يصلي إليه، و(إن الله معنا) ظاهره أنه إلى جانبنا، ونحو ذلك. فلا شك أن هذا غير مراد، ومن قال: إن مذهب السلف أن هذا غير مراد، فقد أصاب في المعنى، لكن أخطأ في إطلاق القول بأن هذا ظاهر الآيات والأحاديث. فإن هذا المجال ليس هو الظاهر على ما قد بيناه في غير هذا الموضوع. اللهم إلا أن يكون هذا المعنى الممتنع صار يظهر لبعض الناس فيكون القائل لذلك مصيباً بهذا الاعتبار، معذوراً في هذا الإطلاق. فإن الظهور والبطون قد يختلف باختلاف أحوال الناس، وهو من الأمور النسبية. انتهى. من «مجموع الفتاوى» (١٠٨/٥).

وقد بسط رَحِمَهُ اللهُ الكلام على ذلك في «الرسالة المدنية»: وأوضح أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، يحتذى حذوه ويتبع فيه مثاله. فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات كيفية.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في بعض «فتاويه»^(١): نحن نقول بالمجاز الذي قام دليhle.

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/٤٨١ - ٤٨٥).

وبالتأويل الجاري على نهج السبيل . ولم يوجد في شيء من كلامنا وكلام أحد منا، أنا لا نقول بالمجاز والتأويل، والله عند لسان كل قائل، ولكن ننكر من ذلك ما خالف الحق والصواب، وما فتح به الباب، إلى هدم السنة والكتاب واللاحق بمحرفة أهل الكتاب. المنصوص عن الإمام أحمد وجمهور أصحابه؛ أن القرآن مشتمل على المجاز. ولم يعرف عن غيره من الأئمة نص في هذه المسألة. وقد ذهب طائفة من العلماء من أصحابه وغيرهم، كأبي بكر بن أبي داود، وأبي الحسن الخريزي، وأبي الفضل التميمي، وابن حامد فيما أظن وغيرهم، إلى إنكار أن يكون في القرآن مجاز. وإنما دعاهم إلى ذلك ما رأوه من تحريف المحرفين للقرآن بدعوى المجاز. فقابلوا الضلال والفساد، بحسم المواد، وخيار الأمور التوسط والاقتصاد. انتهى.

وقال ابن كثير رحمته الله: قام الخلائق من قبورهم لربهم، وجاء ربك لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعدما يستشفعون بسيد ولد آدم عليه السلام، فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً. اهـ^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ الملك اسم جنس والمراد به عموم الملائكة عليهم السلام، فتنزل الملائكة فيصطفون صفاً بعد صف، فيحيطون بالخلق في ساحات العرض والحساب.

ومما نُقل^(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الخلائق إذا جمعوا في صعيد واحد، الأولين والآخرين، أمر الجليل عليه السلام بملائكة سماء الدنيا أن يتولواهم، فيأخذ كل واحد منهم إنساناً وشخصاً من المبعوثين، إنساً وجناً ووحشاً وطيراً، وحولواهم إلى الأرض الثانية، أي التي تبدل، وهي أرض بيضاء من فضة نورانية، وصارت الملائكة من وراء الخلق حلقة واحدة، فإذا هم أكثر من أهل الأرض بعشر مرات، ثم إن الله تعالى يأمر ملائكة السماء الثانية، فيحذقون بهم حلقة واحدة، وإذا هم مثلهم عشرين مرة، ثم تنزل ملائكة السماء الثالثة، فيحذقون من وراء الكل حلقة واحدة، فإذا هم مثلهم ثلاثين

(١) تفسير ابن كثير رحمته الله (٤/٥٤٤ - ٥٤٥).

(٢) حاشية الصاوي رحمته الله (٤/٤٢٢).

ضعفًا، ثم تنزل ملائكة السماء الرابعة، فيحذقون من وراء الكل حلقة واحدة، فيكونون أكثر منهم بأربعين ضعفًا، ثم تنزل ملائكة السماء الخامسة، فيحذقون من ورائهم حلقة واحدة، فيكونون مثلهم خمسين مرة، ثم تنزل ملائكة السماء السادسة، فيحذقون من وراء الكل حلقة واحدة، وهم مثلهم ستين مرة، ثم تنزل ملائكة السماء السابعة، فيحذقون من وراء الكل حلقة واحدة، وهم مثلهم سبعين مرة، والخلق تتداخل وتندمج، حتى يعلو القدم ألف قدم لشدة الزحام، ويخوض الناس في العرق على أنواع مختلفة، إلى الأذقان وإلى الصدور وإلى الحقوين وإلى الركبتين، ومنهم من يصيبه الرشح اليسير كالقاعد في الحمام، ومنهم من تصيبه البلة، بكسر الموحدة وتشديد اللام، كالعاطش إذا شرب الماء، وكيف لا يكون القلق والعرق والأرق، وقد قربت الشمس من رؤوسهم، حتى لو مد أحدهم يده لنالها، وتضاعف حرها سبعين مرة، وقال بعض السلف: لو طلعت الشمس على الأرض كهيئتها يوم القيامة، لاحتقرت الأرض وذاب الصخر وانشقت الأنهار، فبينما الخلائق يمرجون في تلك الأرض البيضاء التي ذكرها الله حيث يقول: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ إذ جيء بجهنم... إلخ. ١٠٥.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَوْمَئِذٍ يَوْمَانِ يَبْهَتُونَ﴾ أي أحضرت جهنم وأبرزت ليراها الناس يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦]، وروى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها».

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذَكَرُ الْإِنْسَانُ﴾ تفريطه في الدنيا في طاعة الله تعالى وفيما يقرب إليه من صالح الأعمال ﴿وَأَنَّ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ أي وكيف تنفعه الذكرى وقد ذهب ميدان العمل، فيقول متحسراً كما أخبر الله تعالى عنه: ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [١٢] أي يقول ذلك نادماً متحسراً متمنياً لو أنه قدم عملاً صالحاً ينفعه في آخرته، إذ إن الحياة الحقيقية هي حياة الدار الآخرة كما قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَاةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] يعني حياة الدار الآخرة هي الحياة التامة.

وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ ﴿٢٥﴾ أي ليس أحد أشد عذاباً من تعذيب الله من عصاه ﴿وَلَا يُؤْتِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ ﴿٢٦﴾ أي ولا يقيد أحد كفيده.

والوثاق هو الشد والربط بالسلاسل والأغلال، وهذا هو حال أهل الشرك والكفر والإجرام، أما الذين آمنوا بالله ورسله واليوم الآخر وعملوا الصالحات وصفت نفوسهم واطمأنت، وعبدوا الله حتى أتاهم اليقين، فينادون بهذا النداء المحجب للنفوس: ﴿يَأْتِيَنَّهَا أَلْفُ الْمَطْمِئِنَّةِ﴾ ﴿٢٧﴾ أي المؤمنة الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن ﴿أَرْجِيْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ ﴿٢٨﴾ أي ارجعي إلى رضوان ربك راضية بما أعطاك الله من النعيم مرضية عند الله تعالى كما قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ ﴿٢٩﴾ أي في جملة عبادي الصالحين ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ ﴿٣٥﴾ أي معهم في دار النعيم المقيم، والإضافة للتشريف، وهذا القول إما عند الموت أو البعث أو دخول الجنة.

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم رضي الله عنه ﴿يَأْتِيَنَّهَا أَلْفُ الْمَطْمِئِنَّةِ﴾ ﴿٢٧﴾ الآية، قال: بشرت بالجنة عند الموت وعند البعث ويوم الجمع.

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني عن سعيد بن جبيرة رضي الله عنه قال: مات ابن عباس رضي الله عنه بالطائف، فجاء طير لم تر عين خلقتها، فدخل نعشه، ثم لم ير خارجاً منه، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لا يدي من تلاها ﴿يَأْتِيَنَّهَا أَلْفُ الْمَطْمِئِنَّةِ﴾ ﴿٢٧﴾ أَرْجِيْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَاَدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٥﴾.

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من طريق ثابت بن عجلان عن سليم بن أبي عامر رضي الله عنه قال: سمعت أبا بكر الصديق يقول: قرئت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿يَأْتِيَنَّهَا أَلْفُ الْمَطْمِئِنَّةِ﴾ ﴿٢٧﴾ أَرْجِيْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فقلت: ما أحسن هذا يا رسول الله، فقال: «يا أبا بكر أما إن الملك سيقولها لك عند الموت».

سُورَةُ الْبَلَدِ

مكية وآياتها عشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴿٦﴾ أَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهِهَ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُ رَقَبَةً ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ ﴿١٤﴾ بَيْنَمَا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَفْرَقَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْيَمِينَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾

هذه السورة تتضمن القسم على أن الإنسان في كبد، وأن المغرور يظن أن لن يقدر عليه أحد، ثم بيان بعض نعم الله تعالى على الإنسان، ثم دعوته لاقترحام العقبة وأنها إنما تقتحم بالأعمال الصالحة المتعدية النفع للغير، ثم بيان حال أصحاب اليمين وحال أصحاب المشأمة.

قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾: يقسم الله تعالى بمكة المكرمة تعظيماً لها وتشريفاً لأنها أفضل البلدان على الإطلاق خصوصاً وقت حلول الرسول ﷺ فيها. أو إشارة إلى تحليلها له يوم الفتح ساعة من نهار كما في الحديث الصحيح.

(١) ﴿لُبَدًا﴾ قرأ أبو جعفر بتشديد الباء وقرأ الباقون بتخفيفها.

وقوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ﴾ ﴿٣﴾ فيقصد به آدم وذريته.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ ﴿١﴾ هذا هو المقسم عليه، قد يحتمل أن المراد بذلك ما يكابده الإنسان ويقاسيه من الشدائد في الدنيا، وفي البرزخ، ويوم يقوم الأشهاد.

وعلى ذلك يجب على المسلم الحريص على سعادته أن يسعى في عمل يريحه من هذه الشدائد. ويوجب له الفرح والسرور الدائم بعد أن يرحل عن الدنيا ويواجه مصيره الحتمي.

فأين أنت يا ابن آدم من هذا؟ وفيم الغفلة؟

إن من يطلبه الموت وهو موقن أنه سيموت لا يغفل عن ذلك بل تجده على حذر تام، والقلب الحي تكفيه أقل المواعظ.

فالإنسان إذا قصر في حق نفسه ولم يسع في كسب الأعمال الخيرة التي تريحه من شدائد يوم الحساب فإنه سيبقى يكابد العذاب الشديد هناك في الدار الآخرة.

وقد يحتمل أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ ﴿١﴾ مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيرٍ﴾ ﴿١﴾ [التين: ٤] أي قدره على التصرف في الأعمال الشديدة.

وإذا كان كذلك فعلى الإنسان أن يشكر الله تعالى على هذه النعمة العظيمة.

فلا يضع هذه القدرة والقوة التي أعطاه الله إياها في غير موضعها، بل يجعلها في طاعة الله ﷻ.

وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ ﴿٥﴾ أي أظن ذلك الإنسان المغتر بقوته وماله أن لا يقدر عليه أحد فيهما، ونسي أن المسيطر على كل شيء، والذي بيده كل شيء. والمتصرف الأواحد في كل شيء، هو الله وحده فيتشدد ذلك الإنسان المغرور ويتباهى بكثرة الإنفاق في المعاصي فيقول: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾ أي مالا كثيراً.

وسمى الله تعالى الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكاً لأن المنفق لا

ينتفع بما أنفق في غير طاعة الله ولأن الذي ينفق ماله في المعاصي لا يعود عليه من إنفاقه إلا الندم والخسارة والتعب والقلّة.

أما الذي ينفق أمواله في مرضاة الله تعالى في أوجه الخير فإنه قد تاجر مع الله تعالى تجارة رابحة، وريح أضعاف أضعاف ما أنفق.

قال تعالى متوعداً الذي أنفق ماله في الشهوات وافتخر بذلك: ﴿يَتَعَسَّبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۗ﴾ أي أظن أن الله لا يراه ولا يحاسبه على الصغيرة والكبيرة، بل إن الله تعالى قد رآه، وحفظ عليه أعماله، وسيرى كل إنسان ما عمله من خير وشر ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۗ﴾ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۗ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، ﴿وَلَا يَظَلُّهُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ثم أخذ تعالى يعدد بعض نعمه على بني آدم، وما أكرها، ومنها ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَّهُمْ عَيْنَيْنِ ۖ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۗ﴾ للجمال والبصر والنطق وغير ذلك من المنافع الضرورية، فهذه نعم الدنيا.

ثم قال في نعم الدين: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۗ﴾ أي طريقي الخير والشر بيناً له الهدى من الضلال والرشد من الغي، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ۗ﴾ ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۗ﴾ ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۗ﴾ [الإنسان: ١ - ٣].

فهذه المنن العظيمة والنعم الجسيمة تقتضي من العبد أن يقوم بحقوق الله تعالى ويشكره على نعمه، وأن لا يستعين بنعم الله تعالى عليه على معاصي الله. وغاية الجحود أن يعصى الله تعالى بنعمه.

وقد روى الحافظ ابن عساكر عن مكحول قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم قد أنعمت عليك نعماً عظماً لا تحصي عددها ولا تطيق شكرها، وإن مما أنعمت عليك أن جعلت لك عينين تنظر بهما وجعلت لهما غطاءً فانظر بعينيك إلى ما أحللت لك، وإن رأيت ما حرّمت عليك فأطبق عليهما غطاءهما، وجعلت لك لساناً وجعلت له غلاًفاً. فانطق بما أمرتك وأحللت لك. فإن عرض لك ما حرّمت عليك فأمسك عليك لسانك. وجعلت

لك فرجاً وجعلت لك ستراً، فأصب بفرجك ما أحللت لك، فإن عرض عليك ما حرمت عليك فأرخ عليك سترك، ابن آدم إنك لا تحمل سخطي، ولا تطبق انتقامي».

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا أَقْنَمَ الْعَقَبَةَ﴾ (١١) والعقبة الطريق الوعر في الجبل الذي يصعب سلوكه وعبر بها هنا عن مجاهدة النفس والهوى ودواعيه. والمعنى: هلا جاهد الإنسان نفسه، وجاهد الشيطان وعمل أعمال البر، ليجتاز الشدائد ويسعد في الدار الآخرة.

ثم فسرها الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ (١٢) فَكَ رَقَبَةٍ (١٣) أي فكها من الرق أو المساعدة في فكها من الأسر من عند الكفار.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْجَبٍ﴾ (١٤) أي مجاعة شديدة بأن يطعم وقت الحاجة ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ (١٥) جامعاً بين كونه يتيماً وفقيراً ذا قرابة، روي عن النبي ﷺ أنه قال: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان صدقة وصلوة» [رواه الترمذي والنسائي].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ (١٦) أي قد لزق بالتراب من الحاجة والضرورة، ولا وسيلة له إلى كسب المال لضعفه وعجزه، فكل هذه الأعمال الجليلة: فك رقبة، وإطعام المساكين والأيتام في يوم الحاجة وشدة فقرهم هي الزاد لاجتياز تلك العقبة الكؤود التي يخلص المجتاز إلى دار النعيم بإذن الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الصالحات بجوارحهم، فدخل في هذا كل قول أو فعل واجب أو مستحب، قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ (الإسراء: ١٩)، ولعل فيه إشارة إلى أنهم عملوا الصالحات المذكورة مع الإيمان، إذ لا ينفع العمل بلا إيمان ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره المؤلمة، بأن يحث بعضهم بعضاً على الانقياد لذلك والإتيان به كاملاً منشراحاً به الصدر، مطمئنة به النفس ﴿وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ أي بالرحمة بالعباد كما في الحديث: «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

وفي الحديث الآخر: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس».

فعلى المسلم أن يرحم إخوانه المسلمين بكف أذاه عنهم، وإعطاء محتاجهم، وتعليم جاهلهم، والقيام بما يحتاجون إليه في أوجه الخير، ومساعدتهم على المصالح الدينية والدنيوية، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه.

هذا معنى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾.

فالذين اتصفوا بهذه الصفات الطيبة هم الذين وفقهم الله تعالى لاقتحام العقبة.

فهم ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ لأنهم أدوا ما أمرهم الله به من حقوق له ولعباده، وتركوا ما نهاهم الله عنه. والمعنى أنهم يأخذون كتب أعمالهم بإيمانهم، وهذا عنوان السعادة وعلامتها. والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ بأن نبذوا هذه الأمور وراء ظهورهم، فلم يصدقوا بالله، ولا آمنوا به، ولا عملوا صالحاً، ولا رحموا عباد الله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾، ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ أي مغلقة عليهم. قال في الآية الأخرى: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ٩] قد مدت من ورائها لثلا تنفتح أبوابها حتى يكونوا في ضيق وهم وشدة دائمين دائبين أبد الآباد.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾ حائط لا باب له. وقال قتاد: ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾ مطبقة لا ضوء فيها ولا فرج ولا خروج منها أبد الآباد.

وقال أبو عمران الجوني: إذا كان يوم القيامة أمر الله بكل جبار وكل شيطان وكل من كان الناس يخافون شره في الدنيا فأوثقوا بالحديد ثم أمر بهم إلى جهنم، ثم أوصدوها عليهم، أي أطبقوها، قال: فلا والله لا تستقر أقدامهم على قرار أبداً، ولا والله لا ينظرون فيها إلى أديم سماء أبداً، ولا والله لا يلقى جفون أعينهم على غمض نوم أبداً، ولا والله لا يذوقون فيها بارد شراب أبداً.

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ (١٦) أَوْ إِطْعَمٌ ﴿قَرَأَ نَافِعٌ، وَابْنُ عَامِرٍ، وَعَاصِمٌ، وَحَمْزَةُ، وَأَبُو جَعْفَرٍ، وَيَعْقُوبُ، خَلْفُ الْعَاشِرِ، ﴿فَكُّ﴾ بِرَفْعِ الْكَافِ خَبْرٌ لِمَبْتَدَأٍ مَحذُوفٍ، أَيُّ هُوَ فَكُّ، ﴿رَقَبَةٍ﴾ بِالْجَرِّ عَلَى الْإِضَافَةِ، ﴿إِطْعَامٌ﴾ بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ وَأَلْفٍ بَعْدَ الْعَيْنِ، وَرَفْعِ الْمِيمِ مَنْوُونةٍ مَعْطُوفٍ عَلَى ﴿فَكُّ﴾ وَأَوْ لِلتَّخْيِيرِ. وَقَرَأَ الْبَاقُونَ، وَهَمٌّ: ابْنُ كَثِيرٍ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَالْكَسَائِيُّ، ﴿فَكُّ﴾ بِفَتْحِ الْكَافِ فِعْلاً مَاضِياً، ﴿رَقَبَةٍ﴾ بِالنَّصْبِ مَفْعُولٌ بِهِ، ﴿أَطْعَمٌ﴾ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَالْمِيمِ فِعْلاً مَاضِياً، وَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿فَكُّ﴾.

سُورَةُ الشَّمْسِ

مكية وآياتها خمس عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضُ وَمَا طَبَّهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ ۞

فهذه آيات بينات محكمات، واضحات، جليات يقسم الله تعالى فيها بسبعة أشياء من مخلوقاته، والله تعالى أن يقسم بما شاء، أما المخلوق فلا يجوز له أن يقسم بغير الله تعالى، فقوله تعالى: ﴿ وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ ﴾ أي نورها ونفعها الصادر منها بإذن الله تعالى، وقوله: ﴿ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ﴿٢﴾ ﴾ أي تبعها في المنازل والنور ﴿ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ﴿٣﴾ ﴾ أي جلى ما على وجه الأرض وأوضحه ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ ﴾ أي يغشى وجه الأرض، فيكون ما عليها مظلماً، ففي تعاقب الظلمة والضياء والشمس والقمر على هذا العالم بانتظام، وقيام لمصالح العباد أكبر دليل على سعة علمه تعالى وقدرته الكاملة، وأنه لا معبود بحق إلا الله تعالى.

﴿ لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعْجِبُ وَيُنَبِّئُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢﴾ ﴾، [الحديد: ٢، ٣] ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ [يونس: ٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ ﴾ إن كانت ﴿ ما ﴾ موصولة فيكون

الإقسام بالسماء وبانيها، وهو الله تعالى، وإن كانت ﴿ما﴾ مصدرية فيكون الإقسام بالسماء وبنيانها، الذي هو غاية متناهية من الإحكام والإتقان والإحسان ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّهَا ۝١﴾ أي مدها ووسّعها، فتمكن الخلق من الانتفاع بها بجميع أوجه الانتفاع ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧﴾ أي أن الله تعالى خلقها سوية، مستقيمة على الفطرة السليمة، قال تعالى: ﴿فَأَقْوَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

وقال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه...» الحديث. وعنه ﷺ أنه قال: «يقول الله ﷻ: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم».

وقوله تعالى: ﴿فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ قال ابن عباس ؓ: أي يبين لها الخير والشر، وقيل: يبين لها ذلك، وهداها إلى ما قدر لها، وفي الحديث أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون، أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق، أم شيء مما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وأكدت عليهم به الحجة؟ قال: «بل شيء قد قضى عليهم» قال: ففيم العمل؟ قال: «من كان الله خلقه لإحدى المنزلتين يهيئه لها، وتصديق ذلك من كتاب الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧﴾ فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ [رواه مسلم].

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝١﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝٢﴾ يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله تعالى وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝٢﴾ أي دسها ووضعها موضع الخذلان بارتكاب المعاصي وترك طاعة الله تعالى، فإن النفس كما يعودها الإنسان تتعود، فإن ألفت الطاعة نفرت من المعاصي.

ويحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكى الله نفسه، وقد خاب من دسى الله نفسه.

(١) رواه مسلم.

وفي الحديث: «أفلحت نفسٌ زكّأها الله ﷻ».

ومن دعا النبي ﷺ: «اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكّاها» فالأمر كله لله أولاً وآخراً، وكل شيء بتقديره سبحانه، ولا يكون إلا ما أَراده الله تعالى.

ثم ختم الله تعالى هذه السورة المباركة بذكر بعض أخبار أمة من الأمم السابقة، وما كان منهم مع رسولهم من التكذيب والإيذاء وما حلّ بهم من الهلاك التام والعذاب الأليم بسبب طغيانهم وتجاوزهم الحدود الشرعية، وكأن فيه إنذار للمكذبين من هذه الأمة وقت التنزيل وبعده أنه سينزل بهم مثل ما نزل بتمود إذ كذبت نبيها فأصابها العذاب في الدنيا والآخرة.

ولقد صدق الله وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، فأهلك من أهلك من مشركي قريش في وقعة بدر بأيدي المؤمنين، ولم يزل يحلّ بهم الخزي والعذاب بالقتل وغيره حتى لم يبق في جزيرة العرب مكذب، وكذلك يهود المدينة، سلّط الله عليهم رسوله ﷺ بالقتل والإجلاء وضرب الجزية، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وعمّ التوحيد، ولم يُعبّد غير الله في جزيرة العرب.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا ۖ ﴿١١﴾﴾ أي بسبب طغيانها وترفعها عن الحق، وعصيان رسولهم صالح ﷺ ﴿إِذْ أَنْبَأَتْ أَسْقِيهَا ۖ ﴿١٢﴾﴾ أي أشقى القبيلة، قبيلة ثمود، وهو قُدار بن سالف، فعقر الناقة فكان أشقى الناس ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۖ ﴿١٣﴾﴾ أي حذّره نبيهم صالح ﷺ من عقر الناقة التي جعلها الله تعالى لهم آية عظيمة ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۖ ﴿١٤﴾﴾ أي دمرها عليهم وعمهم بعقابه، وأرسل عليهم الصيحة من فوقهم والرجفة من تحتهم فأهلكهم ﴿وَلَا يَخَافُ ۖ ﴿١﴾﴾ عَقْبَهَا ﴿رَبَّنَا ۖ ﴿٢﴾﴾ هو القاهر فوق عباده، لا يخرج عن قهره وقدرته أحد، حكيم في كل ما قضاه وشرعه، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

(١) ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بالفاء بدلاً من الواو أي (فلا يخاف)، وقرأ الباقون بالواو، أي (ولا يخاف).

فاتقوا الله عباد الله، وتدبروا القرآن وتفهموا معانيه واعتبروا بما فيه من
القصص عن الأمم السابقة، فإنما سيق القصص للاعتبار بأحوال من سبق،
ومعرفة أيام الله فيهم، وسلوك دروب المتقين، والبُعد عن دروب الهالكين ﴿إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

سُورَةُ اللَّيْلِ

مكية وآياتها إحدى وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنِّيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ يُخَلِّ وَأَسْتَفْتَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنِّيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيَجْزِيهَا الْآلَفَىٰ ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُمْ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾

ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى».

واشتملت هذه السورة على بيان شرف المؤمنين وفضائل أعمالهم، ومذمة المشركين ومساوئهم، وجزاء كل فريق، وأن الله يهدي الناس إلى الخير، وأنه أرسل رسوله للتذكير بالله وما عنده فينتفع من يخشى، ويصرف عن الذكر من كان شقياً، فيكون جزاء المعرض عن ذكر الله تعالى النار المحرقة، وهو من صده عن التذكير إيثار حب الدنيا، وفي الآيات إشارة إلى دلائل قدرة الله تعالى وبديع صنعه.

أقسم الله تعالى بالزمان الذي تقع فيه أفعال العباد على تفاوت أحوالهم، فقال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾﴾ أي يعم الخلق بظلامه، فيسكن إلى ماواه ومسكنه، ويستريح العباد من الكد والتعب. ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾ تجلّى للخلق

فاستضأوا بنوره وانتشروا في مصالحهم ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ ١٤٦ أي والذي خلق الذكر والأنثى من كل نوع له توالد ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ ١٤٧ هذا هو المقسم عليه، فلما كان المقسم به من المتضادات، كان الجواب للمقسم من المتضادات أيضاً، يعني: يا أيها المكلفون إن سعيكم متفاوت ومختلف، بحسب تفاوت الأعمال ومقدارها والإخلاص فيها. فما قُصد به وجه الله تعالى فهو الباقي، وما قُصد به سواه فلا بقاء له ولا انتفاع به.

قال تعالى: ﴿وَالْبَيْتَاتُ الصَّلَاحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ [الكهف: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ نَحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠]، ومن أجل ذلك فضل الله تعالى العاملين له بإخلاص، ووصف أعمالهم فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ أي أعطى ما أمر به من العبادات المالية، مثل: الزكاة والنفقات والكفارات والصدقات والإنفاق في أوجه الخير، والعبادات البدنية، كالصلاة والصوم والحج والعمرة وغيرها ﴿وَأَتَقَىٰ﴾ ما نهى عنه من المحرمات والمعاصي والآثام ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ ١٤٨ أي صدق بلا إله إلا الله وما دلت عليه من العقائد الدينية، وما يترتب عليها من الجزاء ﴿فَسَيَسِّرُهُ لِيُيسِّرَ﴾ ١٤٩ أي ييسر له أمره، ونجعله سهلاً له كل خير، ميسراً له ترك كل شر، لأنه أتى بأسباب التيسير، فيسر الله له ذلك ﴿وَأَمَّا مَنْ يُبَخِّلْ وَاسْتَفْتَنَىٰ﴾ ١٥٠ بخل بما أمر به وترك الإنفاق الواجب والمستحب، واستغنى عن ربه فترك عبوديته، ولم ير نفسه أنه مفتقراً إلى الله ﷻ: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ ١٥١ ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ ١٥٢ والذي لا نجاة لأحد ولا فوز ولا فلاح إلا برضاه - جلّ وعلا -، وأن كل الخلائق تصمد إليه وتجأ إليه وتفتقر إليه وإلى رحمته ورعايته ولطفه، والكل هالك إلا من نجاه الله ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تُنْقَوْنَ﴾ [يونس: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ ١٥٣ وهو عكس من صدق بالحسنى، ﴿فَسَيَسِّرُهُ لِيُيسِّرَ﴾ ١٥٤ أي للحالة العسرة، والخصال الذميمة بأن يكون ميسراً للشرا أينما كان، وحيثما حل، ومقيضاً له أفعال المعاصي، نسأل الله السلامة، والعافية.

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ (١١) ﴿ماذا عساه ينفعه ماله إذا هلك ومات؟ فلا يصحب الإنسان بعد الموت إلا عمله إن كان خيراً أو شراً، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» [رواه مسلم].

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ (١٢) ﴿ومن معناها أن الله تعالى خلق الإنسان وميَّز له الخير من الشر، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (١٥) ﴿[البلد: ١٠] فطريق الخير يوصل إلى الله تعالى، وأما طريق الضلال فإنه يحجبه عن ربه ولا يوصل صاحبه إلا للعذاب الشديد ﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾ (١٣) ﴿ملكاً وتصرفاً ليس الله فيهما مشارك ﴿فَأَنْذَرْتَهُمْ نَارًا تَلْقَوْنَ﴾ (١٤) ﴿تستعر وتتوقد وتلتهب ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ (١٥) ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (١٦) ﴿كذب بالخبر وتولى عن الأمر فلم يصدق كتاب الله، ولم يصدق رسول الله، وتمادى في غيه وطغيانه ﴿وَسَيَجْزِيهَا الْآلَفَى﴾ (١٧) ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ (١٨) ﴿يدفع ماله في سبيل الله، ليس له قصد من ذلك غير تزكية نفسه وتطهيرها من الذنوب والأدناس والآثام قاصداً به وجه الله تعالى ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ (١٩) ﴿أي ليس لأحد عنده نعمة ومنة فيقصد بإيتاء ما يؤتي مجازاته.

وهذه الآية وإن كانت متناولة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه فإنها متناولة لكل من اتصف بهذا الوصف الفاضل، قيل: إن هذه السورة نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه وإنفاقه على المسلمين، وفي أمية بن خلف وبخله وكفره بالله تعالى، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قال ابن إسحاق: كان بلال لبعض بني جمح، وهو بلال بن رباح واسم أمه حمامة، وكان صادق الإسلام طاهر القلب، وكان أمية بن خلف يخرجها إذا حميت الشمس فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، فيقول بلال: أحد أحد، فمرّ به النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «أحد ينجيك» يعني الله تعالى، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: «إن بلالاً يُعذَّب في الله» فعرف أبو بكر الذي يريد به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذهب أبو بكر لأمية بن خلف ليشتريه منه ويعتقه لله تعالى، وقال لأمية: ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ قال: أنت أفسدته فأقنذه مما ترى،

قال أبو بكر: أفعل، فاشتره منه برطل من ذهب أو بعبد أسود كافر وأعتق بلالاً لوجه الله تعالى. وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد أعتق ست رقاب على الإسلام قبل أن يهاجر وبلال سابعهم. ولما قال الكفار: إنما فعل ذلك أبو بكر - أي شراء بلال وإعتاقه - ليد كانت لبلال عنده، أنزل الله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ (١٢٥) أي وليس لأحد عنده نعمة سابقة يكافئه عليها، وإنما ينفق ما ينفق لوجه الله ورغبة في رحمته ورضاه رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَرْضَى﴾ (١٢٦) أي سوف يرضى ذلك الأتقى بما يعطيه الله تعالى من أنواع الكرامات والمثوبات في دار النعيم الخالد، في الجنة. لمن وفقه الله تعالى لتقواه وطاعته فنعيمها صافي من المكدرات، وفوق كل ما يخطر بالبال، ويكفيها قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

خاتمة مناسبة للسورة:

روى البخاري ومسلم من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة» فقالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا؟ فقال: «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة، فسيصير لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء، فسيصير لعمل أهل الشقاء» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنِيَرُهُ لِلْسُرَى (٧) ... ﴿الآيات.

وفي الحديث: «لا يدخل النار إلا شقي» قيل: ومن الشقي؟ قال: «الذي لا يعمل بطاعة ولا يترك معصية».

قال بعض الوعاظ: كأنكم بالقيامة قد قامت، وبالنفوس الأمانة بالسوء قد لامت، وانفتحت عيون طالما نامت، وتحيرت قلوب العصاة وهامت.

غداً تُوقى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساؤوا فبئس ما صنعوا

سُورَةُ الضُّحَى

مكية وآياتها إحدى عشر آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالضُّحَى ﴾ ١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ٣ وَالْآخِرَةَ حَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ٤ وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ٥ أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَتَوَّى ٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ١١ ﴿ .

افتتحت السورة بقسمين معبرين عن وقتي النشاط والسكون، على أن الله ما ترك رسوله ولا كرهه وما يعده له في الآخرة من منازل الرفعة خير مما يكرمه به في الأولى، ثم أقسم سبحانه على أنه سيعطي حتى يرضى، والسوابق شواهد على اللوحاق فقد كان يتيماً فأواه، وضالاً فأحسن هداه، وفقيراً فأغناه، ثم دعت الآيات إلى إكرام اليتيم وعدم نهر السائل، وإلى التحدث بنعمة الله.

وجاء في أسباب النزول:

أخرج الشيخان وغيرهما عن جندب قال: اشتكى النبي ﷺ، فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتته امرأة، فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله: ﴿ وَالضُّحَى ﴾ ١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ٣ . وأخرج الحاكم عن زيد بن أرقم قال: مكث رسول الله ﷺ أياماً لا ينزل عليه جبريل، فقالت أم جميل امرأة أبي لهب: ما أرى صاحبك إلا قد ودَّعَكَ وقلاك، فأنزل الله: ﴿ وَالضُّحَى ﴾ ١ . . . الخ.

قوله تعالى: ﴿ وَالضُّحَى ﴾ ١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ٢ ﴿ أقسم الله تعالى لنبية ﷺ

بالضحى، وهو أول النهار من طلوع الشمس وارتفاعها إلى ما قبل الزوال، وبالليل إذا اشتد ظلامه وغطى كل شيء وسكن الناس ﴿مَا دَعَاكَ رَبُّكَ﴾ أي ما تركك وأهملك ﴿وَمَا قَلَى﴾ أي وما أبغضك، بل إن الرسول ﷺ أحب الخلق إلى الله تعالى، لذلك اختاره لأعظم الرسالات وأفضل الأمم، وجعله خاتم النبيين، واختصه بالمقام المحمود، وأنزل عليه أفضل الكتب في أفضل زمان ومكان، بسفارة أفضل الملائكة جبريل ﷺ وجعل دينه الإسلام عاماً خالداً صالحاً لكل زمان ومكان، وهو ﷺ أحد الخليطين، إذ الخلعة وهي أعظم مراتب المحبة لم تكن إلا لإبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وفي ذلك يقول ﷺ: «إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً» [أخرجه مسلم].

وقوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ أي خير لك من هذه الدنيا الفانية. أخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «عرض علي ما هو مفتوح لأمتي بعدي، فسرني، فأنزل الله: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾» [حديث حسن]، وكان النبي ﷺ يقول: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة».

قال ابن ماجه: حدثنا يحيى بن حكيم، ثنا أبو داود، ثنا المسعودي، أخبرني عمرو بن مرة عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله، قال: اضطجع النبي ﷺ على حصير فأثر في جلده فقلت: بأبي وأمي، يا رسول الله! لو كنت آذنتنا ففرشنا لك عليه شيئاً يقيك منه! فقال رسول الله ﷺ: «ما أنا والدنيا! إنما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها».

وقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ أي سوف يعطيك ربك من فواضل نعمه حتى ترضى في الدنيا من كمال الدين وظهور الأمر وفي الآخرة الشفاعة وأن لا يبقى أحد من أمته الموحدين في النار، وكذلك الدرجة الرفيعة التي لا تكون لأحد سواه، ووعد الله تعالى لنبيه ﷺ بأنه سيعطيه حتى يرضى هو غاية الإحسان والإكرام.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ استفهام تقريرى، أي وجدك الله تعالى يتيمًا، والوجود بمعنى العلم، ﴿فَتَأْوَى﴾ أي جعل لك مأوى تأوي إليه، وهو بيت كافلة.

وكان يتيماً من الأب، ويتيماً من الأم، فإن أباه توفي قبل أن يولد، وأمه ماتت وهو طفل، ولكن الله تعالى تكفل به وهياً له مَنْ يقوم بتربيته والدفاع عنه حتى وصل إلى الغاية التي أرادها الله تعالى.

قال ابن كثير: وذلك أن أباه تُوفي وهو حَمَلٌ في بطن أمه ﷺ، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب، ثم لم يزل يحوطه وينصره، ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان، وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره، إلى أن تُوفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل، فأقدم عليه سفهاء قريش وجُهاً لهم فاختر الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج، كما أجرى الله سُنَّتَهُ على الوجه الأتم الأكمل. فلما وصل إليهم آووه ونصروه وحاطوه وقاتلوا بين يديه رضي الله عنهم أجمعين، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به. اهـ. (١)

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ (٧) أي غافلاً عما أوحاه إليك من الهدى والفرقان، فهداك إليه، وجعلك إماماً له، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا آلَكُنْتُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ أي فقيراً ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ فأغناك عن الناس، ويسر لك أسباب الرزق والتجارة والقناعة، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس».

وبعد أن ذكره الله تعالى بهذه النعم الثلاث، فقد كان يتيماً فأواه، وضالاً فهداه، وفقيراً فأغناه، وأوصاه بثلاث وصايا تقابلها ليحسن إلى الناس كما أحسن الله إليه، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ (٩) أي لا تقهره بأخذ ماله أو إذلاله أو أذاه ذاكراً رعاية الله تعالى لك أيام يتمك، فكان ﷺ يحسن إلى اليتامى ويبرهم ويوصي بهم خيراً ومن ذلك قوله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما [رواه البخاري عن سهل بن

(١) تفسير ابن كثير (٤/٥٥٩).

سعد ﷺ]. ولا شك أن الأمة هي المقصودة بهذه الأوامر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ (١٠) أي فلا ترده بقسوة، ويشمل السائل الفقير والسائل المسترشد في أمور الدين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (١١) شكراً لله تعالى وإظهاراً للنعمة، ويشمل كل ما أنعم الله عليه مما ذكر وغيره، وعلى الأمة جمعاء. والله أعلم. وما قلناه وما قاله غيرنا هو قليل من كثير، فكلام الله تعالى لا تدركه عقول البشر.

نظراً لأننا نسمع أحياناً تكبيراً في القراءات وددت أن أورد نبذة سريعة وموجزة عن التكبير عند قراءة سورة الضحى إلى آخر المصحف الشريف، من حيث أصل هذا التكبير وسببه وصفته وأوجهه وحكم وصل آخر السورة به، وحكمه في الصلاة، وذكر المذاهب الأربعة فيه.

قال ابن كثير (٤/٥٥٧): روينا من طريق أبي الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقرئ قال: قرأت على عكرمة بن سليمان، وأخبرني أنه قرأ على إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عباد. فلما بلغت ﴿وَالضُّحَى﴾ (١٢) قال لي: كبر حتى تختتم مع خاتمة كل سورة، فإننا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك، وأخبرنا أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك، وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك. وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أبي بن كعب فأمره بذلك، وأخبره أبي أنه قرأ على رسول الله ﷺ فأمره بذلك، فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي، من ولد القاسم بن أبي بزة، وكان إماماً في القراءات. وأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازي وقال: لا أحدث عنه. وكذلك أبو جعفر العقيلي، قال: هو منكر الحديث. لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في (شرح الشاطبية) عن الشافعي أنه سمع رجلاً يكبر هذا التكبير في الصلاة، فقال: أحسنت وأصبت السنة. وهذا يقتضي صحة هذا الحديث. اهـ.

قلت: والتكبير مصدر كبر إذا قال^(١): الله أكبر، ومعناه: الله أعظم من

(١) انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي، باب: كبر.

كل عظيم ﷺ، وذكروا في مناسبة^(١) التكبير أن الوحي تأخر عن رسول الله ﷺ فقال المشركون - زوراً وكذباً - إن محمداً قد ودَّعه ربُّه وقلاه، فنزل - تكذيباً لهم - سورة والضحي من أولها إلى آخرها، فلما فرغ جبريل ﷺ من قراءتها قال الرسول ﷺ شاكرأ لله تعالى على ما أولاه من نزول الوحي عليه بعد انقطاعه ومن الرد على إفك الكافرين ومزاعمهم: «الله أكبر»، ثم أمر ﷺ أن يكبّر مع خاتمة كل سورة حتى يختم تعظيماً لله وسروراً بختم القرآن العظيم، وقد ورد هذا في كل كتب القراءات التي تعرضت لذكر التكبير، والله أعلم.

صفة التكبير:

- ١ - الله أكبر.
 - ٢ - لا إله إلا الله والله أكبر.
 - ٣ - لا إله إلا الله والله أكبر والله الحمد.
- ولا بد من وصل الجمل الثلاث في حال القراءة بها ولا يصح فصلها.

مكان التكبير:

اختلف العلماء، هل التكبير لأول السورة أو لخاتمتها، ومنشأ الخلاف أنه كان تكبيره ﷺ آخر قراءة جبريل ﷺ وأول قراءته هو ﷺ وهذا هو السبب في أن التكبير قد يكون لأول السورة وقد يكون لآخرها.

أوجه التكبير:

أوجه التكبير من آخر سورة الضحي وما بعدها إلى آخر سورة الناس مع الأمثلة، وذلك على فرض الاقتصار على التكبير فقط.

الأول: قطع الجميع، أي الوقف على آخر السورة وعلى التكبير وعلى البسملة والابتداء بأول السورة مثاله:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ ثم يقف [اللهُ أَكْبَرُ]، ثم يقف ﴿بِسْمِ

(١) قال صاحب فتح القدير عند تفسير سورة الضحي: ولم يرووا ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة أو ضعف.

اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾ ثم يقف ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ .

الثاني: الوقف على آخر السورة وعلى التكبير ووصل بالبسملة بأول السورة مثاله:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١﴾﴾ ثم يقف ﴿اللَّهُ أَكْبَرُ ﴿١﴾﴾ ثم يقف ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ .

الثالث: الوقف على آخر السورة ووصل التكبير بالبسملة مع الوقف عليها ثم الابتداء بأول السورة مثاله:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١﴾﴾ ثم يقف ﴿اللَّهُ أَكْبَرُ ﴿١﴾﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ ثم يقف ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ .

الرابع: الوقف على آخر السورة ووصل التكبير بالبسملة بأول السورة مثاله:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١﴾﴾ ثم يقف ﴿اللَّهُ أَكْبَرُ ﴿١﴾﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ .

الخامس: وصل آخر السورة بالتكبير مع الوقف عليه وعلى البسملة ثم الابتداء بالسورة مثاله:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١﴾﴾ اللَّهُ أَكْبَرُ ﴿١﴾﴾ ثم يقف ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ .

السادس: وصل آخر السورة بالتكبير مع الوقف عليه ثم وصل بالبسملة بأول السورة مثاله:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١﴾﴾ اللَّهُ أَكْبَرُ ﴿١﴾﴾ ثم يقف ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ .

السابع: وصل الجميع، أي وصل آخر السورة بالتكبير بالبسملة بأول السورة بدون وقف في ذلك كله مثاله:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١﴾﴾ اللَّهُ أَكْبَرُ ﴿١﴾﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ .

والوجه الممنوع هو وصل آخر السورة بالتكبير وبالبسمة والوقف ثم الابتداء بأول السورة. وهذا يمتنع لثلاثيهم أن البسمة لآخر السورة كما مر في البسمة.

حكم وصل آخر السورة بالتكبير:

إذا وصل آخر السورة بالتكبير فلا يخلو من أن يكون الحرف الأخير في السورة ساكناً أو متحركاً، فإن كان ساكناً نحو: ﴿فَأَرْعَبَ﴾ و﴿أَقْرَبَ﴾ وجب كسر الساكن تخلصاً من التقاء الساكنين، حالة وصله بلفظ [اللَّهُ أَكْبَرُ] هكذا: ﴿فَأَرْعَبَ^(١) اللَّهُ أَكْبَرُ﴾ وكذلك ﴿وَأَقْرَبَ اللَّهُ أَكْبَرُ﴾ وكذلك إن كان الحرف الأخير مُنَوَّنًا فَإِنَّ نون التنوين تكسر كذلك مثل ﴿إِنَّكُمْ كَانْتُمْ تَقْرَأُونَ﴾ كما يلي: ﴿إِنَّه كَانَ تَوَابِنِ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وإذا كان الحرف الأخير متحركاً فإنه يوصل بالتكبير بحركة إعرابه دون أي تغيير، سواء كانت حركته فتحة كآخر الماعون والفلق أو كسرة كآخر التكاثر والعصر أو ضمة كآخر الكوثر، وإذا كان آخر السورة هاء الضمير مثل آخر البينة والزلزلة وجب حذف الصلة للتقاء الساكنين.

وقد أشار إلى ذلك الشاطبي في الحرز بقوله:

وَمَا قَبْلَهُ مِنْ سَاكِنٍ أَوْ مُنَوَّنٍ فَلِلْسَاكِنِينَ اكْتِسَابُهُ فِي الْوَصْلِ مُرْسَلًا
وَأُذْرَجُ عَلَىٰ إِعْرَابِهِ مَا سِوَاهُمَا وَلَا تَصِلُنَّ هَاءَ الضَّمِيرِ لِتُوصَلَ^(٢)

قال صاحب «هداية القارئ»:

اعلم أن حكم التكبير في الصلاة أنه سنة ثابتة فيها كثبوتها في خارجها وقد تكلم في هذه المسألة غير واحد من الثقات الجهابذة الأثبات فقد ذكر الحافظ ابن الجزري في النشر بأسانيده إلى الصحابة والتابعين بثبوت التكبير في الصلاة وغيرها، ثم قال الحافظ ابن الجزري بعد ذلك: وقال الشيخ أبو الحسن السخاوي: وروى بعض علمائنا الذين اتصلت قراءتنا بإسناده عن أبي

(١) ولا يخفى مراعاة ترقيق لام لفظ الجلالة في مثل هذه القراءة.

(٢) من كتاب جهد الفقير في تجويد كلام العلي القدير ص (١٨٣ - ١٨٨)، للمؤلف.

محمد الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد القرشي قال: صليت خلف المقام بالمسجد الحرام في التراويح في شهر رمضان فلما كانت ليلة الختم كبرت من خاتمة الضحى إلى آخر القرآن في الصلاة فلما سلمت التفت وإذا بأبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي قد صلى ورائي فلما أبصرني قال: أحسنت أصبت السنة... إلى أن قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فقد ثبت التكبير في الصلاة عن أهل مكة فقهاءهم وناهيك بالإمام الشافعي وسفيان بن عيينة وابن جريح وابن كثير وغيرهم... إلى أن قال: ورأيت أنا غير واحد من شيوخوا يعمل به ويأمر من يعمل به في صلاة التراويح وفي الإحياء في ليالي رمضان حتى كان بعضهم إذا وصل في الإحياء في الضحى قام بما بقي من القرآن في ركعة واحدة يكبر إثر كل سورة فإذا انتهى إلى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ كبر في آخرها ثم يكبر ثانياً للركوع، وإذا قام في الركعة الثانية قرأ الفاتحة وما تيسر من أول البقرة وفعلت أنا كذلك مرات لما كنت أقوم بالإحياء بدمشق ومصر.

وأما من كان يكبر في صلاة التراويح فإنهم يكبرون إثر كل سورة ثم يكبرون للركوع. وذلك إذا أثر التكبير آخر كل سورة. ومنهم من كان إذا قرأ الفاتحة وأراد الشروع في السورة كبر ويسمل وابتدأ السورة... إلى أن قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ثم رأيت كتاب الوسيط تأليف الإمام الكبير شيخ الإسلام أبي الفضل عبد الرحمن بن أحمد الرازي الشافعي رحمه الله تعالى وفيه ما هو نص على التكبير في الصلاة... ثم عرج بعد ذلك على المذاهب الفقهية فقال: والقصد إنني تتبعت كلام الفقهاء من أصحابنا - يعني الشافعية - فلم أر لهم نصاً في غير ما ذكرت وكذلك لم أر للحنفية ولا للمالكية وأما الحنابلة فقد قال الفقيه الكبير أبو عبد الله محمد بن مفلح في كتاب الفروع له: «وهل يكبر لختمه من الضحى أو ألم نشرح آخر كل سورة فيه روايتان ولم تستحبه الحنابلة لقراءة غير ابن كثير، وقيل: ويهمل. انتهى.

ثم قال الحافظ ابن الجزري بعد ذلك:

ولما منّ الله عليّ بالمجاورة بمكة ودخل شهر رمضان فلم أر أحداً ممن صلى التراويح بالمسجد الحرام إلا يكبر من الضحى عند الختم فعلمت أنها سنة باقية فيهم إلى اليوم... ثم قال رحمه الله تعالى: «والعجيب ممن ينكر

التكبير بعد ثبوته عن النبي ﷺ وعن أصحابه والتابعين». انتهى كلام الحافظ ابن الجزري ملخصاً من «النشر»^(١).

وقال صاحب «هداية القارئ»^(٢).

ويؤخذ من كلام الحافظ ابن الجزري في «النشر» والذي سقناه آنفاً الأحكام الآتية:

أولاً: إن التكبير سنة مطلقة في الصلاة وخارجها. وقد ثبت فعل هذه السنة عند فقهاء مكة المشرفة وغيرهم من فقهاء الأمصار في صلاة التراويح وغيرها.

ثانياً: إن التكبير في الصلاة بالنسبة للمذاهب الفقهية قد ثبت عند الشافعية وعلى رأسهم إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه وأنه لم يثبت عند الحنفية ولا عند المالكية أما الحنابلة فقد ورد عنهم فيه روايتان التكبير وعدمه وعندهم إن أخذوا بالتكبير لم يكن مستحباً لقراءة غير قراءة ابن كثير وحال أخذهم بالتكبير يجوز معه التهليل كما قيل عندهم.

ثالثاً: أنه لا وجه لمن أنكر التكبير بعد ثبوته عن النبي ﷺ وعن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم بمنه وكرمه أمين.

هذا: وذكر في «الإتحاف» أن التكبير مندوب في الصلاة في الختم وغيره حتى لو قرأ سورة من سور التكبير كالكافرون والإخلاص مثلاً في ركعتين كبر.

وقد اختلفوا في أداء التكبير في الصلاة هل يجهر به أو يسر أو هو تابع لها في السرية والجهرية أقوال. وأميل إلى أن التكبير يكون تابعاً للصلاة في السر والجهر فهو أحب إليّ والله تعالى أعلى وأعلم. اهـ.

(١) النشر في القراءات العشر (٢/٤٢٤ - ٤٢٩).

(٢) هداية القارئ إلى تجويد كلام الباري (٢/٦١١ - ٦١٢).

سُورَةُ الشَّرْحِ

مكية وآياتها ثمانى آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾ .

هذه السورة المكية بالإجماع بينت ثلاث نعم أنعم الله تعالى بها على نبيه ﷺ إثر الثلاث التي جاءت في السورة التي قبلها، وكان موضوعهما واحد، حتى قيل: إنهما سورة واحدة، ولكن المتواتر أنهما سورتان، وإن كانتا متصلتين معنى.

فقررت هذه السورة أن الله تعالى شرح صدر نبيه ﷺ وملاه حكمة وهياً لتلقي الوحي العظيم والنور المبين، وحط عنه ما أثقل ظهره من أعباء الدعوة، وأغلى منزلته، ورفع مقامه في الدنيا والآخرة وقرن اسمه باسمه في أصل العقيدة وشعائر الدين، وبشرت الآيات بأن مع العسر يسراً، وهذه سنة الله تعالى، ودعت الرسول ﷺ أن يجتهد في الخير بعد الخير وفي الدعوة، وأن الله تعالى هو وليه وناصره.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ استفهام تقريرى، أي قد شرحنا لك صدرك، وشرح الصدر في رأي الجمهور تنويره بالحكمة وتوسيعه لتلقي ما يوحى إليه، وهذا شرح معنوي، وقد يكون حسياً بمعنى شق صدره ﷺ، فقد وقع ذلك مراراً، مرة في صغره لإخراج حظ الشيطان، وهو الدم الأسود، الذي يميل به القلب إلى المعاصي، ويعرض عن الطاعات، ومرة عند ابتداء

الوحي، ومرة ليلة الإسراء، ومن الأحاديث في هذا ما يلي:

قال مسلم: حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان. فأخذه فصرعه فشق عن قلبه. فاستخرج القلب. فاستخرج منه علة. فقال: هذا حظ الشيطان منك. ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني ظئره) فقالوا: إن محمداً قد قتل. فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره.

وأخرج عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» عن أبي بن كعب أن أبا هريرة قال: يا رسول الله: ما أول ما رأيت من أمر النبوة؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالساً وقال: «لقد سألت أبا هريرة إني لفي صحراء ابن عشرين سنة وأشهرًا إذا بكلام فوق رأسي وإذا رجل يقول لرجل: أهو هو؟ فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط وأرواح لم أجدها في خلق قط وثياب لم أجدها على أحد قط، فأقبلا إليّ يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي لا أجد لأخذهما مساً فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه. فأضجني بلا قصر ولا هصر، فقال أحدهما: افلق صدره فحوّى أحدهما إلى صدري ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغل والحسد. فأخرج شيئاً كهية العلقمة، ثم نبذها، فطرحها، فقال له: أدخل الرأفة والرحمة فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة، ثم هز إبهام رجلي اليمنى. وقال: اغدوا سلم، فرجعت بها أغدو بها رقة على الصغير ورحمة للكبير».

قال الترمذي: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا محمد بن جعفر وابن أبي عدي، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة رجل من قومه أن النبي ﷺ قال: «بينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان، إذ سمعت قائلاً يقول: أحد بين الثلاثة، فأنتيت بطست من ذهب فيها ماء زمزم فشرح صدري إلى كذا وكذا». قال قتادة: قلت - يعني قلت لأنس بن مالك - ما يعني؟ قال: «إلى أسفل بطني، فاستخرج قلبي، فغسل قلبي بماء زمزم ثم أعيد مكانه، ثم حُشِيَّ إيماناً وحكمة».

وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّعْنَا عَنْكَ وَرَدَّكَ ۝۲﴾ أَلَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۝۳﴾ أي حططنا عنك حملك الثقيل، والنقيض هو الصوت الذي يُسمع من المحمل فوق البعير، وأنقض، أي أفل، وجائز أن يكون هذا الحمل الثقيل الذي وضع عنه هو إزالة الحيرة التي كانت قبل البعثة، أو ما كان يعانيه ﷺ من الغم وشدة الأسف من تكذيب قومه له، كما قال تعالى: ﴿لَمَّا كَبُحَ بِجَنُوحِكَ أَنَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝۲﴾ [الشعراء: ٣] وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَبُحَ بِجَنُوحِكَ عَلَيَّ أَاتَرَهُمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝۱﴾ [الكهف: ٦] فوضعه الله عنه بأن استجاب له وآمن بدعوته مَنْ سبقت لهم الحسنى كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وحمزة وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، وكذلك أخبره الله تعالى بأنه لن يُسأل عن أصحاب الجحيم، وأنه غير ملزم بإكراه الناس حتى يكونوا مؤمنين، وإنما عليه البلاغ وعلى الله الحساب.

وأما قوله تعالى في الآية الأخرى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] وما جاء في السنة أنه ﷺ كان يقوم الليل، ويطيل القيام حتى تتورم قدماه الشريفتان، فلما قيل له: أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»؟ فهذا يعني ثبوت مغفرة الذنوب المتقدمة والمتأخرة في الكتاب والسنة، ولا شك أن هذا من خصائصه ﷺ، أما غيره من الناس فيحتاج إلى التوبة من الذنب وقد يغفر الله تعالى لمن يشاء بدون توبة ما دون الشرك. فالحاصل أن المقطوع به أن النبي ﷺ قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، لكن الرسل معصومون من مقارفة الذنوب والآثام، وقد يُراد - والله أعلم - ما فعله ﷺ عن اجتهاد وعوتب عليه، كإذنه للمنافقين في التخلف عن الجهاد حين اعتذروا، وأخذه الفداء من أسرى بدر، وعبوسه في وجه الأعمى، ونحو ذلك، أو هو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝۱﴾ أي أعلينا قدرك ومقامك في الدنيا والآخرة، فجعلتك خاتم النبيين، وجعلت أمتك خير الأمم، وأنزلت عليك القرآن، خير كتاب وأخذت الميثاق على النبيين وأممهم أن يؤمنوا بما بعثتك به، وقرنت اسمك باسمي في الشهادة والأذان وكثير من الذكر والعبادة،

وجعلت طاعتك من طاعتي ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]،
 وصليت عليك وملائكتي وأمرت المؤمنين بأن يصلوا عليك ويسلموا ﴿إِنَّ اللَّهَ
 وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٥١)
 [الأحزاب: ٥٦].

أخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن
 مردويه وأبو نعيم في «الدلائل» عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال:
 «أتاني جبريل فقال: إن ربك يقول: أتدري كيف رفعت ذكرك؟ قلت: الله
 أعلم. قال: إذا ذُكرت ذُكرت معي».

وأخرج ابن أبي حاتم عن عدي بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ:
 «سألت ربي مسألة وددت أنني لم أكن سأله. قلت: أي رب اتخذت إبراهيم
 خليلاً، وكلمت موسى تكليماً. قال: يا محمد ألم أجدك يتيماً فأويت، وضالاً
 فهديت، وعائلاً فأغنيت، وشرحت لك صدرك، وحططت عنك وزرك، ورفعت
 لك ذكرك فلا أذكر إلا ذُكرت معي واتخذتك خليلاً؟».

وأخرج أبو نعيم في «الدلائل» عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما
 فرغت من أمر السموات والأرض قلت: يا رب، إنه لم يكن نبي قبلي إلا وقد
 كرمته، اتخذت إبراهيم خليلاً، وموسى كليماً، وسخرت لداود الجبال ولسليمان
 الريح والشياطين، وأحييت لعيسى الموتى، فما جعلت لي؟ قال: أوليس قد
 أعطيتك أفضل من ذلك كله؟ أن لا أذكر إلا ذُكرت معي، وجعلت صدور أمتك
 أناجيل يقرؤون القرآن ظاهراً، ولم أعطها أمة، وأعطيتك كنزاً من كنوز عرشي:
 لا حول ولا قوة إلا بالله».

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥٠﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥١﴾﴾ هذه بشارة
 للنبي ﷺ وأصحابه، فقد كان ﷺ في مكة في ضيق وشدة مما يواجهه من أذى
 المشركين له ولأصحابه، فقد فرج الله تعالى كل هذه الكربات ونجاه من
 المشركين، فكان المعنى: كما شرحنا لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك،
 ورفعنا لك ذكرك ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥٠﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥١﴾﴾ لأن المعرف إذا
 أعيد يكون الثاني عين الأول، وأما المنكر فهو غير الأول، لذلك في الآيتين
 يسران، وفيهما عسر واحد.

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ قال رسول الله ﷺ: «أبشروا أتاكم اليسر، لن يغلب عسر يسرين».

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: بعثنا رسول الله ﷺ ونحن ثلثمائة أو يزيدون، علينا أبو عبيدة بن الجراح، ليس معنا من الحمولة إلا ما نركب فزودنا رسول الله ﷺ جرابين من تمر، فقال بعضنا لبعض: قد علم رسول الله ﷺ أين تريدون وقد علمتم ما معكم من الزاد، فلو رجعتم إلى رسول الله ﷺ، فسألتموه أن يزودكم، فرجعنا إليه، فقال: «إني قد عرفت الذي جئتم له، ولو كان عندي غير الذي زودتكم لزودتكموه». فانصرفنا، ونزلت ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ﴿١﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٢﴾ فأرسل نبي الله إلى بعضنا، فدعاه، فقال: «أبشروا فإن الله قد أوحى إليّ ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٣﴾ ولن يغلب عسر يسرين».

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا فُرِغَتْ فَانْصَبْ﴾ ﴿٧﴾ أي إذا فرغت من عمل أعمالك النافعة فانصب، أي خذ في عمل آخر واتعب فيه، وذكر فيه أقوال كثيرة، منها إذا فرغت من دنياك فصل، وإذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل، وقيل: إذا فرغت من تبليغ الرسالة فاستغفر لذنبك وللمؤمنين، وقال العلماء: الحمل على العموم أولى. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني أكره أن أرى أحداكم فارغاً، لا في عمل الدنيا ولا في عمل الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَلِئَلَّكَ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ ﴿٨﴾ أي اجعل همك ورجبتك فيما عند الله تعالى، وتضرع إليه، وجأ إليه وحده، فهو ناصرك ومؤيدك. وقد حقق الله تعالى لنبيه ﷺ ما وعده فأيده بنصره وأظهر دعوته دعوة الحق، حتى خرج ﷺ من الدنيا قرير العين بما حقق الله تعالى من كمال الدين ورفعة الإسلام، وفيما يلي أخص في كلمات يسيرة لمحة من السيرة العطرة:

فقد بعث الله تعالى نبيه محمداً ﷺ على حين فترة من الرسل على رأس الأربعين من عمره فجاءه الوحي وهو يتعبد في غار حراء فأول ما نزل عليه قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ [العلق: ١ - ٥].

ثم ذهبت به خديجة رضي الله عنها إلى ورقة بن نوفل، وكان ورقة قد دخل في دين النصارى وعرف الكتاب، فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بما حصل له من الوحي، فقال ورقة: يا ليتني فيها جدعاً، يا ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أو مخرجي هم؟».

قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزرأ.

ثم أنزل الله تعالى على رسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَذِّبْ ﴿٣﴾ وَيَا بَلَّكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالزُّجُرْ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾﴾ [المدثر: ١ - ٥].

فقام صلى الله عليه وسلم بأمر ربه فبشر وأنذر فكان أول من أجابه من غير أهل بيته أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فبادر إلى التصديق به وقال: بأبي وأمي أهل الصدق أنت، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. وصار من دعاة الإسلام.

ثم نزل قوله تعالى: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر: ٩٤]. فصدع بأمر الله تعالى وجهر بدعوته، فجعلت قريش تسخر به وتستهزئ به ويؤذونه بالقول وبالفعل، وكان من أشد الناس إزاء له وسخرية به عمه أبو لهب، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ [المسد: ١].

حتى بلغ من إيذائهم له، أن ألقوا عليه فرث الناقة وسلاها وهو ساجد، فلم يقدر أحد على رفعه عنه، فلم يزل ساجداً حتى جاءت ابنته فاطمة فألقته فلما رأى صلى الله عليه وسلم استهانة قريش وشدة إيذائهم له ولأصحابه، خرج إلى أهل الطائف يدعوهم إلى الإسلام، فردوا عليه رداً قبيحاً وأغروا به غلمانهم وسفهاءهم يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه صلى الله عليه وسلم، فرجع عنهم ومد يد الافتقار إلى ربه فدعا بالدعاء المشهور:

(اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، أنت رب المستضعفين إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن يحل علي غضبك أو ينزل علي سخطك لك العتيبي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك).

ثم قِيَّضَ اللهُ له الأنصار فبايعوه على عبادة الله وحده لا شريك له وأن يمنعوه إذا قدم عليهم مما يمنعون منه نساءهم وإبناءهم.

فأذن الله تعالى لرسوله ﷺ بالهجرة، فهاجر في شهر ربيع الأول بعد ثلاث عشرة سنة من بيعته، وكان بصحبه أبو بكر فاختفيا في غار ثور ثلاثة أيام، والمشركون يطلبونهم من كل وجه، حتى كانوا يقفون على الغار الذي فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر. قال أبو بكر: يا رسول الله والله لو نظر أحدهم إلى قدمه لأبصرنا.

قال النبي ﷺ: «لا تحزن إن الله معنا، ما ظنك باثنين الله ثالثهما».

فنجى الله تعالى نبيه ﷺ وصاحبه من المشركين، وأخذ في طريق الهجرة فلما سمع الأنصار ذلك، جعلوا يخرجون كل يوم إلى حرة المدينة ليستقبلوا رسول الله ﷺ، حتى يردهم حر الظهيرة، فوصل يوم الاثنين ثاني عشر من ربيع الأول فكان ذلك اليوم هو أنور يوم وإشرفه فاستقبله المسلمون بفرح عظيم، وكبروا فرحاً بمقدمه المبارك وتلقوه بالبشرى وحيوه تحية النبوة وأحاطوا به والسكينة تغشاه والوحي ينزل عليه والله مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير، وخرجت المدينة بأسرها تستقبله والنساء والصبيان، الله أكبر هذا رسول الله هذا رسول الله، هذا نبي الرحمة، هذا ركب الهدى هذا الداعي البشير، هذا محمد صفوة الله في خلقه وكان الأنصار كل واحد يأخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ، يريد أن يكون نزوله عنده وهو يقول: «دعوها فإنها مأمورة».

حتى إذا أتت محل مسجده اليوم بركت، ثم قامت فسارت غير بعيد، ثم رجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه، ثم تحللت ووضعت جرانها، فنزل عنها ﷺ، وسكن دار أبي أيوب الأنصاري، حتى بنى مسجده ومسكنه.

وهكذا حل نبي الرحمة ورسول الهدى في دار الهجرة بين المهاجرين والأنصار، ومن هناك أضاءت شمس الرسالة المشارق والمغارب وجاء الحق وزهق الباطل ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩].

سُورَةُ التِّينِ

مكية وآياتها ثمان

عن البراء بن عازب: كان النبي ﷺ يقرأ في سفر في إحدى الركعتين بالتين والزيتون، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه. أخرجه الجماعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ⑤ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ⑥ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ⑦ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾ .

أقسم الله تعالى في مستهل هذه السورة بثلاثة أماكن شرفها الله تعالى بإنزال الوحي فيها على أنبيائه ورسله، فأقسم بشمريتين مباركتين إشارة إلى منبتهما وهو بيت المقدس، وأقسم بجبل الطور وبمكة المكرمة، على أنه ﷺ خلق الإنسان في أجمل صورة، وكمله بالعقل، والإرادة وغير ذلك من صفات الكمال، ثم إن الإنسان إذا لم يقيم بشكر نعمة ربه فسيرده إلى أسفل سافلين إلا من آمن وعمل الصالحات، فسينال ثواباً جزيلاً لا انقطاع له، ثم ختمت السورة بالإنكار على من كذب بالبعث بعد تقريره وإثباته.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ ① أقسم الله تعالى بهاتين الشمريتين: التين الذي يؤكل غذاء ودواء، والزيتون الذي يُتَعَدَّى بشمره، ويعتصر منه الزيت أدماً ودواء، وخصهما لما فيهما من المنافع، قال ابن عباس: هو تينكم الذي تأكلون، وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت. اهـ. ولعل في ذكرهما إشارة إلى فضل

منبتهما، وهو بيت المقدس، موطن رسول الله عيسى ابن مريم ومحل مولده ﷺ .
﴿وَطُورِ سَيْنِينَ﴾ (٢) وهو جبل الطور بسيناء، أقسم الله تعالى به لأنه
المكان المبارك الذي كلم الله عليه موسى ﷺ .

﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ (٣) وهو مكة المكرمة، أقسم الله به لكرامته وبعثه
نبيه محمد ﷺ منه، وهو بلد آمن وسلام من دخله كان آمناً، وبه المسجد
الحرام أول بيت وضع للناس وهدى للعالمين .

قال ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (١) : وقال بعض الأئمة: هذه محال ثلاثة بعث الله في
كل واحد منها نبياً مرسلأً من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار (فالأول)
محلة التين والزيتون وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن
مريم ﷺ . (والثاني) طور سينين وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن
عمران . (والثالث) مكة وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً وهو الذي
أرسل فيه محمداً ﷺ قالوا: وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة: جاء الله
من طور سيناء - يعني الذي كلم الله عليه موسى بن عمران - وأشرق من ساعير
- يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى - واستعلن من جبال فاران
- يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً ﷺ فذكرهم مخبراً عنهم على
الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان، ولهذا أقسم بالأشرف ثم
الأشرف منه ثم بالأشرف منهما. اهـ .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : فقوله تعالى (٢) : ﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ (١)
وَطُورِ سَيْنِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) إقسام منه بالأمكنة الشريفة المعظمة
الثلاثة . التي ظهر فيها نوره وهدها، وأنزل فيها كتبه الثلاثة: التوراة والإنجيل
والقرآن . كما ذكر الثلاثة في التوراة بقوله: جاء الله من طور سيناء، وأشرق
من ساعير، واستعلن من جبال فاران. اهـ .

وقال (٣) : وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي

(١) تفسير ابن كثير (٤/٥٦٣).

(٢) الجواب الصحيح (٥/٢٠٧).

(٣) الجواب الصحيح (٥/١٩٧).

مكة. فإن ادعوا أنها غير مكة - وليس ينكر ذلك من تحريفهم وإفكهم - قلنا: ليس في التوراة أن إبراهيم أسكن هاجر وإسماعيل فاران؟ وقلنا: دلونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران، والنبى الذي أنزل عليه كتاباً بعد المسيح. أو ليس استعلن وعلن بمعنى واحد وهما: ظهر وانكشف. فهل تعلمون ديناً ظهر ظهور الإسلام وفشا في مشارق الأرض ومغاربها فشوهه؟؟ اهـ.

وقال^(١): ولما كان ما في التوراة خبيراً عنها، أخبر بها على ترتيبها الزماني، فقدم الأسبق فالأسبق. وأما في القرآن، فإنه أقسم بها تعظيماً لشأنها، وذلك تعظيم لقدرته سبحانه وآياته وكتبه ورسله، فأقسم بها على وجه التدرج درجة بعد درجة، فختمها بأعلى الدرجات. فأقسم أولاً بالتين والزيتون، ثم بطور سنين، ثم بمكة؛ لأن أشرف الكتب الثلاثة القرآن ثم التوراة ثم الإنجيل، وكذلك الأنبياء. اهـ.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ﴿٤١﴾ هذا جواب القسم، أي خلقنا الإنسان كائناً في أحسن تقويم وتعديل، فالإنسان هو أجمل المخلوقات الأرضية، قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَاَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤] فخلق الله تعالى الإنسان في أحسن صورة وأجمل شكل وأبدع تكوين، وميزه بالعقل والإرادة والعلم، وجعل منهم الأنبياء والرسل والصدّيقين والمقربين والشهداء والصالحين، وكرّم الله تعالى الإنسان وسخر له كل شيء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ ﴿٧٥﴾ [الإسراء: ٧٥] وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿١٣١﴾ [الجاثية: ١٣].

رُوي أن بعض السلف كان يحب زوجته حباً شديداً، فقال لها يوماً: أنت طالقٌ ثلاثاً إن لم تكوني أحسن من القمر!! فاحتجبت عنه وقالت: طلقتنى، فحزن حزناً شديداً وذهب إلى الخليفة «المنصور» وأخبره الخبر، فاستحضر الفقهاء واستفتاهم، فقال جميع من حضر: قد طُلق، إلا رجلاً واحداً من

(١) نفس المصدر ص(٢٠٧).

أصحاب أبي حنيفة فقد بقى ساكناً فقال له المنصور: ما لك لا تتكلم؟ فقال له الرجل: يا أمير المؤمنين، يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فليس شيء أحسن من الإنسان، فقال: صدقت، وردها إلى زوجها.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أي رددناه إلى أرذل العمر كما قال تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَرُدُّكُمْ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ [النحل: ٧٠]، وقيل: معناها: ثم رددنا الكافر إلى النار، وسيأتي تقريره عند بيان نوع الاستثناء، ومن ثم فإنه قد يكون مِنَ النَّاسِ مَنْ تَعُودُ بِهِ حَالُهُ إِلَى أَنْ يَكُونَ أَسْفَلَ سَافِلِينَ بعد أن كان في الأعلى من الإيمان والعلم، نعوذ بالله من الحور بعد الكور.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ استثناء متصل من ضمير ﴿رَدَدْنَاهُ﴾ العائد على ﴿الْإِنْسَانَ﴾ أي إلا المؤمنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فإنهم لا يردون إلى أسفل سافلين يوم القيامة، بل يدخلون الجنة برحمة الله تعالى لتمسكهم بإيمانهم وبقائهم عليه حتى الموت ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ﴾ أي ثواب ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع أو غير ممنون به، مع أن الله تعالى له المنة على عباده في كل شيء.

وإن كان الرد المراد هو الرد إلى أرذل العمر وقد سبق بيانه فلا استثناء منقطع، ويحمل المعنى على الصالحين من الهرمى، فيكون المعنى: لكن الذين كانوا صالحين من الهرمى لهم ثواب دائم غير منقطع، أو غير ممنون به عليهم لصبرهم على ما ابتلوا به من الهرم والشيخوخة.

وربما كان في ذلك سبباً لعجزهم عن كثير من العبادات التي كانوا يؤدونها في شبابهم، وفيما يلي من الأحاديث والآثار ما يؤيد ذلك: أخرج أحمد والبخاري وابن حبان عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مرض العبد أو سافر كتب الله تعالى له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً» وفي رواية عنه: ثم قرأ ﷺ: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ أخرج الطبراني عن شداد بن أوس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تبارك وتعالى يقول: إذا ابتليت عبداً من عبادي مؤمناً فحمدني على ما ابتليته فإنه يقوم من مضجعه كيوم ولدته أمه من الخطايا، ويقول الرب ﷻ: إني أنا قيدت عبدي هذا وابتليته فأجروا له ما كنتم تجرون له قبل ذلك».

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿١﴾﴾ قال: في أعدل خلق ﴿ثُمَّ رَدَدْتُهُ أَسْفَلَ سَفَلِينَ ﴿٢﴾﴾ يقول: إلى أرذل العمر ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾﴾ غير منقوص. يقول: فإذا بلغ المؤمن أرذل العمر، وكان يعمل في شبابه عملاً صالحاً كتب الله له من الأجر مثل ما كان يعمل في صحته وشبابه، ولم يضره ما عمل في كبره، ولم يكتب عليه الخطايا التي يعمل بعد ما يبلغ أرذل العمر.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿١﴾﴾ قال: خلق كل شيء منكياً على وجهه إلا الإنسان ﴿ثُمَّ رَدَدْتُهُ أَسْفَلَ سَفَلِينَ ﴿٢﴾﴾ إلى أرذل العمر ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية قال: فأیما رجل كان يعمل عملاً صالحاً وهو قوي شاب فعجز عنه جرى له أجر ذلك العمل حتى يموت.

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس قال: من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر وذلك قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْتُهُ أَسْفَلَ سَفَلِينَ ﴿٢﴾﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٣﴾ قال: إلا الذين قرؤوا القرآن.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة قال: كان يقال: من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر، ثم قرأ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿١﴾﴾ ثُمَّ رَدَدْتُهُ أَسْفَلَ سَفَلِينَ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٣﴾ قال: لا يكون حتى لا يعلم من بعد علم شيئاً.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿ثُمَّ رَدَدْتُهُ أَسْفَلَ سَفَلِينَ ﴿٢﴾﴾ قال: الهرم لم يجعل فيه قوة ما كان ﴿لِيَكُنْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ [النحل: ٧٠] قال: ولا ينزل تلك المنزلة أحد قرأ القرآن، وذلك قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآية. قال: هم أصحاب القرآن.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ثُمَّ رَدَدْتُهُ أَسْفَلَ سَفَلِينَ ﴿٢﴾﴾ يقول: إلى الكبر وضعفه فإذا ضعف وكبر عن العمل كتب له مثل أجر ما كان يعمل في شبابه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالَّذِينَ ﴿٧﴾﴾ أي أي شيء يحملك على التكذيب أيها الإنسان بعد هذا البيان ﴿بِالَّذِينَ﴾ أي الجزاء بعد الموت وفيه إشارة إلى ما سبق بيانه وإثباته من دلائل قدرة الله تعالى على خلق كل شيء ومن جملته الإنسان على وجه الإبداع والإيجاد من العدم، أفبعد ظهور هذه الدلائل والحجج الواضحة يكون هناك مجال للتكذيب؟ وأي شيء يحملك ويضطرك على ذلك أيها الإنسان الضعيف؟ أفلا يكفي أن ينظر الإنسان إلى نفسه وأصله وخلقته؟ وكيف يرى ويفكر ويتكلم ويحب ويكره، وغير ذلك، ومن الذي أقدره على ذلك؟ ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿١١﴾﴾ [الذاريات: ٢١].

ثم بعد هذا التقرير العظيم والحق الجلي، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ الْحَكِيمِينَ ﴿٨﴾﴾ استفهام تقرير، يقرر الله تعالى أنه أحكم الحاكمين قدراً وشرعاً، وله الحكم وإليه يرجع الأمر كله. ويستحب أن يقول من قرأ هذه السورة: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين، للآثار الآتية:

أخرج الترمذي وابن مردويه عن أبي هريرة يرويه: «من قرأ ﴿وَالَّذِينَ وَالزَّيْتُونَ﴾ ﴿١١﴾ فقرأ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ الْحَكِيمِينَ ﴿٨﴾﴾ فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين».

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ الْحَكِيمِينَ ﴿٨﴾﴾ قال: ذكر لنا أن نبي ﷺ كان يقول: «بلى وأنا على ذلك من الشاهدين».

سُورَةُ الْعَلَقِ

مكية وآياتها تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْجَلَ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَمْ يَعْلَمُ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْهَ لَنْتَعْتَمَ بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِبَةٍ ﴿١٦﴾ فَيَلْبَعُ نَاصِيَةً ﴿١٧﴾ سَنَدَعُ الزَّيْنَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا نُطِيعُ مَا نَسَجَدُ لِأَقْرَبٍ ﴿١٩﴾﴾ .

صدر هذه السورة هو أول ما نزل من القرآن كما صحت بذلك الأخبار، على أن أول سورة نزلت كاملة هي الفاتحة ويروى غير ذلك وتضمنت هذه السورة تلقين النبي ﷺ الكلام القرآني، إذ لم يكن ﷺ يعرف التلاوة من قبل، وفي ذلك المعجزة العظيمة له ﷺ، كما أن هذه السورة رفعت شأن القراءة والتعلم، إذ أول كلمة ﴿أَقْرَأْ﴾ لأن القراءة مفتاح العلم، وتشير السورة إلى أن الثراء والقوة قد يدفعان النفوس إلى مجاوزة حدود الله تعالى، والعاقبة للمتقين، إذ المرجع إليه تعالى فيجازي كلاً بعمله، وفيها تهديد للطغاة الذين يصدون عن الحق بأشد العذاب، وذلك بأن يؤخذ بنواصيهم ويقذفون في النار المحرقة، ولا ناصر لهم من سطوة الجبار، ثم ختمت السورة بأمر النبي ﷺ وأتباعه بعدم الالتفات إلى أولئك الطغاة الصادين عن عبادة الله تعالى، ثم أمرت بالتقرب إلى الله تعالى بما شرع.

وفي كون أول آيات هذه السورة هو أول ما نزل من القرآن العظيم نورد هذا الحديث الصحيح:

أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وابن جرير وابن الأنباري في المصاحف وابن مردويه والبيهقي من طريق ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: ﴿اقْرَأْ﴾ قال: «قلت: ما أنا بقارئ». قال: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④﴾ الآية»، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: «زملوني زملوني». فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي».

فقال خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزيز - ابن عم خديجة - وكان امرئ قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى، يا ليتني أكون فيها جذعاً، يا ليتني أكون فيها حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أو مخرجي هم؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزرأ.

ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتى الوحي . قال ابن شهاب : وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي ، فقال في حديثه : «بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فرعبت منه ، فرجعت ، فقلت : دثروني» . فأنزل الله ﴿يَأْتِيهَا الْمَدْيِرُ ﴿١﴾﴾ [المدثر: ١ - ٥] . فحمي الوحي وتتابع .

قوله تعالى : ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾﴾ هذا أمر من الله تعالى إلى نبيه ﷺ أن يقرأ ما يوحي إليه من ربه تعالى مفتتحاً باسم الخالق ﷻ ، الذي برأ وذراً وفطر وأنشأ وأوجد كل شيء ، كما قال تعالى : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ٢] وكقوله تعالى : ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: ٦٢] .

وبعد أن ذكر الله تعالى أنه خلق كل شيء خصص خلق الإنسان بالذكر تكريماً له وتشريفاً ، لأنه أشرف المخلوقات الأرضية وإليه التنزيل وهو الأمور بالقراءة فقال تعالى : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ العلق جمع علقة ، وهي تشبه الدودة الصغيرة ، وقد أثبت الطب الحديث أن النطفة التي خلق منها الإنسان تحتوي على حيوانات منوية تشبه الديدان الصغيرة لها رأس وذنب ، لا ترى بالعين المجردة وإنما بالمجهر ، وأصل الإنسان من تراب ، حيث خلق آدم من تراب ونسله من نطفة من ماء مهين ، ثم يتحول إلى علقة ثم إلى مضغة ، أي قطعة لحم ، ثم يخلق الله كما يشاء .

ثم كرر الأمر بالقراءة للتأكيد والتقرير فقال تعالى : ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾ أي افعل ما أمرت به من القراءة ، وجملة ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ مستأنفة لإزاحة ما اعتذر به النبي ﷺ من قوله : «ما أنا بقارئ» أي لست متعلماً للقراءة ، فقيل له : اقرأ وربك الذي أمرك بالقراءة هو الأكرم . و﴿الأكرم﴾ الذي لا يوازيه كرم ، فيقبل العمل القليل ، ويعطي عليه الأجر الجزيل ، كما في مضاعفة الحسنات ، الحسنات بعشر أمثالها إلى أضعاف كثيرة ، مثل من قرأ ﴿العر﴾ ﴿١﴾ ثلاثة أحرف بثلاثين حسنة أو تضاعف ، وغير ذلك من الكرم ، حيث يحلم عن جهل العباد ، فلا يعجل بعقوبتهم ، ولا نهاية لكرمه ﷻ .

فهو سيعينك على تلاوة ما يوحى إليك وأنت أمي، ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُمُ بِإِيمَانِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ أي علم الإنسان الخط والكتابة بالقلم.

وقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أي علم الإنسان ما لم يكن يخطر بباله، وكل ما وصل أو يصل إليه الإنسان من العلوم والمعارف الاكتشافات إنما هو بتعليم الله تعالى له. فالحمد لله.

وفيما يلي أورد ما قاله الإمام ابن القيم رحمته الله في كتابه «مفتاح دار السعادة» (٢٧٨/١) حول هذه الآيات:

قال الإمام ابن القيم رحمته الله: تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيان، البيان النطقى والبيان الخطي، وقد اعتد بهما سبحانه في جملة ما اعتد به من نعمة على العبد. فقال في أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ فتأمل كيف جمع في هذه الكلمات مراتب الخلق كلها، وكيف تضمنت مراتب الوجودات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه. فذكر أولاً عموم الخلق وهو إعطاء الوجود الخارجي. ثم ذكر ثانياً خصوص خلق الإنسان لأنه موضع العبرة. والآية فيه عظمة. ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم. وذكر مادة خلقه ههنا من العلق. وفي سائر المواضع يذكر ما هو سابق عليها. أما مادة الأصل وهو التراب والطين أو الصلصال الذي كالفخار، أو مادة الفرع وهو الماء المهيّن. وذكر في هذا الموضع أول مبادئ تعلق التخليق وهو العلق. فإنه كان قبلها نطفة فأول انتقالها إنما هو إلى العلق. ثم ذكر ثالثاً التعليم بالقلم الذي هو من أعظم نعمه على عباده. إذ به تخلد العلوم وتثبت الحقوق وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس، وبه تقيد أخبار الماضين للباقيين اللاحقين. ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، ودرست السنن وتخبطت الأحكام، ولم يعرف الخلق مذاهب السلف.

وكان معظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودنياهم، إنما يعترتهم

من النسيان الذي يمحو صور العلم من قلوبهم. فجعل لهم الكتاب وعاء حافظاً للعلم من الضياع، كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان. فنعمة الله ﷻ بتعليم القلم بعد القرآن، من أجلّ النعم. والتعليم به، وإن كان مما يخلص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة، فإن الذي بلغ به ذلك وأوصله إليه عطية وهبها الله منه، وفضل أعطاه الله إياه، وزيادة في خلقه وفضله. فهو الذي علمه الكتابة، وإن كان هو المتعلم ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم. فإنه علمه فتعلم. كما أنه علمه الكلام فتكلم. هذا، ومن أعطاه الذهن الذي يعي به، واللسان الذي يترجم به والبنان الذي يخط به، ومن هياً ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات، ومن الذي أنطق لسانه وحرك بنانه، ومن الذي دعم البنان بالكف، ودعم الكف بالساعد. فكم لله من آية نحن غافلون عنها في التعليم بالقلم.

فقف وقفة في حال الكتابة وتأمل حالك وقد أمسكت القلم وهو جماد، ووضعتة على القرطاس وهو جماد، فتولد من بينهما أنواع الحكم وأصناف العلوم وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر، وجوابات المسائل. فمن الذي أجرى فلك المعاني على قلبك، ورسمها في ذهنك، ثم أجرى العبارات الدالة عليها على لسانك، ثم حرك بها بنانك حتى صارت نقشاً عجيباً، معناه أعجب من صورته، فتقضي به مآربك وتبلغ به حاجة في صدرك، وترسله إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة، فيقوم مقامك، ويترجم عنك. ويتكلم على لسانك ويقوم مقام رسولك، ويجدي عليك ما لا يجدي من ترسله، سوى من علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم؟ والتعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاثة: مرتبة الوجود الذهني، والوجود اللفظي، والوجود الرسمي. فقد دل التعليم بالقلم على أنه سبحانه هو المعطي لهذه المراتب.

ودل قوله: ﴿خَلَقَ﴾ على أنه يعطي الوجود العيني. فدلّت هذه الآيات، مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها، على أن مراتب الوجود بأسرها مسندة إليه تعالى خلقاً وتعليماً. وذكر خلقين وتعليمين خلقاً عاماً وخلقاً خاصاً. وتعليماً خاصاً وتعليماً عاماً. وذكر من صفاته ههنا اسم ﴿الْأَكْرَمُ﴾ الذي هو فيه كل خير وكل كمال. فله كل كمال وُضْفاً، ومنه كل خير فعلاً. فهو ﴿الْأَكْرَمُ﴾ في

ذاته وأوصافه وأفعاله. وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه، لا من حاجة دعت إليه ذلك، وهو الغني الحميد. انتهى كلامه ﷺ.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا كَافِرٌ﴾ (٧) أي حقاً إن الإنسان ليتجاوز حده، ويستكبر على ربه إن رأى نفسه استغنت بمال أو قوة أو أعوان.

وأصل ﴿كَلَّا﴾ أنها أداة ردع وزجر، وذلك إذا تقدمها ما يقتضي ذلك، وهي هنا بمعنى حقاً لعدم تقدم كلام يقتضي الردع والزجر، لأن الآيات الخمس الأولى نزلت في أول ما نزل على ما أسلفنا، وما بعد ﴿كَلَّا﴾ نزل بعد ذلك بفترة طويلة، مع أنه يجوز أن تكون ﴿كَلَّا﴾ هنا ردعاً لمن قال أو عمل ما يستحق الردع، والآيات نزلت في أبي جهل خاصة، وحكمها عام في كل من اتصف بما ذكر من الطغيان والاعتزاز بما وهبه الله تعالى من الصحة والغنى والجاه والعز ثم يستكبر وينسى فضل الله عليه، أما المؤمن فيخرج من ذلك، فهو مفتقر إلى الله تعالى دائماً ولا يستغني عنه طرفة عين، ولا أقل من ذلك.

أخرج أحمد ومسلم والنسائي وغيرهم عن أبي هريرة: أن أبا جهل حلف بالللات والعزى لئن رأى رسول الله ﷺ يصلي ليطأن على رقبته وليعفرن وجهه، فأتى رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو يصلي ليفعل، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبه، ويتقي بيديه، فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخذقاً من نار، وهولاً، وأجنحة؛ فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة، عضواً عضواً» وأنزل الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا كَافِرٌ﴾ إلى آخر السورة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ (٨) أي المرجع والمآب في الآخرة إلى الله تعالى وحده وسيحاسب كلأ بعمله، وفيه تهديد وتحذير لذلك الإنسان من عاقبة الطغيان، وهو عام لكل طاع متكبر.

وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَدْعُوا عِبَادًا إِذَا صَلَّى﴾ (٩) أي يمنعه عن

(١) الاستفهام للتعجيب، أي ألا تعجب من حال هذا الشقي الضال الذي ينهى عن عبادة الله تعالى.

الصلاة وهو لا يستطيع غير النهي، والناهي هو أبو جهل، والعبد المصلي هو النبي محمد ﷺ، وقد كان أبو جهل يلقب في قریش بأبي الحكم، لأنهم يتحاكمون إليه ويرضون بحكمه فاغتر بنفسه وكابر ولم يسلم، فسماه النبي ﷺ أبا جهل، ومات كافراً في غزوة بدر الكبرى، وكما تقدم في الحديث أنه توعد النبي ﷺ إن رآه يصلي ليطأن رقبتة، ولما أراد أن ينفذ منعه الله تعالى ورد كيده في نحره. وفيه تشنيع وتقبیح لفعل ذلك الكافر الذي ينهى عن عبادة الله تعالى حتى كأنه بحيث يراه كل من تتأتى منه الروية. وقد بلغ من حذر السلف ما روي عن علي رضي الله عنه أنه رأى في المصلي أقواماً، يصلون قبل صلاة العيد، فقال: ما رأيت رسول الله ﷺ يفعل ذلك، ف قيل له: ألا تنهاهم عن هذا؟ فقال: أخشى أن أدخل تحت قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿١٠﴾﴾ وقال أبو يوسف لأبي حنيفة رضي الله عنه: أيقول المصلي حين يرفع رأسه من الركوع: اللهم اغفر لي قال: يقول: «ربنا لك الحمد» ويسجد، ولم يصرح له بالنهي خشية النهي عن الخير.

وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴿١١﴾﴾ أي العبد المنهي وهو محمد ﷺ ﴿أَوْ أَمَرَ بِالْقَوْلِ ﴿١٢﴾﴾ يعني بالإخلاص والتوحيد ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ﴾ يعني أبا جهل، كذب بما جاء به الرسول ﷺ ﴿وَتَوَلَّى﴾ أعرض عن الإيمان، والتقدير: رأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى وهو على الهدى أمر بالتقوى، والناهي مكذب متول عن الإيمان، فما أعجب من هذا.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَلْمُ﴾ يعني أبا جهل ومن مثله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ أي إن الله تعالى يرى ذلك الفعل فيجزيه به، وفيه وعيد شديد وتهديد عظيم.

ثم قال تعالى متوعداً ومهدداً ذلك الناهي عن الصلاة ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ﴾ أي لئن لم يكف ذلك الشقي عما هو فيه من الشقاق والعناد ﴿لَسَنَعْمًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ السفع هو الجذب بشدة. والمعنى لناخذن بناصيته، وهي مقدمة شعر الرأس ولنسحبته إلى النار، فيقذف فيها. كما قال تعالى: ﴿فِيؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

وقيل: المراد: لنسحبته على وجهه في الدنيا يوم بدر، وفيه بشارة بأنه تعالى يمكن المسلمين من ناصيته حتى يجروه إن لم ينته؛ وقد فعل ﷺ، فقد

رُوي أنه لما نزلت سورة الرحمن قال ﷺ: «من يقرأها على رؤساء قريش؟»
 فقام ابن مسعود وقال: أنا يا رسول الله؛ فلم يأذن له عليه الصلاة والسلام
 لضعفه وصغر جثته، حتى قالها ثلاثاً، وفي كل مرة كان ابن مسعود يقول: أنا
 يا رسول الله؛ فأذن له صلى الله تعالى عليه وسلم، فأتاهم وهم مجتمعون
 حول الكعبة فشرع في القراءة، فقام أبو جهل فلطمه، وشق أذنه وأدماه، فرجع
 وعيناه تدمعان، فنزل جبريل ﷺ ضاحكاً، فقال له صلى الله تعالى عليه وسلم
 في ذلك، فقال ﷺ: «ستعلم»؛ فلما كان يوم بدر قال عليه الصلاة والسلام:
 «التمسوا أبا جهل في القتلى» فرآه ابن مسعود مصروعاً يخور، فارتقى على
 صدره، ففتح عينيه فعرفه، فقال: لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويي الغنم؛
 فقال ابن مسعود: الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فعالج قطع رأسه، فقال
 اللعين: دونك فاقطعه بسيفي، فقطعه ولم يقدر على حمله، فشق أذنه، وجعل
 فيه خيطاً، وجعل يجره، حتى جاء به إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه
 وسلم، فجاء جبريل ﷺ يضحك ويقول: يا رسول الله! أذن بأذن والرأس
 زيادة.

وقوله تعالى: ﴿نَاصِبٍ كَذِبٍ خَاطِئٍ﴾ (١١) وهي ناصية أبي جهل ومن مثله،
 كاذبة في مقالها خاطئة في فعالها، قال ابن عباس: لما نهى أبو جهل
 رسول الله ﷺ عن الصلاة انتهره رسول الله ﷺ، فقال أبو جهل: أنتنهرني؟
 فوالله لأملأن عليك هذا الوادي إن شئت خيلاً جرداً ورجالاً مردأ، قال الله ﷻ:
 ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ (١٧) أي قومه وعشيرته وأهل ناديه فليستنصر بهم ﴿سَدَّعُ الزَّيْبَانَةَ﴾
 (١٨) أي خزنة جهنم وهم الملائكة الغلاظ الشداد حتى يعلم من يغلب أحزبنا
 أم حزبه ﴿كَلَّا لَا تُطْعَمُهُ﴾ أي لا تطع يا محمد هذا الشقي فيما دعاك إليه من
 ترك الصلاة وصل في المسجد الحرام وحيث شئت فإن الله حافظك وناصرك
 ويعصمك من الناس.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ أي صل لربك وتقرّب منه بالعبادة،
 وتحبب إليه بالطاعة.

وفي صحيح مسلم مرفوعاً: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد،
 فأكثرُوا من الدعاء».

وسجدة التلاوة في هذه السورة من الأمور الثابتة فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سورة ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ .

ومن الذكر الوارد في سجود التلاوة أن يقول الساجد حال سجوده: «سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره بحوله وقوته، فتبارك الله أحسن الخالقين، اللهم اكتب لي بها أجراً، وامح عني بها وزراً، وارفعني بها درجة، وأبقها لي عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلها مني كما تقبلتها من عبدك ونبيك داود» .

سُورَةُ الْقَدْرِ

مكية وآياتها خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُوتُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطَلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾

من نعم الله تعالى على أمة محمد ﷺ أن جعل لها مواسم ونفحات، فخير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، وأعظم الأيام يوم عرفة وأفضل الليالي ليلة القدر التي جعل الله العمل فيها خيراً من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، واختصها ببدء نزول القرآن فيها، ورفع قدرها وشرفها وجعلها محلاً لاستجابة دعاء عباده المؤمنين، ووقتاً لنزول ملائكته الأبرار حتى طلوع الفجر، فيا لها من ليلة عظيمة القدر، رفيعة الشأن بما منحها الله تعالى من التفضيل، يغفر ذنب من قامها إيماناً واحتساباً وهي في شهر رمضان المبارك، في الأوتار من العشر الأواخر، فجدير بالمسلم أن يتحراها، ويبحث عن أرجى أوقاتها، وذلك في كتب السنة، وهذه السورة تتحدث عن ليلة القدر، فتأمل يا عبد الله، قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾ أي القرآن الكريم، أنزله الله تعالى ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم نزل منجماً حسب الأحداث في ثلاث وعشرين سنة.

(١) ﴿مَطَلَعِ﴾ قرأ الكسائي وخلف العاشر في اختياره بكسر اللام، وقرأ الباقون بفتح اللام.

قال ابن عباس وغيره: أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصلاً حسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ. اهـ.

وَوُصِفَتْ لَيْلَةُ الْقَدْرِ بِالْمُبَارَكَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ﴾ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿١﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٢﴾ [الدخان: ٣ - ٤] أي هي ليلة ذات شرف رفيع، وقدر عظيم، ويقدر فيها ما يكون في السنة القابلة. وكانت في شهر رمضان لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ تعظيم وتفخيم لشأنها، أي وما الذي يعلمك مبلغ شأنها، وتعظيم قدرها، ثم قال: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي العمل الصالح فيها من صلاة ودعاء وتسبيح وغير ذلك خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وهذا معناها عند الجمهور، وقيل: عنى بألف شهر جميع الدهر، لأن العرب تذكر الألف في غاية الأشياء، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ أُحُدْهُمْ تَوَاعَىٰ أَلْفٌ سَكَنُوا﴾^(١) [البقرة: ٩٦]، وقيل: إنه ذكر للنبي ﷺ رجل من بني إسرائيل حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله تعالى ألف شهر، فعجب رسول الله ﷺ لذلك، وتمنى ذلك لأمته، فقال: يا رب جعلت أمتي أقصر الأمم أعماراً، وأقلها أعمالاً، فأعطاه الله ليلة القدر.

وقيل غير ذلك، لكن المعنى لا يخرج عن فضل ليلة القدر على سائر الأيام والشهور، وأن العمل فيها خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه» [متفق عليه].

وفي صحيح ابن خزيمة والبيهقي وأبو الشيخ وابن حبان رحمهم الله عن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ في آخر يوم

(١) يعني: جميع الدهر.

من شعبان فقال: «يا أيها الناسُ قد أظلكم شهرٌ عظيمٌ مبارك فيه ليلةٌ خيرٌ من ألف شهر، جعل الله صيامه فريضةً، وقيامَ ليلِهِ تطوعاً، من تطوع فيه بخصلة من خصال الخير كان كَمَن أدى فريضةً فيما سواه، ومن أدى فيه فريضةً كان كَمَن أدى سبعين فريضةً فيما سواه، وهو شهرُ الصبر، والصبرُ ثوابُه الجنة، وشهر المواساة، وشهرٌ يُزادُ فيه رزق المؤمن، مَنْ فَطَرَ فيه صائماً: كان مغفرةً لذنوبه، وَعَثَقَ رَقَبَتِهِ مِنَ النَّارِ، وكان له مِثْلُ أَجْرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِهِ شَيْءٌ»، قالوا: يا رسول الله، ليس كلنا يجد ما يُفَطِّرُ بِهِ الصائِمَ، فقال رسول الله ﷺ: «يعطي الله هذا الثوابَ لمن فطر صائماً على تمرَةٍ أو شربةِ ماءٍ أو مَدَقَّةِ لَبَنٍ، وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار».

والجمهور على أنها في كل رمضان، روى البخاري عن عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان في تاسعة تبقى في سابعة تبقى في خامسة تبقى» فسره كثيرون بليالي الأوتار وهو أظهر.

وروى الإمام أحمد - بسنده - عن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر، فقال رسول الله ﷺ: «في رمضان فالتمسوها في العشر الأواخر فإنها في وتر إحدى وعشرين أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين أو سبع وعشرين أو تسع وعشرين أو في آخر ليلة». وروى الترمذي والنسائي - بسنديهما - عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال: «في تسع يبقين أو سبع يبقين أو خمس يبقين أو ثلاث أو آخر ليلة». يعني: التمسوا ليلة القدر؛ وقال الترمذي: حسن صحيح.

وثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ رأى ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر من رمضان، فقال رسول الله ﷺ: «أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر» وفيهما عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان» وروى البخاري في صحيحه عن عبادة بن الصامت قال: خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر، فتلاحي رجلاً من المسلمين، فقال: «خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحي

فلان وفلان فرفعت وعسى أن يكون خيراً لكم فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة».

وقوله: «فتلاحى فلان وفلان فرفعت» فيه استثناس لما يقال: إن الممارسة تقطع الفائدة والعلم النافع، كما جاء في الحديث: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» وقوله: «فرفعت» أي رفع علمُ تعيينها لكم، لا أنها رفعت بالكلية من الوجود كما يقول جهلة الشيعة، لأنه قد قال بعد هذا: «فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة»، وقوله: «وعسى أن يكون خيراً لكم» يعني عدم تعيينها لكم، فإنها إذا كانت مبهمة اجتهد طلابها في ابتغائها في جميع محال رجائها، فكان أكثر للعبادة، بخلاف ما إذا علموا عينها فإنها كانت الهمم تتقاصر على قيامها فقط، وإنما اقتضت الحكمة إبهامها لتعم العبادة جميع الشهر في ابتغائها، ويكون الاجتهاد في العشر الآخر أكثر؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان، حتى توفاه الله ﷻ، ثم اعتكف أزواجه من بعده، أخرجاه - البخاري ومسلم - من حديث عائشة؛ ولهما عن ابن عمر: كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان؛ وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر أحيا الليل. وأيقظ أهله وشد المئزر؛ أخرجاه. ولمسلم عنها: كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره، ... والمستحب الإكثار من الدعاء في جميع الأوقات، وفي شهر رمضان أكثر، وفي العشر الأخيرة منه، ثم في أوتاره أكثر؛ والمستحب أن يكثر من هذا الدعاء: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني... عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله! رأيت إن علمت أي ليلة، ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني» وهذا لفظ الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه الحاكم من مستدرکه وقال: هذا صحيح على شرط الشيخين.

وقد أخفيت ليلة القدر في شهر رمضان ليجتهد المسلمون رمضان كله، فتزيد حسناتهم، كما أخفيت الصلاة الوسطى في الصلوات ليحافظ على الكل، والاسم الأعظم في أسمائه ﷺ ليدعى بالجميع ورضاه في طاعته ليحرص العبد على جميع الطاعات، وغضبه في معاصيه لينزجر عن الكل، وساعة

الإجابة في يوم الجمعة ليجتهد سائر اليوم، والولي في المؤمنين ليحسن الظن بكل منهم، وأجل الإنسان ليكون دائماً على أهبة، وغير ذلك مما في إخفائه حكمة بالغة، وفائدة جمة.

ومما يقال من علاماتها أن الشمس تصبح لا شعاع لها صبيحتها، وسكون البحر ليلتها، وأنها ليلة بلجة صافية ولا يسمع فيها نباح الكلاب، وغير ذلك، والله أعلم.

وقيل أيضاً: إنه من المعلوم أن عدد كلمات السورة ثلاثون كأيام رمضان، واتفق أن كلمة ﴿هِيَ﴾ تمام سبع وعشرين، وقيل: إن حروف ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ تسعة، وقد ذكرت في السورة ثلاث مرات، وثلاثة في تسعة بسبع وعشرين. والموفق من وفقه الله تعالى.

وبعد أن بين الله تعالى مكانة ليلة القدر وأنها خير من ألف شهر بين نوعاً آخر من فضلها فقال تعالى: ﴿نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ إلى الأرض أفواجا في ليلة القدر ﴿وَالرُّوحُ﴾ أي جبريل ﴿فِيهَا﴾ في ليلة القدر ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي يأمر ربهم ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ من الخير والبركة ﴿سَلُّهُ هِيَ﴾ أي هي سلام من كل شر، فهي خير كلها من غروب الشمس إلى طلوع فجرها، فكلها سلام، سلام الملائكة على المؤمنين، وسلامة من كل شر، فنسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه، ويجعلنا من الذين يتعرضون لنفحات الخير ويفوزون بها.

سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ

مدنية وآياتها ثمان آيات

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾» قال: وسماني لك، قال: «نعم»، فبكى. ورواه البخاري ومسلم. وفي رواية الإمام أحمد عن أبي حبة البدري قال: لما نزلت: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال جبريل: يا رسول الله، إن ربك يأمرك أن تقرئها أبيتاً. فقال النبي ﷺ لأبي: «إن جبريل أمرني أن أقرأك هذه السورة». قال أبي: وقد ذكرتُ ثم يا سول الله؟ قال: «نعم». قال: فبكى أبيتاً.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾
 ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَأْتِيهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ الْقِسْمَةُ ﴿٣﴾ وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوْتُوا
 الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
 حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
 الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ
 آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَسِيَ رَبُّهُ ﴿٨﴾

هذه السورة تسمى البينة أو البرية، أو لم يكن، وهي مدنية، نزلت على رسول الله ﷺ وهو بين أهل كتاب ومشركين، فجاءت تصور واقعهم، إذ علم أهل الكتاب من كتبهم نعوت خاتم النبيين ﷺ، وعلم منهم المشركون ذلك،

فكان مقتضى ذلك أن يؤمنوا إذا بعث، ولكنهم كذبوا لما بعث فيهم سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه، جاءهم مؤيداً بالقرآن العظيم، والحجج البينة، فكفروا وكذبوا، واتبع الوثنيون الكتابيين، فخابوا وخسروا، وجاء الرد عليهم في هذه السورة ببيان أن ما جاء به النبي ﷺ حق لا مرية فيه، وتوعد الكافرين من أهل الكتاب والمشركين ووصفهم بأنهم شر البرية، وبالمقابل يكون خير البرية الذين آمنوا واتقوا، وبين مآل الفريقين.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ﴾ أي لم يكن الذين جحدوا رسالة رسول الله محمد ﷺ وأنكروا نبوته من اليهود والنصارى والمشركين تاركين لما هم عليه من الكفر والشرك ومنفصلين عنه ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْآيَةُ﴾ أي الحجة الواضحة، وهي هنا النبي محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ وهو محمد ﷺ خاتم الأنبياء والرسل، الذي أرسله الله تعالى إلى العالمين بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ وهي صحف القرآن المطهرة من الخلط والزيغ والتدليس، يتلوها النبي ﷺ لنفسه وللناس عن ظهر قلب ﴿فِيهَا﴾ أي في هذه الصحف ﴿كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ أي الآيات والأحكام المكتوبة فيها عادلة مستقيمة، غير ذات عوج، واستقامة الكتب اشتمالها على الحق الذي لا يميل إلى باطل ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، والكتب التي في صحف القرآن ومصاحفه، إما أن تكون هي ما صح من كتب الأولين كموسى وعيسى وغيرهما، مما حكاها الله في كتابه عنهم. فإنه لم يأت منها إلا بما هو قوي سليم. وقد ترك حكاية ما لبس فيه الملبسون إلا أن يكون ذكره لبيان بطلانه. ولهذا لم يجد الجاحدون لرسالته ﷺ من أهل الكتاب سبيلاً إلى إنكار الحق، وإنما فضلوا عليه سواء. أو هي سور القرآن، فإن كل سورة من سوره، كتاب قويم. فصحف القرآن أو صحائفه وأوراق مصحفه تحتوي على سور من القرآن هي كتب قيمة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿إِلَّا

مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴿ أَي الْحِجَّةِ الْوَاضِحَةِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْمَوْعُودُ فِي كِتَابِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ مِثْلَ النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحِشْيَةِ مِنَ النَّصَارِيِّ، وَمِنَ الْيَهُودِ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ ﷺ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَهُمْ الْغَالِبِيَّةُ، كَذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ، فَكَانَ الْجَمِيعُ كَانَ عَازِماً عَلَى تَصْدِيقِ النَّبِيِّ الْخَاتَمِ الَّذِي أَظْلَمَ زَمَانُهُ، فَلَمَّا بَعَثَ سَيِّدَ الْخَلْقِ ﷺ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا بَغْياً وَحَسْداً ﴿ وَمَا أُمُورٌ ﴾ أَي وَالْحَالُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مَا أَمَرُوا بِلِسَانِ أَنْبِيَائِهِمْ وَكِتَابِهِمْ ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أَي جَاعِلِينَ دِينَهُمْ خَالِصاً لِلَّهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ بِتَنْقِيَّتِهِ مِنْ كُلِّ الشَّوَابِ، وَالْإِخْلَاصُ هُوَ تَجْرِيدُ قَصْدِ التَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَنْ جَمِيعِ الشَّوَابِ، أَوْ هُوَ تَصْفِيَةُ الْأَعْمَالِ مِنْ جَمِيعِ الْكَدُورَاتِ، وَالْأَهْمِيَّةُ الْإِخْلَاصُ أورد هذه الكلمات الوجيزة عنه كنصيحة لي وإخواني المسلمين.

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: رأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر، ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا شيء له» فأعادها ثلاث مرات، ويقول رسول الله ﷺ: «لا شيء له» ثم قال: «إن الله ﻻ يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه» [رواه النسائي بإسناد حسن].

وقد نص القرآن والحديث على أن الإخلاص شرط لقبول العمل الصالح الموافق لسنة رسول الله ﷺ، والإخلاص حُلُقٌ إسلامي كريم، له مقداره عند الله تعالى، وله آثاره في الناس، فإن الله لا يقبل الأعمال ويرتضيها إلا إذا كانت خالصة لوجهه الكريم، فإذا خلت من الإخلاص له ﷺ كانت كعدمها، فالإخلاص هو المقياس في قبول الأعمال أو ردها، فَمَنْ أَخْلَصَ نِيَّتَهُ لِلَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ الْعِبَادَاتِ وَرَاقِبَهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، يَسِّرَ اللَّهُ لَهُ الْأُمُورَ، وَدَفَعَ عَنْهُ كُلَّ الشَّرِّ، وَنَجَّاهُ مِنْ كُلِّ مَحْذُورٍ، وَأَفَاضَ عَلَيْهِ مِنَ السَّعَادَةِ وَالْحُبُورِ، وَأَعْطَاهُ مِنْهَا، وَفَازَ بِرِضَا، وَعَاشَ نَقِيَّ الْقَلْبِ، طَاهِرَ الطَّوِيَّةِ، سَلِيمَ السَّرِيرَةِ وَالنِّيَّةِ.

وكم للإخلاص والمخلصين من مواقف مشرفة تذكر، ومشاهد مؤثرة تحكى، وأحاديث حسنة تقال، وعظات قيمات تذكر لأولئ الألباب، الذين يرفعون أذهانهم لما يسمعون، ومن ذلك، قال عبد الله بن دينار رضي الله عنه: خرجت أنا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، نريد مكة، فنزلنا ليلاً في بعض الطريق طلباً

للراحة، فانحدر إلينا راع من الجبل، فقال له عمر رضي الله عنه: بعني شاة، قال: إنها لسيدي، وأنا مملوك، فقال له عمر ممتحناً له: قل لسيدك: أكلها الذئب، فقال الراعي: وأين الله؟ فبكى عمر.

وفي الصباح ذهب فاشترى هذا الغلام وأعتقه، وقال له: لقد أعتقتك الصدق في الدنيا إخلاصاً لله تعالى، وأرجو أن يعتقك في الآخرة.

فأخلص أيها المسلم لربك تسعد في الدنيا والآخرة، فإذا هممت بعبادة فاجعل مقصدك الأهم إرضاء الله تعالى، واتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وتذكر قول الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] فبذلك تصفو لك العبادة ويسلم لك دينك.

أما إذا افتقر العمل إلى الإخلاص أو دخله الرياء، كمن صلى رياءً أو تزكّى رياءً أو عمل أي نوع من أنواع العبادات مرئياً في عمله، فإن عمله مردود عليه، وهو مأزور غير مأجور، فلا بد من الإخلاص لله تعالى في العبادة كي تكون مقبولة.

فاقصد بعملك أيها المسلم وجه الله، دون أن تلتفت لممدح الناس، واحذر من أن يذهب تعبك أدراج الرياح بسبب قلة الإخلاص فيه. وقصارى القول في إخلاص العبادة لله تعالى: أن يكون الظاهر كالباطن، والسر كالعلانية، وأن يخشى الله العبدُ بالغيب، ويراقبه في كل شيء، ويقصد بأعماله كلها وجه الله تعالى. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿حُنَفَاءَ﴾ أي مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، وهو دين الحق وملة إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣] وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧].

وقوله تعالى: ﴿وَتَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي يؤدونها في أوقاتها بشروطها وأركانها وآدابها، محافظين عليها مهتمين بها، مداومين عليها حيث ينادى لها، ولا يخفى أن الخشوع فيها هو أهم أركانها، فصلاة بلا خشوع كسجد بلا

روح ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي يؤدون الزكاة التي أوجب الله تعالى في الأموال إلى مستحقيها الذين ذكروا في الكتاب عند حلولها. ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ أي وذلك المذكور من عبادة الله تعالى، وإخلاصها، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ أي دين الملة المستقيمة.

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ قال: هو الذي بعث الله به رسوله، وشرع لنفسه ورضي به. اهـ.

ثم ذكر الله تعالى مآل كل فريق فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي إن الذين كفروا بالله تعالى وبرسوله ﷺ وكتابه من اليهود والنصارى والوثنيين مصيرهم جميعاً إلى النار، ماكثين فيها، وهذا حكم الله فيهم، لأنهم كفروا بالحق لما جاءهم، وأعرضوا عنه، وذلك بعد أن بين الله تعالى لهم غاية البيان أن دين الإسلام هو الدين الحق المنجي من العذاب، والموجب للرحمة والنعيم، ولكنهم فضلوا الكفر على الإيمان، والشرك على التوحيد عناداً وحسداً، ولذلك استحقوا هذا الوصف الذي وصفهم الله به في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أي شر الخليقة التي برأها الله تعالى وذراها.

ثم ذكر الله تعالى مآل عباده الصالحين فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي إن الذين آمنوا بالله ورسوله وكتابه، فصدقوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ أي خير الخليقة التي برأها الله تعالى وذراها.

ثم بين تعالى مصيرهم السعيد عنده فقال: ﴿جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي ثوابهم في الآخرة يوم يلقونه بعد الموت جنات إقامة دائمة، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة المذكورة آنفاً. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي ماكثين فيها دائماً بلا نهاية، لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أي رضي أعمالهم ورضوا ثوابه، ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي هذا النعيم المقيم والثواب العظيم لمن خاف الله تعالى في الدنيا سرّاً وعلانية، فاتقاه وأدى فرائضه، واجتنب معاصيه، اللهم الطف بنا يا أرحم الراحمين.

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

مدنية وآياتها ثماني آيات

أخرج أحمد وأبو داود والنسائي ومحمد بن نصر والحاكم وصححه والطبراني وابن مردويه والبيهقي في «الشعب» عن عبد الله بن عمرو قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: أقرئني يا رسول الله، قال: «اقرأ ثلاثاً من ذوات الراء»، فقال الرجل: كبر سني، واشتد قلبي، وغلظ لساني، قال: «اقرأ ثلاثاً من ذوات حم»، فقال مثل مقالته الأولى، فقال: «اقرأ ثلاثاً من المسبحات»، فقال مثل مقالته الأولى، وقال: ولكن أقرئني يا رسول الله سورة جامعة، فأقرأه ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالًا ۝١﴾ حتى فرغ منها، قال الرجل: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها، فقال رسول الله ﷺ: «أفلح الرويجل، أفلح الرويجل». وورد أنها تعدل نصف القرآن أو ربعة في أحاديث ضعيفة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالًا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنْسَانُ
 مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ نُحْدِثُ أخبارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ
 النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَنْ
 يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾

تحدثت هذه السورة الجامعة عن إثبات البعث وذكر أشراف الساعة، وما يكون في ذلك اليوم من زلزال الأرض وإخراج الأرض ما في بطنها من الموتى والكنوز، واندهاش الإنسان من فجأة هذه الأحداث، ثم بينت انصراف

الناس من أرض المحشر متفرقين، فريق في الجنة وفريق في السعير، نسأل الله تعالى اللطف والرحمة.

فماذا أعددت أيها المسلم ليوم الرحيل من الدنيا إلى الآخرة والعرض والحساب؟ ماذا أعددت ليوم يصدر الناس فيه أشتاتاً ليرُوا أعمالهم؟ هل يسرك أن ترى صحيفة أعمالك وقد مُلئت بالمعاملات الربوية؟ أو بتعاطي المسكرات والمخدرات؟ أو بالسرقة أو بالزنى؟ أو أنها ملئت بالكذب أو منع الزكاة أو أذية عباد الله؟ أو تجد فيها أنك مشيت في معصية؟ أو قطعت رحمك، أو هجرت والديك، أو أذيتهما أو عققتهما؟ هل يسرك أن ترى في صحيفتك أنك بسرعتك وتهورك في قيادة سيارتك تسببت في إزهاق نفس بريئة؟ أو يتّمت أطفالاً أو أكلت أماً أو أحرقت قلب والد على ولده؟ هل يسرك شيء من ذلك، وهل ترضاه لنفسك؟

عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» [أخرجه مسلم].

أخي المسلم، هل يسرك أن ترى في صحيفة أعمالك أنك تهاونت بالصلاة، أو لم تؤدها الأداء المطلوب؟ أو أنك منعت الزكاة، أو لم تحسن لعباد الله، أو أنك فرطت في شيء من الفرائض كالصلاة والصيام والزكاة والحج؟

هل يسرك أن تجد في صحيفتك أنك غدرت أو خنت أو رشيت أو ارتشيت، أو كنت واسطة شرٍ وإسقاط حق، أو شهدت زوراً؟

لا شك أن أحداً من المسلمين لا يسره أن يرى شيئاً من ذلك في صحيفة أعماله، وأن الجميع يرجو أن لا يرى في صحيفة أعماله إلا البرّ والتقوى، والعبادات والقربات إلى الله تعالى، والباقيات الصالحات.

قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي أصابها الزلزال الشديد والاهتزاز الرهيب، والمعنى: إن الله تعالى يأمر الأرض فتزلزل وتهتز اهتزازاً عنيفاً لم يكن مألوفاً كما قال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ [الواقعة: ٤] وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوقًا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾

[الحج: ١] وقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ ﴿٢﴾ أي وأخرجت الأرض ما في جوفها من الدفائن والكنوز والأموات، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ ﴿٣﴾ وَالْقَتَّ مَا فِيهَا وَنَحَلَّتْ ﴿٤﴾ [الانشقاق: ٣، ٤] عندئذ يقول الإنسان الذي يرى هذا: ﴿مَا لَهَا﴾ أي ما الذي حصل لها؟ يقول ذلك وهو في غاية الدهشة لما يرى من الأمر الفظيع الذي لم يشاهده من قبل، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنها تَذَهَلُ كَلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ ﴿٥﴾ [الحج: ٢] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ﴿٦﴾ أي تخبر بما وقع عليها بإذن ربها، عندما قرأ النبي ﷺ هذه الآية، قال: «أتدرون ما أخبارها؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها» وقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ ﴿٧﴾ أي أمرها بذلك ﷺ، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْنَاءًا لِّسِرِّهِمْ أَعْمَلْتُمْ﴾ ﴿٨﴾ أي في ذلك اليوم يخرج الناس من قبورهم متفرقين كل على حسب عمله متميزين، فلا يكون محسن ومسيء في طريق واحد، ولا مطيع ولا عاصي ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ ﴿٩﴾ [السجدة: ١٨] ﴿أَفَتَجْمَلُ الْثُلَيْبِينَ كَالْجُرَيْمِينَ﴾ ﴿١٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٦﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦].

يحشر الناس في ذلك اليوم بعد خروجهم من قبورهم ليربهم الله جزاء ما قدّمت أيديهم، ويجنوا ثمار ما غرسته أيمانهم، ثم فصل الله تعالى بقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ أي فمن يعمل ما يوازن مثال ذرة من خير يُثاب عليه، ومن يعمل ما يوازن مثقال ذرة من شر يُجازى عليه، والذرة هي تعبير عن أصغر شيء يعرفه الناس، فيجد كل إنسان ما قدّم من خير أو شر، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنَّا بِهَا حَسِيبِينَ﴾ ﴿٩﴾ [الأنبياء: ٤٧].

فيا أخي المسلم تأمل في هذه السورة العظيمة، ولا شك أن الجميع يحفظها، وهي سورة مباركة تعدل ربع القرآن، فقد روى الترمذي وغيره عن

النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا زُلْزِلَتْ» تعدل ربع القرآن» فهذا تكون قراءتها أربع مرات كقراءة القرآن كله. والله أعلم.

وروي أن جدَّ الفرزدق صعصعة أتى النبي ﷺ يستقرئه، فقرأ النبي ﷺ هذه السورة، فقال الرجل: حسبي حسبي، لا أبالي أن لا أسمع من القرآن غيرها^(١)، ولهذا سميت هذه السورة: الجامعة.

وعن زيد بن أسلم أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: علّمني مما علّمك الله، فدفعه إلى رجل يعلمه القرآن، فعلمه ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾، حتى بلغ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾ إلخ، قال الرجل: حسبي، فأخبر بذلك النبي ﷺ فقال: «دعه فقد فقه الرجل». [أخرجه عبد الرزاق وابن أبي حاتم].

فاقرأ أيها المسلم هذه السورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾ وتأمل فيها، وتدبرها، فإنها الجامعة التي من فهمها وعمل بها فاز وأفلح في الدنيا والآخرة، واعلم أنك ستجد ما قدّمت من خير أو شر، فتثاب أو تعاقب أو يعفو الله تعالى، وتأكد أنه لا مجال للإنكار ولا بد أن ترى ما قدّمت، واعلم أن الأرض ستشهد لك أو عليك، ستشهد لك بالصلاة والتلاوة والذكر وكل أعمال البر التي عملتها عليها، وتشهد على من عصى الله عليها بالزنى والشراب والسرقة وكل معصية.

يا ابن آدم، لله عليك سبعة شهود: المكان، والزمان، واللسان، والأركان، والملكان، والديوان، والرحمن.

فالمكان كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَجُلٌ فَإِذَا هُمْ بِحَدِيثٍ أُحْبَرَتِمْ﴾.

والزمان كما في الخبر: «ينادي كل يوم أنا يوم جديد، وأنا على ما تعمل في شهيد».

وأما اللسان فكما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ﴾ [النور: ٢٤].

والأركان كما في قوله تعالى: ﴿وَتَكَلَّمْنَا أَيْدِيَهُمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾ [يس: ٦٥].

والملكان كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠].

(١) أخرجه الإمام أحمد والنسائي والطبراني.

وكتاب الأعمال كما قال تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩].

وشهادة الله تعالى الذي لا يغيب عنه شيء كما قال تعالى: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ [يونس: ٦١].

فكيف يكون حال العاصي بعدما يشهد عليه هؤلاء الشهود؟

ليس للإنسان مخرج إلا التوبة قبل الموت، فبادر إلى التوبة أيها المسلم، وتفكر في هذه السورة التي شرحناها وفي غيرها من القرآن، وأكثر من الباقيات الصالحات، واجتنب المحرمات تسعد في الحياة الدنيا وبعد الممات.

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) الآية قال: لما نزلت ﴿وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [الإنسان: ٨] كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوه، فيجيء السائل إلى أبوابهم فيستقلون أن يعطوه التمرة والكسرة فيردونه، ويقولون: ما هذا بشيء إنما نؤجر على ما نعطي ونحن نحبه، وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير كالكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك، ويقولون: إنما وعد الله النار على الكبائر فرغبهم في الخير القليل أن يعملوه فإنه يوشك أن يكثر، وحذرهم اليسير من الشر فإنه يوشك أن يكثر ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ يعني وزن أصغر النمل ﴿خَيْرًا يَرَهُ﴾ يعني في كتابه ويسره ذلك.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والحاكم في «تاريخه» وابن مردويه والبيهقي في «شعب الإيمان» عن أنس رضي الله عنه قال: بينما أبو بكر الصديق رضي الله عنه يأكل مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ نزلت عليه ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) فرفع أبو بكر رضي الله عنه يده وقال: يا رسول الله إني لراء ما عملت من مثقال ذرة من شر، فقال: «يا أبا بكر أرأيت ما ترى في الدنيا مما تكره فبمئاقيل ذر بشر ويدخر لك مئاقيل ذر الخير حتى توفاه يوم القيامة».

وأخرج مالك وابن سعد وعبد بن حميد من طريق عائشة رضي الله عنها أنها سألت أباها
وعندها سلة من عنب فأخذت حبة من عنب فأعطته فقيل لها في ذلك، فقالت:
هذه أنقل من ذر كثير، ثم قرأت ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧).

وأخرج أحمد في «الزهد» وابن المنذر عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: لولا
ثلاث لأحببت أن لا أبقى في الدنيا: وضعي وجهي لسجود لخالقي في
اختلاف الليل والنهار أقدمه لحياتي، وظماً الهواجر، ومقاعدة أقوام ينتقون
الكلام كما تنتقى الفاكهة، وتمام التقوى أن يتقى الله تعالى العبد حتى يتقيه في
مثقال ذرة حتى أن يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً حتى
يكون حاجزاً بينه وبين الحرام، إن الله قد بين للناس الذي هو يصيرهم إليه
قال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا
يَرَهُ ﴿٨﴾ فلا تحقرن شيئاً من الشر أن تتقيه ولا شيئاً من الشر أن تفعله.

سُورَةُ الْعَادِيَاتِ

مكية وآياتها إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَنْزَلَ بِهِ نَفْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَاسًا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾ .

هذه آيات بينات تحيا بها القلوب، ويتحقق بها المطلوب، وفيها راحة النفوس من كل نصب ولغوب، ومعناها العام: أن الله تعالى أقسم في فاتحة هذه السورة بخيل الغزاة في سبيل الله تعالى على أن الإنسان لنعمة ربه لشديد الكفران، وأنه على ذلك في الدار الآخرة لشهيد على نفسه بما كان منه، وأنه لشدة حبه المال لبخيل به، حريص عليه، ثم ذكّر الباري ﷻ في خاتمتها بالبعث، ونبه إلى الحساب والجزاء.

وإليك التفصيل، فقوله تعالى: ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ ﴾ أي قسماً بالخيل التي تعدو وتجري ويُسمع لها حينئذٍ ضبح، أي زفير شديد وهو صوت غير الصهيل.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي الخيل العادية في سبيل الله، والضحج: صوت أجوافها إذا عدت.

وقال أيضاً: وليس شيء من الحيوانات يضحج سوى الفرس والكلب والثعلب، وإنما تضحج هذه الحيوانات إذا تغير حالها من فرع أو تعب.

وقوله تعالى: ﴿فَالْمُورِيَّتِ قَدَمًا﴾ أي الخيل التي تخرج النار بحوافرها ويتطاير منها الشرر أثناء الجري إذا سارت في حجارة. وقوله تعالى: ﴿فَالْمُعِيرِيَّتِ صَبَمًا﴾ الخيل التي تعدو لتهجم على العدو وقت الصباح لأخذه على غير أهبة منه أو استعداد، وقوله تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ أي فهيجن في الصباح غباراً لشدة عدوهم. وقوله تعالى: ﴿فَوَسَّطَنَ بِهِ جَمْعًا﴾ أي فتوسطن جمعاً من الأعداء ففرقته وشتن شمله.

أقسم الله تعالى بالخيل التي لها هذه الصفات، والله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، أما المخلوق فلا يجوز له أن يقسم بغير الخالق ﷻ، وإنما أقسم الله تعالى بخيل الغزاة في سبيله لما فيها من المنافع الدينية والدنيوية، والأجر والغنيمة، وتنبهاً على فضلها وفضل رباطها في سبيل الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: 60] وللخيل في عدوها فوائد كثيرة، فهي تصلح للطلب، وتسعف في الهرب، وتساعد في النجاة والكرّ والفرّ على الأعداء، وقطع شاسع المسافات في الزمن القليل.

ثم ذكر ﷻ المقسم عليه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ أي لكفور، يكفر بنعم الله عليه ويجحد، والمراد بعض أفراد، وليس كل إنسان، فالذين عصمهم الله روضوا أنفسهم على فعل الفضائل، وترك الرذائل ما ظهر منها وما بطن.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الكنود الذي يأكل وحده، ويضرب عبده، ويمنع رفته» أو كما قال ﷺ.

والمعنى: أنه الذي يمنع حق الله تعالى، وقد يأكل وحده ترفعاً على عباد الله أو بخلاً أو شحاً، ولا يراف بعباد الله، فيضرب عبده أو أمته أو زوجته، فمثل هذا كافر بنعمة الله مخالف لما يقتضيه الشرع والعقل.

وقوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لِشَهِيدٍ﴾ أي إن الله تعالى شاهد على أعمال العباد، وهذا أمر مسلم به، وإن كان قد قيل: إن الضمير عائد على الإنسان نفسه، أي مع كنوده وجحوده لنعم الله تعالى عليه، ولجأته في الطغيان، فهو شاهد على نفسه بما يعمل وإن كابر في الظاهر، فسوف يشهد

على نفسه يوم القيامة، فهو على نفسه شهيد، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: ٦٥] وكذلك كل جوارح الإنسان تشهد عليه، فالعين تقول: نظرت، والأذن تقول: سمعت، وهكذا بقية الجوارح تشهد بما فعلت.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ أي إن الإنسان لشدة حبه للمال وتعلق قلبه به، وجمعه وادخاره، لبخيل شديد في بخله، وحريص متناوٍ في حرصه، ممسك للمال مبالغ في إمساكه، يبخل على نفسه، وما علم أن ما يقدمه من المال والأعمال الصالحة هو الذي ينفعه بعد الممات.

أخرج مسلم عن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت» قال تعالى: ﴿وَمَا نُفْقِدُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» فليس لك أيها الإنسان إلا ما قدمت، فلا تحب ما أخرت على ما قدمت، فإنك إذا أكثرت من التصدق وعمل الصالحات، إنما تقدمه لنفسك، لتجد ثوابه بعد الرحيل عن هذه الدنيا، وإذا قدمت مفاسد الأعمال وأذية الناس، فسوف تجد ثمرته وعقابه، خزي وحزن وألم شديد في دار يسعد فيها الأتقياء، ويشقى فيها المعتدون.

ولا تستبعد أيها المسلم الموت، فإنه حق، ولا بد أن يقع لك كما وقع ويقع لغيرك، فأنت ترى الأموات بين الحين والآخر، والبعض يراهم كل يوم، أفلا تتعظ يا ابن آدم بذلك؟ أما سمعت قول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَيْءٍ مِنْ قَبْلِكَ الْآخِلَّةَ آفَاتٍ مِمَّا فَهَمُّ الْخَالِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤، ٣٥] أفلا تعلم يا عبد الله أنك راجع إلى الله تعالى، وأنه محاسبك بأعمالك؟ ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أُمَّتَالِكُمْ مَا قَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨] وأنه لا بد من الحساب، ثم بعده ثواب أو عقاب، حسب ما سطر عليه في الكتاب، ألم

تعلم يا ابن آدم أن الله تعالى وعد المحسنين بالجنة، ونهى عن المعاصي وتوعد عليها بالنار، أما علمت أن الإنسان على نفسه لشهيد، وأنه لحب الخير لشديد؟ والخير هو المال.

ثم هدد الباري - جلّ وعلا - الإنسان الذي صفاته ما ذُكر في الآيات الثلاث السابقة، وزهد في الدنيا ورغب في الآخرة، ونبه على ما هو كائن بعد هذا الحال، وما يستقبله الإنسان من الأهوال، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَافِعًا فِي الْقُبُورِ ﴿١﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿٣﴾﴾ أي أفلا يعلم هذا الإنسان المنكر لنعم الله عليه، الجاحد لفضله وأياديه أن الله ﷻ عليم بما تنطوي عليه نفسه؟ وأنه تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿٤﴾﴾ [غافر: ١٩] وأنه مجازي العبد على جحوده وإنكاره وكفره بنعم الله، وأذيته وتسلطه على عباد الله، متى يكون ذلك؟... يوم يُحصَلُ ما في الصدور، ويُبعث ما في القبور، في ذلك اليوم تُميّز وتبرز الأعمال، ويخرج الناس من قبورهم ينفضون عن رؤوسهم غبارها. وخص أعمال القلوب بالذكر في قوله: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾ لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلوب، فلولا البواعث والإرادات التي في القلوب لما حصلت أعمال الجوارح.

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى العدو فأبطأ خبرها، فشق ذلك عليه، فأخبره الله خبرهم، وما كان من أمرهم فقال: ﴿وَالْعَدِيَّتِ صَبَا ﴿١﴾﴾ قال: هي الخيل، والضبج: نخير الخيل حين تنخر ﴿فَالْمُورِيَّتِ قَدَا ﴿٢﴾﴾ قال: حين تجري الخيل توري ناراً أصابت بسنابكها الحجارة ﴿فَالْمَغِيرِيَّتِ صَبَا ﴿٣﴾﴾ قال: هي الخيل أغارت فصبحت العدو ﴿فَأَثَرَنَ بِهِ نَقْمًا ﴿٤﴾﴾ قال: هي الخيل أثرن بحوافرها يقول: تعد والخيل، والنقع الغبار ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمًّا ﴿٥﴾﴾ قال: الجمع: العدو.

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﷺ: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾ قال: الإنسان ﴿وَإِنَّهُ لِحَبِيٍّ الْخَبِيرُ ﴿٧﴾﴾ قال: المال.

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٨﴾﴾ قال: الإنسان شاهد على نفسه ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَافِعًا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾﴾ قال: حين يبعث ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ قال: أخرج ما في الصدور.

سُورَةُ الْقَارِعَةِ

مكية وآيتها إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْقَارِعَةُ﴾ ١ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ يَوْمَ يَكُونُ
 النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥ فَأَمَّا
 مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨
 فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ١١ ﴿

اشتملت هذه السورة على إثبات وقوع الساعة والبعث والنشور والحساب والميزان، حيث يسعد المؤمنون بثقل وزن حسناتهم، ويشقى الكافرون بكفرهم، فيقذفون في النار الحامية جزاء وفاقاً.

قوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ ١ من أسماء القيامة، كالحاقة والصاخة والطامة والغاشية، وسميت بالقارعة لأنها تفرق القلوب وتفرعها، وذلك عند النفخ في الصور، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ٧ [النمل: ٨٧] وقوله تعالى: ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ ١ استفهام للتعظيم والتفخيم، أي أي شيء هي القارعة؟ ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ ٢ أي أي شيء يعرفك بها؟ وهذا زيادة في تفخيمها وتهويلها، كأنه يقول: ما أعظمها وما أشدها! وذلك ينبئ عن أن شأنها وحالها مما لا يستطيع الخلق معرفته لفضاعتها وشدة هولها. ثم بين متى تكون فقال: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ ٤ أي يوم البعث والنشور حال الخروج من القبور، فهم يكونون كالفراش، وهي الطيور الصغيرة التي تتزاحم وتترامى على ضوء السراج ليلاً، وبها يضرب المثل في الجهل

بالعاقبة، فشَبَّهوا به في ضعفه وحيرته وسيره على غير هدى، و﴿الْمَبْثُوثُ﴾ هو المنتشر كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧] هم جميع بني آدم، من آدم إلى آخر إنسان قبل قيام الساعة، فهذه البشرية جمعاء تكون في مكان واحد، وهو أرض المحشر بهذا التصوير العظيم الذي يدل على شدة فرعهم وخوفهم وحيرتهم، ويرحم الله من يشاء.

وقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ ⑤ أي كالصوف المندوف في تفرق أجزائها وتطايرها في الجو، كما قال تعالى: ﴿وَسُئِلَتِ الْجِبَالُ بَسًّا ⑥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ⑦﴾ [الواقعة: ٥، ٦]، وذلك لزوال صفتها الصلبة وتحولها إلى هباء يتطاير مع أدنى ريح، وهذا من آثار القارعة، وهي نهاية الحياة الدنيا وبداية الحياة الآخرة، حيث بعد ذلك ليس ثم دار إلا جنة أو نار ولكل نصيبها، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ⑧﴾ وهو الذي رجحت حسناته على سيئاته ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ⑨﴾ أي في حياة طيبة وعيش هنيء تفر به عينه وتسرب به نفسه في جنة الخلد والنعيم المقيم ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ⑩﴾ وهو الذي رجحت سيئاته على حسناته، أو الذي ليس له حسنات أصلاً كالكافر، لأن الكافر يجازى بحسناته إن وجدت في الدنيا، ولا تنفعه في الآخرة، لأنه كافر ولا يعتقد بالبعث والحساب ولم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي، حتى وإن كان كتابياً لأن ﴿الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ ⑪﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْأِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ⑫﴾ [آل عمران: ٨٥]، وربما كان مسلماً مسرفاً على نفسه، حتى صارت سيئاته أكثر من حسناته فلماذا يجب على المسلم أن يتفقد نفسه كل يوم، وينظر في أعماله ناقداً محاسباً لنفسه، ويكثر من الاستغفار والتوبة، خاصة إذا علم أن النبي ﷺ كان يتوب ويستغفر في اليوم مائة مرة، وهو قد غفر له ما تقدم وما تأخر من ذنبه، فكيف بغيره من أمثالنا؟ ليس لنا إلا التعلق برحمة الله تعالى، وهو أمان الخائفين.

وما هي عاقبة من خفت موازينه؟ قال تعالى: ﴿فَأُمَّمُّ هَاوِيَّةٌ ⑬﴾ الهاوية من أسماء النار، والمراد أن مأواه جهنم، أي فمأواه ومسكنه الهاوية التي يهوي فيها على أم رأسه في جهنم، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ⑭﴾

﴿١٧﴾ استفهام للتفخيم والتهويل، أي وأي شيء أعلمك ما الهاوية؟ ثم سرها بقوله تعالى: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ ﴿١١﴾ أي نار شديدة الحرارة، لا تبلغ حرارتها أي نار، مهما سعرت وألقي فيها من وقود، فإنها تفوق حرارة نار الدنيا كثيراً، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم» قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله؛ قال: «فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها».

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﷺ في قوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ ﴿٤﴾ قال: هذا هو الفراش الذي رأيتم يتهافت في النار، وفي قوله: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ ﴿٥﴾ قال: كالصوف، وفي قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ قال: هي الجنة ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ قال: هي النار مأواهم وأمهم ومصيرهم ومولاهم.

وأخرج ابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال: «إن نفس المؤمن إذا قبضت تلتقتها أهل الرحمة من عباد الله كما يلقون البشير من أهل الدنيا فيقولون: انظروا صاحبكم يستريح فإنه كان في كرب شديد، ثم يسألونه ما فعل فلان وفلانة هل تزوجت؟ فإذا سألوه عن الرجل قد مات قبله فيقول: هيهات قد مات ذلك قبلي، فيقولون: إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية فبئست الأم وبئست المريية».

وأخرج أبو يعلى قال: «كان رسول الله ﷺ إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده. ففقد رجلاً من الأنصار في اليوم الثالث فسأل عنه فقالوا: تركناه مثل الفرخ لا يدخل في رأسه شيء إلا خرج من دبره. قال: «عودوا أخاكم» فخرجنا مع رسول الله ﷺ نعوده، فلما دخلنا عليه قال رسول الله ﷺ: «كيف تجدك» قال: لا يدخل في رأسي شيء إلا خرج من دبري. قال: «ومم ذلك؟» قال: يا رسول الله، مررت بك وأنت تصلي المغرب فصليت معك، وأنت تقرأ هذه السورة ﴿الْفَارِعَةُ﴾ ﴿١﴾ مَا الْفَارِعَةُ ﴿٢﴾ إلى آخرها

﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾ ﴿١١﴾ فقلت: اللهم ما كان من ذنب أنت معذبي عليه في الآخرة فعجل لي عقوبته في الدنيا فنزل بي ما ترى. قال رسول الله ﷺ: «بئس ما قلت، ألا سألت الله أن يؤتيك في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ويقيك عذاب النار» فأمره النبي ﷺ فدعا بذلك ودعا له النبي ﷺ، فقام كأنما نشط من عقال».

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

مكية وآياتها ثمانى آيات

إن القرآن كله عظات وعبر نافعات لمن تدبره وتفهمه، فتعالوا نقرأ بعض آياته العظيمة، ونتأمل في سورة من سورته الكريمة، سورة التكاثر، قيل: إن قراءتها تعدل قراءة ألف آية من كتاب الله تعالى، وهذه السورة جاءت لتنبية الغافلين، وإنذار العصاة والكافرين، ولتبشير المؤمنين العاملين للآخرة بخير كثير ونعيم مقيم. فيها يحذر الله تعالى من عاقبة التكاثر في المال والجاه، ويخبر تعالى أن عذاب العصاة واقع لا محالة، وأن جهنم حق لا مرية فيه، وأنكم ستسألون عن نعيم الدنيا.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكْوِيْنُ﴾ ١ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ٢ ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ٣ ثُمَّ ٤
 ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ٥ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِيْنِ ٦ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيْمَ ٧ ثُمَّ ٨
 لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِيْنِ ٩ ثُمَّ لَتَسْتَلْنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيْمِ ١٠ ﴿

جاءت هذه السورة بعد سورة القارعة^(١) والتي فيها إثبات وقوع الساعة والبعث والنشور والحساب والميزان، حيث يسعد المؤمنون بثقل وزن حسناتهم، ويشقى الكافرون بمعاصيهم وبكفرهم فيقذفون في النار الحامية جزاءً وفاقاً. جاءت سورة التكاثر بعدها لتنبية الغافلين لاغتنام فرصة الحياة

(١) في الترتيب في المصحف لا في النزول.

وبذل الطاقة في عبادة الله تعالى، وأن لا يشغلهم التكاثر في الأموال والأولاد وجمع الحطام الفاني عما هم صائرون إليه، وما هم قادمون عليه، فليس للإنسان إلا ما قدم.

قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعَيْهِ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾﴾ [الزلزلة: ٣٩ - ٤١].

وفي الدار الآخرة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾﴾ عن الطاعة ﴿حَتَّى ذُرِّمُ الْمُقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ أي حتى ياتيكم الموت.

وقال الحسن البصري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾﴾ في الأموال والأولاد.

وروي عن النبي ﷺ أنه قرأ قول الله تعالى: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾﴾ فقال: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت» [رواه مسلم عن مطرف عن أبيه].

وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد، يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله».

وفي الصحيحين: «يهرم ابن آدم، ويبقى منه اثنان: الحرص والأمل» وقيل: أنت للمال إذا أمسكته، فإذا أنفقتة، فالمال لك. يعني في أوجه الخير.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ وعيد بعد وعيد وتأکید، أي سوف تعلمون عاقبة أمركم، وعاقبة تكاثركم وتفاجرکم إذا نزل بكم الموت، وحانت ساعة فراق الدنيا وأهلها ودنت ساعة زيارة القبور ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾﴾ أي علماً يقينياً لا مرية فيه، ولو علمتم ذلك العلم لما ألهاكم وشغلکم التكاثر عن طلب الدار الآخرة حتى صرتم إلى المقابر ﴿لَتَرَوُنَّ ﴿١﴾ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ أي ترونها بأبصاركم

(١) ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ قرأ ابن عامر والكسائي بضم التاء وقرأ الباقون بفتحها، ولا خلاف بين القراء العشرة في فتح التاء في ﴿لَتَرَوُنَّهَا﴾.

وتشاهدونها مشاهدة حقة، ومعاينة حاضرة، أعاذنا الله منها ﴿ثُمَّ لَتُنشَلْنَ يَوْمَئِذٍ
عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة
عن النعيم، يقال له: ألم نُصَحِّحْ جِسْمَكَ ونُرَوِّكْ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ؟» والنعيم كثير.

فكل ما بك من النعم إنما هو من النعيم الذي تسأل عنه، فالصحة
والفراغ والأمن والرخاء كل ذلك من النعيم. وفي الحديث: «نعمتان مغبون
فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ».

والمعنى: أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما،
ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون.

وروى مسلم من حديث أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم
أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه
الساعة؟» قالا: الجوع يا رسول الله، قال: «وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني
الذي أخرجكما، قوما» فقاما معه فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في
بيته، فلما رآته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: «أين
فلان؟» قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء إذ جاء الأنصاري فنظر إلى
رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيفاً مني،
قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بُسر وتمر ورطب فقال: كلوا من هذه وأخذ
المدية، فقال له رسول الله ﷺ: «إياك والحلوب» فذبح لهم، فأكلوا من
الشاة، ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا، قال رسول الله ﷺ
لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لتسألنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة،
أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم».

وروي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان رجل يقال له: يعلى
وكان مشركاً ليس له من الدنيا إلا قطيفة توارى عورته، ويأوي بالنهار إلى ظل
شجرة، وبالليل إلى جحر كجحر الكلب، فسمع بخروج النبي ﷺ فأقبل إلى
النبي ﷺ وكان شاباً، ترفعه أرض وتضعه أخرى حتى قَدِمَ على رسول الله ﷺ
فأسلم وقعد مع أهل الصفة يطعم القبضة من العجوة والكسر من خبز الشعير،
وكان لا يفارق مجلس النبي ﷺ حتى تعلّم أربع سور من القرآن، فقال: يا
رسول الله زوّجني؟ قال: «أعندك مال؟!» قال: عندي أربع سور من القرآن،

ومن كان عنده الوحي وكلام الله فهو غني، قال النبي ﷺ: «صدقت».

فزوجه شيخ من المسلمين ابنته وأشهد النبي ﷺ وأصحابه، فقال النبي ﷺ: «يا معشر المسلمين أعينوا أخاكم» فجمعوا له أربعة أواق فضة، فقال النبي ﷺ: «لك أوقيتان ولزوجتك أوقيتان» فقال: يا رسول الله قد جعلت أوقيتي لها أيضاً، فقال النبي ﷺ للشيخ والدها: «جهزوا هذه الجارية للشاب من يومه هذا» قال الشيخ: سمعاً وطاعة لله ﷻ ولرسوله، فجاء الشاب إلى رسول الله ﷺ فأمره أن ينصرف إلى أهله، فجاء إلى منزله فدخل إلى فراش مفروش، وإلى بساط ممدود، وإلى زوجة جالسة، وإلى سراج يزهر، وإلى طعام قد هبئ له، فلما نظر إلى ذلك بادر إلى مكان في مجلسه فصلّى فيه ركعتين شكراً لله ﷻ لما رأى، ثم قام وصلّى ركعتين ثم رفع رأسه إلى السماء فحمد الله وأثنى عليه وشكر نعمته، ثم جعل يقوم في خلال ذلك فيصلي ركعتين ثم يقوم إلى مثل حاله من الثناء فالشكر لله ﷻ لما رأى، فلم يزل كذلك حتى أصبح، ثم غدا إلى المسجد فصلّى مع رسول الله ﷺ الغداة والظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة ثم رجع إلى منزله، فلما عاين أهله وما هبئ له بادر إلى مسجده فصلّى مثل صلاته في الليلة الأولى وجعل يحمد الله ﷻ ويشكره بين كل ركعتين حتى أصبح فغدا إلى المسجد فصلّى مع رسول الله ﷺ ففعل مثل ذلك حتى تمت له ثلاث ليال فجاء الشيخ في اليوم الرابع فدخل على ابنته فسألها عن زوجها وحالها معه! فقالت: لا أدري ما زوجي ما يعرف غير الصلاة وهو الليل كله يحمد الله ويثني عليه ويصلي، فجاء الشيخ إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، فقال له رسول الله ﷺ: «ما منعك من أهلك!» فقال: يا رسول الله تذكرت شأني وكنت مشركاً لم يكن لي مأوى إلا جحر كجحر الكلب أوي إليه الليل والنهار أتبع ظلال الشجر والحيطان حين أخرج من جحري فهداني الله للإسلام وعلمني أربع سور من القرآن فشرح الله صدري بها ونور بها قلبي، فلما زوجتني هذه الجارية نظرت إلى فراشها وإلى حسنها وجمالها ولم أرَ فراشاً قط منذ كنت، ونظرت إلى سراج يزهر ولم يكن لي سراج قط، ونظرت إلى هذه الحالة فتدبرت إحدى سوري الأربع فزهدني الله فيها وما عندها، فقال النبي ﷺ: «وأي سورة هي؟»

قال: ﴿أَلْهَنُكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ ① حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② ثم بكى وبكى رسول الله ﷺ وأصحابه، فلما هدؤوا قال الشاب: يا رسول الله خصني منك بدعوة، فقال: «اللهم اغفر له الكثير، واشكره على اليسير، واغنه برحمتك» فلم تأت عليه جمعة حتى قيل للنبي ﷺ: إن الشاب قد مات، فقال النبي ﷺ: «لا إله إلا الله إذا فرغتم من غسله أخبروني» فأخبروه ﷺ فقال: «هنياً لك الجنة» ثم سأل زوجته: هل نال منها شيئاً؟ قالت: لا والذي بعثك بالحق نبياً ما نال مني شيئاً.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿أَلْهَنُكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ ① قال: يعني عن الطاعة ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ ② قال: يقول: حتى يأتيكم الموت ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ③ يعني لو قد دخلتم قبوركم ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ④ يقول: لو قد خرجتم من قبوركم إلى محشركم ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ ⑤ قال: لو قد وقفتم على أعمالكم بين يدي ربكم ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ ⑥ وذلك أن الصراط يوضع وسط جهنم، فجاج مسلم، ومخدوش مسلم، ومكدوش في نار جهنم ﴿ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ ⑦ يعني: شبع البطون وبارد الشراب وظلال المساكن واعتدال الخلق ولذة النوم.

عن ابن عباس قال: النعيم: صحة الأبدان والأسماع والأبصار، يسأل الله العباد فيما استعملوها وهو أعلم بذلك منهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عِنْدَهُ مَسْئُولًا﴾ ⑧ [الإسراء: 36] ثم قال: وقوله تعالى: ﴿أَلْهَنُكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ ① معناها ألهاكم التكاثر في الدنيا بجمع الحطام واكتساب الآثام والتمادي في الإجمام.

جاء في الأثر: «تجهزوا لقبوركم فإن القبر ينادي كل يوم سبع مرات، يقول: يا ابن آدم، أيها الضعيف، ارحم نفسك في حياتك قبل أن تلقاني، فإنك إذا لقيتني وكنت عاملاً بطاعة مولاك رحمتك، ورأيت مني السرور، وإن لم ترحم نفسك، لم أرحمك، أنا بيت الدود مع الندامة الطويلة، وأنا بيت الوحشة مع الجوع الشديد والشدة، أنا بيت العطش مع الظلمة، ابن آدم إياك أن تغرك الحياة الدنيا فإن ممرك علي، وأنا أول منازلك إلى الآخرة فإن نجوت مني، نجوت من كل شدة تتخوفها».

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال: يعرض الناس يوم القيامة على ثلاثة دواوين: ديوان فيه الحسنات وديوان فيه النعيم وديوان فيه السيئات، فيقابل ديوان الحسنات ديوان النعيم فسيتم فرغ النعيم الحسنات، وتبقى السيئات مشيئتها إلى الله ﷻ، إن شاء عذب وإن شاء غفر.

سُورَةُ الْعَصْرِ

مكية وآياتها ثلاث آيات

أخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي مليكة الدارمي وكانت له صحبة قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ① إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خُسْرٍ ②... ﴿ إلى آخرها، ثم يسلم أحدهما على الآخر.

❖ ❖ ❖

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ﴾ ① إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خُسْرٍ ② إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ ③

في هذه السورة العظيمة الجامعة الوجيزة أقسم الله تعالى بالعصر، والله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، أما نحن فلا يجوز لنا أن نقسم بغير الله تعالى، والعصر هو الزمان، أقسم به تعالى لانطوائه على العجائب والعبير الدالة على قدرة الله وحكمته على أن جنس الإنسان في خسارة ونقصان، إلا من اتصف بهذه الصفات الأربع، وهي الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

فتأمل أيها المسلم في هذه السورة العظيمة، تجد أنها جامعة لكل أسباب النجاة والفوز والصلاح، حتى قال الإمام الشافعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم.

قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ① إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خُسْرٍ ② ﴿ أقسم الله تعالى بالعصر وهو الزمان الذي تقع فيه حركات بني آدم من خير وشر وما ينطوي

عليه من تقلبات وتغيرات وعجائب دلالة على الاقتدار، وبرهان على حكمة الواحد القهار.

قال ابن عباس: هو الدهر، وفيه العبرة لمرور الليل والنهار على ترتيب واحد، وقال غيره: المراد صلاة العصر لأنها الصلاة الوسطى، وقيل: هو عصر النبي ﷺ، والمشهور الأول.

فأقسم الله تعالى بذلك على أن الإنسان لفي خسر، أي خسارة وهلاك ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فهؤلاء استثناهم الله تعالى من الخسران، وهم الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم. ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً بما أنزل الله تعالى في كتابه من أمر، واجتناب ما نهى عنه من معاصيه، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أوصى بعضهم بعضاً بالصبر، وهو حبس النفس عما لا ينبغي فعله، وهو أنواع: الصبر على طاعة الله تعالى، والصبر عن معاصيه، والصبر على أقدار الله المؤلمة. وقال قتادة ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾، قال: الحق كتاب الله تعالى، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ قال: الصبر طاعة الله.

أخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ﴾ قال: إلا من آمن ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال: إلا الذين صدقوا الله ووحدوه، وأقروا له بالوحدانية والطاعة، وعملوا الصالحات، وأدوا ما لزمهم من فرائضه، واجتنبوا ما نهاهم عنه من معاصيه، واستثنى الذين آمنوا من الإنسان، لأن الإنسان بمعنى الجمع، لا بمعنى الواحد.

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي ﴿وَالْعَصْرِ﴾ قال: قسم أقسم به ربنا تبارك وتعالى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ﴾ قال: الناس كلهم، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ثم لم يدعهم وذاك حتى قال: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ثم لم يدعهم وذاك حتى قال: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ ثم لم يدعهم وذاك حتى قال: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ يشترط عليهم.

وقال الإمام ابن القيم في «مفتاح دار السعادة»^(١): قال الشافعي رحمه الله:

(١) مفتاح دار السعادة ص(٥٣).

لو فكر الناس كلهم في هذه السورة، لكفتهم. وبيان ذلك أن المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله. إحداها: معرفة الحق. الثانية: عمله به. الثالثة: تعليمه من لا يحسنه. الرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه. فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة. وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر، إلا الذين آمنوا. وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به، فهذه مرتبة. وعملوا الصالحات وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه أخرى. ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾، وصى به بعضهم بعضاً تعليماً وإرشاداً، فهذه مرتبة ثالثة. ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضاً بالصبر عليه والثبات، فهذه مرتبة رابعة.

وهذا نهاية الكمال، فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه، مكماً لغيره. وكماله بإصلاح قوته العلمية والعملية، فصلاح القوة العلمية الإيمان، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات. وتكميله غيره، بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل. فهذه السورة على اختصارها، هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره. والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه، شافياً من كل داء، هادياً إلى كل خير. انتهى.

سُورَةُ الْهُنُزَةِ

مكية وآياتها تسع آيات

لقد توعد الله ﷻ بالويل - وهو كلمة عذاب أو واد في جهنم - من اتصف بهذه الصفات: وهي الهمز واللمز وجمع المال وتعداده، والانشغال به عن ذكر الموت وما بعده.

ثم بين سبحانه عاقبة من اتصف بهذه الصفات ومصيره الذي ينتظره: بأنه سيطرح ويلقى في نار حطمة موقدة شديد حرها، مغلقة الأبواب دائماً وأبداً لا يمكن الخروج منها، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِن النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧].



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (١) الَّذِي جَمَعَ (١) جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٢) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٤) نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ (٥) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٦) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ (٧) فِي عَمَدٍ (٨) مُّمَدَّدَةٍ (٩).

وفي أسباب النزول قيل: نزلت في الأخنس بن شريق، كان يلزم الناس ويغتابهم، وبخاصة رسول الله ﷺ، وقيل: في جميل بن عامر الجمحي، وقال

(١) ﴿جَمَعَ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر وروح وخلف العاشر بتشديد الميم، وقرأ الباقر بتخفيفها.

(٢) ﴿عَمَدٍ﴾ قرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف العاشر بضم العين والميم وقرأ الباقر بفتحهما.

مقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة، كان يغتاب النبي ﷺ من ورائه، ويطعن عليه في وجهه، وروي أيضاً أن أمية بن خلف كان يفعل ذلك، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الهُمَزَةُ: الذي يهزم الناس بفعله؛ بمعنى أنه يشير إليهم بيده وعينه على وجه التنقص والازدراء لهم.

واللمزة: هو الذي يلمز الناس بقوله، فيسلط لسانه بسبهم واغتيالهم والكلام في أعراضهم.

ومن صفات هذا الهماز اللماز أيضاً أنه لا هم له سوى جمع المال وتعيده، والانشغال بتنميته؛ بالنهار يجمع هذا إلى هذا، وبالليل ينام كأنه جيفة منتنة وقد أخذ عليه كل وقته، ومع هذا لا رغبة له في الإنفاق في طريق الخيرات ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ (١٨).

ويظن أن هذا المال سيخلده في الدنيا ويزيد في عمره ولم يدر أن البخل يقصم العمر، ويخرب الديار، وأن البر يزيد في العمر.

وقد حمله إعجابه بماله على تنقص غيره، فصار هُمَزُهُ لُمَزَهُ إن من كانت هذه صفاته: الهمز واللمز والانشغال بجمع المال عن الاستعداد للأخرة، فسيكون مصيره وخيماً، وعذابه أليماً؛ سيلقى أسوأ مصير؟

﴿لِيُبَدَنَّ فِي الْحُطْمَةِ﴾ أي نار تُحَطَّم ما يلقي فيها وتهشمه بقوة. والحطمة هي: إحدى طبقات النار، أعادنا الله منها، ثم بيّن ﷺ أن هذه النار لا تصورها العقول، ولا تبلغ شدة هولها الأفهام، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ﴾ (٥)؟ استفهام للتضخيم والتهويل، ثم بيّنها بقوله جل ذكره: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمَوْجُودَةُ﴾ (٦)، فإضافتها إلى الله، لبيان عظم شأنها وشدة هولها، وأخبر أنها موقدة دائماً وأبداً لا تطفأ ولا تبرد.

﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦]، ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الْآفِتَةِ﴾ أي يصل حرها إلى القلوب. لا تقتصر على ظاهر البدن أو أطراف الأعضاء بل يعم حرها ظاهر البدن وباطنه.

ثم أخبر سبحانه أن هذه النار مغلقة الأبواب مسدودة المنافذ، فقال

تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ۗ﴾، ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۗ﴾.

والعمد هي: أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار وتشد تلك الأطباق بالأوتاد حتى يرجع عليهم غمها وحرها فلا يدخل عليهم روح ولا يخرج منها غم.

وبعد، فهذا إخبار من أصدق القائلين، وتهديد من عزيز مقتدر، يقول للشيء: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، إنه وعيد لمن أعجبه نفسه، فاحترق الناس بالهمز واللمز، وأعجبه ماله حتى صار عبداً له، واشتغل به عن طاعة ربه، وحبسه عن واجبه، وصار يظن أنه سيبقى دائماً لهذا المال، وسيبقى هذا المال له، لا يفكر في حساب، ولا يخاف من عقاب، ولا يطمع في ثواب.

إن هذه السورة العظيمة الكريمة تحذرننا تحذيراً مؤكداً من هذه الصفات، وتحثنا على الإتصاف بأضدادها من صفات الخير كالتواضع واحترام المسلمين والكف عن أعراضهم وإطابة المكاسب، وعدم الاغترار بالمال والغنى؛ والانشغال به عما أوجب الله.

إن الله تعالى لم يحرم علينا جمع المال من وجوهه المباحة ولكنه حرم علينا الجمع الذي يصاحبه الغرور ومنع الحقوق الواجبة والمستحبة.

إن الله سبحانه وتعالى إنما ذم من ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى ۗ﴾، وذم أيضاً ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۗ﴾ ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۗ﴾، وأثنى ﷺ على ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۗ﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۗ﴾ [الليل: ٥، ٦] وحرّم أذية العباد فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ يَقْتُلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ مِّمَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۗ﴾.

وجاء عن النبي ﷺ في صحيح البخاري أنه قال: «إن شرَّ الناس منزلةً عند الله من ودَّعه الناسُ اتقاءً فحشه»، وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره، بحسبِ امرئٍ من الشرِّ أن يحقرَ أخاه المسلم» [أخرجه مسلم]، وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه» [رواه مسلم].

وفي الصحيحين قال ﷺ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن»، قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه».

وروى أبو داود والإمام أحمد عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عُرِّجَ بي مررت بقوم لهم أظفارٌ من نحاسٍ يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم».

سُورَةُ الْفِيلِ

مكية وآياتها خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ .

هذه السورة نزلت على الرسول ﷺ في مكة وهو يواجه أذى المشركين له، لأنهم قوم لا يعلمون، ففيها بيان حرمة بيت الله الحرام وأن الله تعالى مانع بيته وحاميه في كل زمان، وتسلية الرسول ﷺ عما يلاقه من كفار قريش، وتذكير قريش بنعمة الله تعالى عليهم، حيث كفاهم مئونة عدوهم فأهلكه، لعلهم يرعون، فعرضت السورة تلك الحادثة التاريخية الهامة، والتي وافقت عام ميلاد النبي ﷺ، وكانت من أعظم الإرهاصات لعصر النبوة، وكان لسان الحال يقول: يا قوم اذكروا مِثَّةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ونعمته، إذ دفع عنكم عدوكم أبرهة وحماكم من شره، فهذا رسول الله بين ظهرائكم، يتلو عليكم كتاب ربكم، فآمنوا خيراً لكم، وقد علمتم ما أصاب أصحاب الفيل بسبب كفرهم وطغيانهم، فلستم بمأمن من عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾﴾ أي ألم ينته إلى علمك فعل ربك بأصحاب الفيل؟ الاستفهام تقريرى، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد أمته، والمعنى: قد علمت ذلك، وأصحاب الفيل هم الذين قدموا من اليمن يريدون تخريب الكعبة وهم الحبشة وقائدهم أبرهة الحبشي الأشرم، وستأتي قصتهم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ ٢١٠ ﴿أَيُّ أَلْمٍ يَجْعَلُ مَكْرَهُمْ وَسَعِيَهُمْ لِتَخْرِيبِ الْكَعْبَةِ فِي تَضْيِيعِ وَخَسْرَانِ﴾ ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ ٢١١ أي وأرسل عليهم طيوراً أتتهم جماعات جماعات، كانت تشاهد وهي تخرج من البحر، شاهدها أهل مكة المعتصمون بقمم الجبال رأوها تمر من فوقهم وتتجه نحو الغزاة فتفتك بهم، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ ٢١٢ أي من طين مشوي متحجر وهو حجر وطين مختلط ليس كبيراً، الحجر الواحد يشبه الحمصة أو العدسة، فكان كل طير يحمل ثلاثة أحجار، واحدة بمنقاره واثنين بمخليه، كل واحدة في مخلب، فيضرب الرجل من هؤلاء الأشقياء بحجر في رأسه فيخرج من دبره، فيتمزق جسمه فيهلك، ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ ٢١٣ أي كزرع أكلته الدواب، ووطئته بأقدامها حتى تفتت وصارت تعصف به الرياح.

وقد كان السبب الذي من أجله حلت عقوبة الله تعالى لأصحاب الفيل، مسير أبرهة الحبشي. بجنده مع الفيل إلى بيت الله الحرام لتخريبه. وواقعة الفيل في ذاتها معروفة متواترة الرواية. حتى إنهم جعلوها مبدأ تاريخ يحددون به أوقات الحوادث. فيقولون: ولد عام الفيل وحدث كذا لسنتين بعد عام الفيل ونحو ذلك. وتفصيل نبئها على ما أثره ابن هشام: أن أبرهة الحبشي كان أمير صنعاء للنجاشي. وكان ذا دين في النصرانية، فبنى بصنعاء كنيسة لم ير مثلها في زمانها. ثم كتب للنجاشي: إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك. ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب. فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي غضب رجل من كنانة فخرج حتى أتى الكنيسة فقعدها فيها (أي أحدث فيها) ثم خرج فلحق بأرضه. فأخبر بذلك أبرهة، فقال: من صنع هذا؟ فقيل: صنع هذا رجل من العرب من أهل هذا البيت الذي تحج العرب إليه بمكة، لما سمع قولك: (أصرف إليها حج العرب) غضب فجاء فقعدها فيها. أي أنها ليست لذلك بأهل. فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرون إلى البيت حتى يهدمه. ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت، ثم سار وخرج معه بالفيل. وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به، ورأوا جهاده حقاً عليهم، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام. فخرج

إليه رجل كان من أشرف أهل اليمن وملوكهم يقال له: ذو نفر. فدعا قومه
ومن أجا به من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام، وما
يريد من هدمه وإخراجه، فأجا به إلى ذلك من أجا به.

ثم عرض له فقاتله فهزم ذو نفر وأصحابه وأتى به أسيراً. فلما أراد قتله
قال له ذو نفر: أيها الملك! فلا تقتلني فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيراً
لك من قتلي، فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق. وكان أبرهة رجلاً
حليماً. ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له. حتى إذا كان بأرض
خثعم عرض نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلي خثعم: شهران وناهس، ومن
تبعه من قبائل العرب. فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له نفيل أسيراً، فأتى به. فلما
هم بقتله قال له نفيل: أيها الملك! لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب.
وهاتان يداي لك على قبيلي خثعم: شهران وناهس، بالسماح والطاعة. فخلى
سبيله وخرج به معه يده. حتى إذا مر بالطائف خرج له مسعود بن معتب
الثقيفي في رجاله ثقيف. فقالوا له: أيها الملك! إنما نحن عبيدك سامعون لك
مطيعون، ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد - يعنون
اللات - إنما تريد البيت الذي بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه. فتجاوز
عنهم - واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة - فبعثوا
معه أبارغال يده على الطريق إلى مكة. فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله
المغمس. فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك: فرجعت قبره العرب. فهو القبر
الذي يرحم الناس بالمغمس. فلما نزل أبرهة المغمس بعث رجلاً من الحبشة
يقال له: الأسود بن مفسود على خيل له حتى انتهى إلى مكة. فساق إليه
أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم. وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن
هاشم، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها. فهتمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان
بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به، فتركوا ذلك.

وبعث أبرهة حنافة الحميري إلى مكة وقال له: سل عن سيد أهل هذا
البلد وشريفهم، ثم قل له: إن الملك يقول لك: إني لم آت لحربكم. إنما
جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب، فلا حاجة لي في
دمائكم، فإن هو لم يرد حربي فأنتني به. فلما دخل حنافة مكة سأل من سيد

قريش وشريفها؟ فقيل له: عبد المطلب بن هاشم. فجاءه فقال له: ما أمره به أبرهة. فقال له عبد المطلب: والله! ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة. هذا بيت الله الحرام وبيت خليله ﷺ (أو كما قال) فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمة. وأن يخل بينه وبينه، فوالله! ما عندنا دفع عنه. فقال له حناطة: فانطلق معي إليه، فإنه قد أمرني أن آتية بك. فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه، حتى أتى العسكر. فسأل عن ذي نفر وكان له صديقاً حتى دخل عليه وهو في مَحْبَسِه. فقال له: يا ذا نفر! هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفر، وما غناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غدواً أو عشياً. ما عندي غناء في شيء مما نزل بك، إلا أن أنيساً سائس الفيل صديق لي. فسأرسل إليه وأوصيه بك وأعظم عليه حقك، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فيكلمه بما بدا لك ويشفع لك عنده بخير، إن قدر على ذلك، فقال: حسبي.

فبعث ذو نفر إلى أنيس، فقال له: إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة. يطعم الناس بالسهل، والوحوش في رؤوس الجبال. وقد أصاب له الملك مائتي بعير، فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت، فقال: أفعل. فكلم أنيس أبرهة فقال له: أيها الملك! هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عين مكة، وهو يطعم الناس في السهل، والوحوش في رؤوس الجبال. فأذن له عليك فليكلمك في حاجته. قال: فأذن له أبرهة. قال: وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم. فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه وأكرمه عن أن يجلسه تحته. وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه. فنزل أبرهة عن سريريه فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه. ثم قال لترجمانه: قل له: ما حاجتك؟ فقال له ذلك الترجمان. فقال: حاجتي أن يرد عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي. فلما قال له ذلك، قال أبرهة لترجمانه: قل له: قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني. أتلكنني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آباتك، قد جئتُ لهدمه لا تكلمني فيه قال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه. قال: وما كان ليمنع مني، قال: أنت وذاك. وكان، فيما يزعم أهل العلم، قد ذهب مع عبد المطلب إلى أبرهة حين بعث إليه حناطة -

يعمر بن نفثة سيد بني بكر وخويلد ابن وائلة سيد هذيل . فعرضوا على أبرهة
ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت، فأبى عليه . والله أعلم،
أكان ذلك أم لا .

فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل التي أصاب له . فلما انصرفوا عنه،
انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة
والتحرز في شعف الجبال والشعاب، تخوفاً عليهم من معرة الجيش . ثم قام
عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة . وقام معه نفر من قريش يدعون الله
ويستنصرونه على أبرهة وجنده . فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب
الكعبة:

لا هُمَّ إِلَّا الْعَبْدَيمُ نَع رَحْلَهُ، فامنع جلالك
لا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ ومحالُّهم، عَدُوا مِحَالِك
إِنْ كُنْتَ تَارِكُهُمْ وَقَبِ لَتَنَا، فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكَ

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة، وانطلق هو ومن معه من قريش
إلى شعف الجبال، فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها . فلما
أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهياً فيله وعبى جيشه، وأبرهة مجمع لهدم
البيت ثم الانصراف إلى اليمن . فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن
حبيب حتى قام إلى جنب الفيل فأخذ بأذنه . فقال له: ابرك أو ارجع راشداً
من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام . ثم أرسل أذنه فبرك الفيل . وخرج
نفيل يشتد حتى أصعد في الجبل . وضربوا الفيل ليقوم . فضربوا رأسه ليقوم
فأبى . فأدخلوا محاجن لهم في مراقه فبزغوه بها - أي أدموه - ليقوم فأبى .
فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك .
ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى مكة فبرك . وأرسل الله تعالى
طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار
يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا
تصيب منهم أحداً إلا هلك . وليس كلهم أصابت . وخرجوا هاربين يبتدون
الطريق الذي منه جاءوا . ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق إلى اليمن .
فقال نفيل حين رأى ما أنزل الله بهم من نعمته:

أين المفردُ والإله الطالبُ والأشرم المغلوبُ ليس الغالبُ
فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون بكل مهلك، على كل منهل.
وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة. كلما سقطت
منه أنملة أتبعها منه مدة تَمَّتْ - أي تسيل - قيحاً ودماً، حتى قدموا به صنعاء
وهو مثل فرخ الطائر. فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه، فيما يزعمون^(١).

(١) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٣٠/٢٩٩ - ٣٠٣) بسنده إلى ابن إسحاق.

سُورَةُ قُرَيْشٍ

مكية وآياتها أربع آيات

أخرج البخاري في تاريخه والحاكم وصححه والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الخلافيات عن أم هانئ بنت أبي طالب أن رسول الله ﷺ، قال: «فضل الله قريشاً بسبع خصال لم يعطها أحداً قبلهم، ولا يعطيها أحداً بعدهم: إني فيهم وفي لفظ النبوة فيهم، والخلافة فيهم، والحجاجة فيهم، والسقاية فيهم، ونصروا على الفيل، وعبدوا الله سبع سنين، وفي لفظ عشر سنين لم يعبد أحد غيرهم، ونزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد غيرهم ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾». قال ابن كثير: هو حديث غريب.

وأخرج الطبراني في «الأوسط» وابن مردويه وابن عساكر عن الزبير بن العوام قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل الله قريشاً بسبع خصال. فضلهم بأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبد إلا قريش، وفضلهم بأنه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون، وفضلهم بأنه نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين غيرهم وهي ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ وفضلهم بأن فيهم النبوة والخلافة والحجاجة والسقاية».



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَافِ﴾^(١) قُرَيْشٍ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾^(٢) رِحْلَةَ الِشْتَاءِ وَالصَّيْفِ
فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٢﴾ الَّتِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٣﴾.

تحدثت هذه السورة عن تذكير قريش بنعم الله عليهم، حيث أسكنهم

(١) ﴿لِإِيلَافِ﴾ قرأ الشامي بهمزة مكسورة بعد اللام مع حذف الياء الساكنة بعد الهمزة، وأبو جعفر بحذف الهمزة المكسورة مع إثبات الياء، والباقون بإثبات الهمزة والياء.

(٢) ﴿لِإِيلَافِهِمْ﴾ قرأ أبو جعفر بحذف الياء بعد الهمزة وغيره بإثباتها.

بجوار بيته الحرام الذي حماه من كل معتدي، فنالوا بذلك الأمن، ورحلوا في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام في تجارتهم لا يتعرض لهم أحد بسوء، في حين يتخطف الناس من حولهم، وذلك يوجب عليهم توحيد الله وإفراده بالعبادة، فهو الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.

قوله تعالى: ﴿لِيَأْتِيَنَّ قُرَيْشٍ ۖ إِلَى الْبَيْتِ وَحَمَلَاتُ الْبَيْتِ وَالصَّفِيفَ ۚ﴾ (٢) بعده هم ولد كنانة، ومعنى الإيلاف: الإلفة والاعتياد، واللام متعلق بالفعل بعده ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ أي من أجل تيسير الله على قريش وتسهيله لهم ما كانوا يألفونه من رحلتي الشتاء والصيف، حيث في الشتاء يرحلون إلى اليمن، وفي الصيف يرحلون إلى الشام، وذلك للتجارة وجلب ما يحتاجون إليه من تلك البلاد، فيحصل لهم من الرحلتين فوائد كثيرة، ومكاسب كبيرة، فأمرهم الله تعالى أن يعبدوه، فقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ﴾ (٢) شكراً لله تعالى على هذه النعمة، حيث كانوا يتنقلون في البلاد آمنين لا يتعرض لهم أحد بسوء، لأن الناس كانوا يقولون: هؤلاء جيران بيت الله، وسكان حرمة، فامتن عليهم تعالى ليوحده ويشكروه، ولعل هذا من أساليب الدعوة، لأنهم كانوا في جاهلية مظلمة لا يحللون ولا يحرمون، ولا يعرفون حياً ولا نبوة ولا بعثاً ولا نشوراً، لذلك ذكّرهم بنعمه ليعبدوه، وإلا فإن عبادته حتمية وواجبة وجوباً ثابتاً لا اختيار لأحد فيها، لأنها العلة والسبب لخلق الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۗ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ودخلت الفاء، لما في الكلام من معنى الشرط ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ أي إن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعده من أجل هذه النعمة الجليلة، حيث يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون بفضل الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۚ﴾ (١) أي فليعبدوا الله تعالى وحده، وهذا أمر من الله لهم، والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة وهو غاية التذلل والخضوع له ﷻ، فالله تعالى وحده هو المستحق للعبادة، لأن قوله: ﴿الَّذِي﴾ يعني هذا الإله العظيم الذي أطعمهم وهم جياع، لأنهم بواد غير ذي زرع، جعله الله بلداً آمناً تجلب إليه الأرزاق من كل الأصقاع، وحقق الله لهم الأمن

في بلدهم وفي أسفارهم لما ألقاه في قلوب الناس من هيبة البيت الحرام، مكة وسكانها، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُمْكِنَ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَنَحْفَطُ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ ءَأَيُّ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِنعَمَ اللَّهُ يَكْفُرُونَ﴾ [٧٠: ١٠١] ﴿[العنكبوت: ٦٧] وقال هنا: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ [٢] الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّن حَوْفٍ﴾ [٤] أفبعد هذا كله يعبدون الأصنام الجامدة التي لا تنفع ولا تضر، ويتركون عبادة الملك العلام الذي يقول للشيء ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ أين تذهب عقول مثل هؤلاء:

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿لِيُطْلَفَ قُرَيْشٍ﴾ [١] قال: عادة قريش رحلة في الشتاء ورحلة في الصيف، وفي قوله: ﴿وَأَمَنَهُم مِّن حَوْفٍ﴾ قال: كانوا يقولون: نحن من حرم الله فلا يعرض لهم أحد في الجاهلية يأمنون بذلك، وكان غيرهم من قبائل العرب إذا خرج أغير عليهم.

وأخرج الزبير بن بكار في الموفقيات عن عمر بن عبد العزيز قال: كانت قريش في الجاهلية تحتفد، وكان احتفادها أن أهل البيت منه كانوا إذا سافت - يعني هلكت أموالهم - خرجوا إلى براز من الأرض فضربوا على أنفسهم الأخبية ثم تناوبوا فيها حتى يموتوا من قبل أن يعلم بخلتهم، حتى نشأ هاشم بن عبد مناف، فلما نبل وعظم قدره في قومه قال: يا معشر قريش إن العزم الكثرة، وقد أصبحتم أكثر العرب أموالاً وأعزهم نفراً، وإن هذا الاحتفاد قد أتى على كثير منكم، وقد رأيت رأياً. قالوا: رأيك راشد فمرنا نأتمر. قال: رأيت أن أخلط فقراءكم بأغنيائكم فأعمد إلى رجل غني فأضم إليه فقيراً عياله بعدد عياله، فيكون يوازره في الرحلتين رحلة الصيف إلى الشام ورحلة الشتاء إلى اليمن، فما كان في مال الغني من فضل عاش الفقير وعياله في ظله، وكان ذلك قطعاً للاحتفاد قالوا: نعم، ما رأيت فالف بين الناس. فلما كان من أمر الفيل وأصحابه ما كان وأنزل الله ما أنزل وكان ذلك مفتاح النبوة وأول عز قريش حتى أهابهم الناس كلهم وقالوا: أهل الله والله معهم، وكان مولد النبي ﷺ في ذلك العام، فلما بعث الله رسوله ﷺ كان فيما

أنزل الله عليه يعرف قومه وما صنع إليهم وما نصرهم من الفيل وأهله ﴿أَلَمْ تَرَ
كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ ﴿١﴾... ﴿ إلى آخر السورة، ثم قال: ولم فعلت
ذلك يا محمد بقومك وهم يومئذ أهل عبادة أوثان فقال لهم: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾
﴿١﴾... ﴿ إلى آخر السورة.﴾

سُورَةُ الْمَاعُونِ

مكية الأوائل مدنية الأواخر
آياتها تسع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّبْرِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ أَيْتِمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ .

تحدثت هذه السورة عن مكذب بالجزاء ومنافق ومراثي، فأما المكذب بالجزاء فمن صفاته أنه يهين اليتيم ويزجره غلظة لا تأديباً، وأنه لا يفعل الخير ولا يدل عليه، لأنه لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً، ومثله المنافق نفاقاً اعتقادياً، وإلا لما حصلت منه أفعاله القبيحة، مثل تأخير الصلاة عن وقتها تساهلاً عدم مبالاة بها، فهو إن صلى فبلا خشوع ولا أدنى اهتمام بها. وإن فاتته فلا يندم عليها، ومنهم المراثي بعمله، المانع معونته عن الناس، فهؤلاء موعودون بالويل والهلاك إن ماتوا عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّبْرِ ﴿١﴾﴾ الخطاب للنبي ﷺ لأنه المنزل عليه القرآن والحكم عام لكل ذي لب ليتحرز المسلم مما ذكر من هذه الصفات الذميمة المهلكة، وهي الكفر والنفاق والرياء، على ما سيأتي، ولاستفهام للتعجب والتشويق، أي هل عرفت الذي يكذب بالحساب والجزاء في الآخرة، وذلك مستلزم للتكذيب بالبعث، كما قال تعالى عن هذا الصنف الكافر من الناس أنهم يقولون: ﴿أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا نُرَاكُمَا وَعَظَمْنَا أَوَدًا لَتَبْعُوُنَا ﴿١١﴾ أَوْ مَا بَادَاْنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الصفات: ١٦ - ١٧] الجواب ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

[الصفات: ١٨] ومن أقوال السلف حول قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ قال الحسن: هو الكافر، وقال ابن جريج: يكذب بالحساب وقال ابن عباس: يكذب بحكم الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ تفسير للمكذب بالدين، فهو الذي يدفع اليتيم دفعاً عنيفاً بجفوة وغلظة، ويقهره ويظلمه ولا يعطيه حقه، قيل: نزلت في أبي جهل والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة وأشباههم، وقيل: كان أبو جهل وصياً ليتيم، فجاءه عرياناً يسأله من مال نفسه، فدفعه دفعاً شنيعاً، فقال له - أي اليتيم - أكابر قريش: قل لمحمد يشفع لك، وكان غرضهم الاستهزاء به، والنبي ﷺ لا يرد محتاجاً، فذهب معه إلى أبي جهل، فقام أبو جهل وبذل المال لليتيم، فعيrote قريش، وقالوا: أصبوت؟ فقال: لا والله ما صبوت، ولكن رأيت عن يمينه وعن يساره حربة خفت إن لم أجهه يطعنها فيّ.

وقيل: إن رجلاً من المشركين نحر جزوراً، فسأله يتيماً لحماً، فقرعه بعصاه، وكل هذا يبين مدى القسوة التي كان عليها المكذبون بيوم الدين.

ومن صفاتهم أيضاً أن أحدهم ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ أي لا يطعمه ولا يحث غيره على إطعامه، لأنه لا يؤمن بالحساب والجزاء، وتلك من صفات الظلمة قساة القلوب ﴿وَسِعَعُرُّ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣٧].

قيل: إلى هنا نزل بمكة فيمن ذكر، وما بقي من السورة نزل بالمدينة النبوية في بعض المنافيين.

فقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ أي هلاك وعذاب للمصلين المنافقين، وهم ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أي غافلون عنها، لا يقيمونها كما يجب أن تقام، فيؤخرونها عن وقتها تهاوناً بها، ولا يتمون أركانها من ركوع وسجود وطمأنينة... إلخ.

قال ابن عباس: هو المصلي الذي إذا صلى لم يرج ثواباً، وإن تركها لم يخش عليها عقاباً. اهـ.

وقد سئل رسول الله ﷺ عن الآية، فقال: «هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها» [أخرجه ابن جرير].

فالسهو عن الصلاة من أفعال المنافقين، أما السهو في الصلاة فقد يقع من المؤمنين، لأن سهو المنافق ترك وقلة إلتفات إليها، أما المؤمن إذا سها في صلاته تداركه في الحال وجبره بسجود السهو مع حزن في نفسه لما وقع منه من السهو في صلاته، ولا يلام عليه.

ومن أوصاف أولئك الذين وُعدوا بويل: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ أي يراؤن الناس بأعمالهم، في الصلاة وفي التلاوة وفي الصدقة وغير ذلك ليقال إنهم من الصالحين الأتقياء، وإذا خلى لم يفعل شيئاً من ذلك كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] وفي الصحيحين: «من سمع سمع الله به، ومن رأى رأى الله به»، فمن أظهر عمله رياء وسمعه فهو واقع تحت هذا الوعيد، أما من أظهره ليقتدى به فرضاً كان أو نفلاً فهو محمود.

وقوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ أي يمنعون ما يجب بذله من المواعين، وهي الأواني يمنعونها، فلا يعيرونها من يحتاج إليها، مثل الفأس والقدر والدلو والإبرة والماء والملح والنار، ونحو ذلك، فهذا دليل على بخلهم، والبخل مذموم.

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ قال: هم المنافقون يراؤون الناس بصلاتهم إذا حضروا ويتركونها إذا غابوا ويمنعونهم العارية بغضاً لهم وهي الماعون.

وأخرج الباوردي عن الحرث بن شريح قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يمنعه الماعون، قالوا: يا رسول الله، ما الماعون؟ قال: في الحجر وفي الماء وفي الحديد، قالوا: أي الحديد؟ قال: قدر النحاس وحديد الفأس الذي تمتنون به. قالوا: فما هذا الحجر؟ قال: القدر الذي من الحجارة».

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في «الأوسط» وابن مردويه والبيهقي في «سننه» من طرق عن ابن مسعود قال: كنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية الدلو والقدر والفأس والميزان وما تتعاطون بينكم.

وأخرج الفريابي وابن المنذر والبيهقي عن عكرمة أنه سئل عن الماعون فقال: هي العارية، فقيل: فمن يمنع متاع بيته فله الويل؟ قال: لا ولكن إذا جمعهن ثلاثهن فله الويل إذا سها عن الصلاة ورايا ومنع الماعون.

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

مكية وآياتها ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾ .

تحدثت هذه السورة عن فضل الله تعالى على نبيه ﷺ بما أعطاه من الخير الكثير والنعم العظيمة في الدنيا وفي الآخرة، كسورتي الضحى والشرح في تعداد النعم على رسول الله ﷺ، ومن ذلك نهر الكوثر الذي ثبت خبره وصفته في السنة، وأمر النبي ﷺ بإدامة الصلاة خالصة لله تعالى، ونحر الهدى شكراً لله تعالى.

وختمت السورة ببشارة النبي ﷺ بجز الدنيا والآخرة له ولأتباعه، وبالذلل والحقارة لأعدائه الذين أبغضوه.

ومن أسباب نزولها: ما أخرجه البزار وغيره بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم كعب بن الأشرف مكة، فقالت له قريش: أنت سيدهم، ألا ترى هذا المنصب المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السقاية، وأهل السدانة، قال: أنتم خير منه، فنزلت: ﴿ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ ﴿٣﴾ وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر عن عكرمة قال: لما أوحى إلى النبي ﷺ، قالت قريش: بتر محمد منا، فنزلت: ﴿ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ ﴿٣﴾ .

وقد وردت روايات أخرى ومنها أن قريشاً وأعداء النبي ﷺ كانوا يقولون: إن محمداً أبتراً لا عقب له. فإذا مات استرحنا منه فأنزل الله تعالى:

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ أي العدد الكثير، ولست بالأبتر الذي قالوه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ أي الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومنه القرآن والحكمة والنبوة والدين والحق والهدى وما فيه سعادة الدنيا والآخرة ومنه أيضاً نهر في الجنة كما في صحيح مسلم عن أنس قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ أغفى إغفاءً، ثم رفع رأسه متبسماً؛ فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «نزلت عليّ آناً سورة - فقرأ: ﴿يَسِّرْ اللَّهُ الرِّجْمَ الرَّجِيمَ﴾ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾» ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» قلنا: الله ورسوله أعلم؛ قال: «فإنه نهر وعدنيه ربي ﷺ عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمي يوم القيامة آنيته عدد النجوم فيختلج العبد منهم^(١) فأقول: إنه من أمي فيقال: إنك لا تدري ما أحدث بعدك».

وأخرج البخاري وابن جرير والحاكم من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: الكوثر الخير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن ناساً يزعمون أنه نهر الجنة قال: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه.

وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق ابن أبي نجیح عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قال: الخير الكثير. وقال أنس بن مالك: نهر في الجنة، وقالت عائشة: هو نهر في الجنة ليس أحد يدخل أصبعه في أذنيه إلا سمع خرير ذلك النهر.

وورد في الحديث في صفة نهر الكوثر: «ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن، وأحلى مذاقاً من العسل وأطيب رائحة من المسك وأنيته كنجوم السماء كثرة وحسناً، من شرب منه لا يظمأ ومن توضع منه لا يشعث» أو كما قال. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ ﴿١﴾ شكراً لله تعالى على هذه النعمة العظيمة أن تصلي وتنحر له، والمراد جميع الصلوات ويدخل فيها صلاة عيد

(١) قوله: (فيختلج العبد منهم) أي يُنتزع ويُجذب منهم.

الأضحى دخولاً أولياً، لأن السنة أن يصلي المسلم صلاة عيد الأضحى ثم ينحر أضحيته، وفي الصحيحين عن البراء بن عازب قال: كان رسول الله ﷺ يصلي العيد، ثم ينحر نسكه، ويقول: «من صلى صلاتنا، ونسك نسكنا، فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له». فقام أبو بردة بن نيار، فقال: يا رسول الله، إني نسكت شاتي قبل الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم يشتهى فيه اللحم، قال: «شاة لحم» قال: فإن عندي عناقاً^(١) هي أحب إلي من شاتين، أفتجزئ عني؟ قال: «تجزئك ولا تجزئ أحداً بعدك».

وفي الآية والحديث دليل على وجوب تقديم صلاة العيد على النحر، ويشمل صلاة الصبح بمزدلفة ثم نحر الهدي بمنى، والمقصود أن هذا أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ بأن يخلص الله تعالى صلواته ونسكه والأمة تبعاً له، عليه الصلاة والسلام، بل هي المقصودة بالتشريع، ولعل من معاني الآية أنه كان ناساً يصلون لغير الله تعالى وينحرون لغير الله تعالى، لأنه ﷺ كان بين مشركين، فأمره الله تعالى أن يصلي له وينحر له متقرباً إلى ربه بذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿١٦٣﴾ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

ولهذا الأمر الإلهي الكريم أمثل وأهدى النبي ﷺ في حجة الوداع مئة بعير، ونحر منها ثلاث وستين بيده، وأعطى علي بن أبي طالب رضي الله عنه الباقي فنحرها. وتصدق بجميع أجزائها إلا بضعة واحدة من كل ناقة، فأخذها وجعلت في قدر، فطبخها فأكل من لحمها، وشرب من مرقها، وأمر بالصدقة حتى بجلالها وجلودها عليه الصلاة والسلام، والأمر في الآية أمر له وللأمة، فعلياً أن نخلص الصلاة لله، وأن نخلص النحر لله كما أمر بذلك نبينا ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ أي مبغضك هو الأقل الأذل المنقطع النسل والعقب، وهذا الدعاء مستمر في حق كل من أبغض النبي ﷺ أو أبغض شيئاً مما جاء به من الهدى والحق والنور المبين، وذلك في كل زمان ومكان إلى قيام الساعة.

(١) العناق: الأثني من أولاد المعز ما لم يتم له سنة.

سُورَةُ الْكَافِرُونَ

مكية وآياتها ست آيات

جاء في صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة وبـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) في ركعتي الطواف، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر، وروى الإمام أحمد عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بضعاً وعشرين مرة أو بضع عشرة مرة ﴿قُلْ يَتَّيَبُ الْكَاذِبُونَ﴾ (٢) و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١)، وروى الإمام أحمد عن الحارث بن جبلة قال: قلت: يا رسول الله، علمني شيئاً أقوله عند منامي قال: «إذا أخذت مضجعك من الليل فاقرأ: ﴿قُلْ يَتَّيَبُ الْكَاذِبُونَ﴾ (٢)، فإنها براءة من الشرك».



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَتَّيَبُ الْكَاذِبُونَ﴾ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ (١).

هذه السورة سورة التوحيد الخالص والبراءة من الشرك، فيها أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقطع طمع المشركين في مساومتهم إياه في الحق، حيث

(١) ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ فتح ياء ﴿وَلِيَ﴾ نافع وهشام وحفص والبرقي بخلق عنه، وأسكنها الباقون، وهو الوجه الثاني للبرقي، وأثبت ياء دين ولاصلاً ووقفاً يعقوب وحذفها الباقون في الحاليين.

عرضوا عليه أن يعبدوا إلهه سنة ويعبد آلهتهم سنة! وهذا يدل على غاية جهلهم وأن عقولهم مظلمة، قد تراكم عليها صداً الجاهلية حتى أصبحت لا تميز بين الحق والضلال، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يرد عليهم بالحق الذي لا مرية فيه، وهو أن الدين الحق عبادة الله وحده لا شريك له، فهو باقٍ على عبادة الله الذي لا إله غيره، وهم باقون على عبادة آلهتهم التي لا تغني من الحق شيئاً، فلهم دينهم الباطل وله دينه الحق.

وقد وردت روايات كثيرة في سبب نزول هذه السورة ومنها ما أورد أبو جعفر الطبري بسنده عن سعيد بن ميناء مولى البخترى قال: لقي الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأمّية بن خلف رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشركك في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا كنا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت منه بحظك، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾﴾ حتى انقضت السورة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المقترحين الباطل: يا أيها الكافرون بالله ورسوله وكتابه، المشركون في عبادة الله أصناماً لا تضر ولا تنفع ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ الآن ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ ﴿٣﴾﴾ الآن ﴿مَا أَعْبُدُ﴾ و«ما» بمعنى مَنْ، أي من أعبد، وهو الله تعالى، فأنا أعبد الإله الحق، وهو الله سبحانه وتعالى رب كل شيء ومليكه، أما أنتم فتعبدون الأحجار والأوثان، فشتان بين عبادة الواحد الديان وعبادة الأوثان ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾﴾ تأكيد لما سبق من البراءة من عبادة الأصنام، وقطع أطماع الكفار في مساومتهم إياه ﷺ، والمعنى: لا أعبد هذه الأصنام في الحال ولا في الاستقبال، فأنا لا أعبد ما تعبدون من دون الله أبداً ما عشت، فلا أعبد أصنامكم الآن ولا فيما يستقبل من الزمان ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾﴾ أي ولستم أنتم في المستقبل بعبادين إلهي الحق الذي أعبد، وهو الله تعالى لا إله إلا هو وحده لا شريك له، ولا ند، ولا صاحبة ولا ولد ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الشرك ﴿وَلِي دِينِ﴾ التوحيد، فلا أنا عابد عبادتكم، ولا أنتم عابدون عبادتي.

فمعنى الآيتين ٢ و ٣ الاختلاف التام في المعبود، فإن إله المشركين الأوثان، وإله محمد ﷺ ومن تبعه الرحمن، وأما الآيتان ٤ وه فتدلان على الاختلاف التام في نفس العبادة، فعبادة النبي ﷺ خالصة لله تعالى، وعبادة المشركين شرك مخلد في النار، وقال البخاري: يقال: ﴿لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الكفر ﴿وَلَىٰ دِينٍ﴾ الإسلام. ولم يقل: ديني، لأن الآيات بالتثون فحذفت الباء كما قال: ﴿يَهْدِينِ﴾ و﴿يَشْفِينِ﴾. وقال غيره ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢﴾ الآن؛ ولا أجيبيكم فيما بقي من عمري ﴿وَلَا أَنْتَ عَبْدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ﴿٣﴾ وهم الذين قال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ مُطْفِئَةً وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٤٦].

وأخرج الطبراني في الصغير عن علي قال: لدغت النبي ﷺ عقرب وهو يصلي، فلما فرغ قال: «لعن الله العقرب لا تدع مصلياً ولا غيره» ثم دعا بماء وملح وجعل يمسح عليها ويقرأ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ أَلْفَلَقِ﴾ ﴿١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ﴿١﴾.

وأخرج أبو يعلى عن جبير بن مطعم قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أتحب يا جبير إذا خرجت سफراً أن تكون أمثل أصحابك هيئة وأكثرهم زاداً؟ قلت: نعم بأبي أنت وأمي. قال: «فاقرأ هذه السور الخمس ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١﴾ و﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ﴿١﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ أَلْفَلَقِ﴾ ﴿١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ﴿١﴾ وافتتح كل سورة بسم الله الرحمن الرحيم». قال جبير: وكنت غنياً كثير المال، فكنت أخرج في سفر فأكون من أبذهم هيئة وأقلهم زاداً، فما زلت منذ علمنيهن رسول الله ﷺ وقرأت بهن أكون من أحسنهم هيئة وأكثرهم زاداً حتى أرجع من سفري.

قال ابن كثير^(١): استدلل الإمام الشافعي وغيره بهذه الآية الكريمة ﴿لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ﴿١﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة فورث اليهود من النصارى وبالعكس، إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به. لأن الأديان ما عدا الإسلام، كلها كالشيء الواحد في البطلان. وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود، وبالعكس، لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين شتى».

(١) تفسير ابن كثير (٤/٦٠٠).

سُورَةُ النَّصْرِ

مدنية وآياتها ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾

هذه السورة بشارة للنبي ﷺ بالنصر وظهور الإسلام على كل أعدائه، وقد كان ذلك ممثلاً في فتح مكة، إذ أن العرب كانت تنتظر ما يحدث في مكة، فمن ظهر في مكة فهو على حق، ومن كان معتدياً قصمه الله كما وقع لأبرهة وجنوده عندما أراد تخريب البيت، فأهلكه الله وجنوده.

ولما كان فتح مكة على يد سيد الخلق محمد ﷺ، وهُزم المشركون، وأصبحت مكة معقل الإسلام، ودوى فيها صوت الحق: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وارتفع ذلك الصوت في جنبات المسجد الحرام، دانت العرب واستسلمت لدعوة الحق، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

وفي هذه السورة أمر الله تعالى نبيه ﷺ إذا رأى ذلك أن يسبح بحمد ربه، وينزهه عما لا يليق به، ويستغفره لنفسه وللمؤمنين لأنه هو التواب الرحيم.

روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يكثر من قول: سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب إليه: قالت: فقلت: يا رسول الله أراك تكثر من قول: سبحان الله وبحمده، استغفر الله وأتوب إليه: قال: «خبرني ربي إنني سأرى علامة في أمتي فإذا رأيتها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله

وأتوب إليه فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ . . . الخ .

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ لدينه الحق على الباطل ﴿وَالْفَتْحُ﴾ أي فتح مكة الذي حققه الله تعالى لنبيه ﷺ، وهو انتصار الحق على الباطل، وغلبة التوحيد على الشرك، وظهور الإسلام واضمحلال الشرك وأهله ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ أي ورأيت العرب يدخلون في الإسلام جماعات جماعات من غير حرب ولا قتال، وقد كانوا قبل ذلك يدخلون أحاداً، لكن بعد فتح مكة صارت العرب تأتي من أطراف الجزيرة وفوداً على النبي ﷺ، ويسلمون على يديه ﷺ، وذلك لأن العرب كانت تنتظر فتح مكة، ويقولون: إن ظهر على قومه فهو نبي، فلما فتح الله مكة عليه دخل الناس في دين الله أفواجا، فإذا حصل هذا كله وهو حاصل بلا ريب ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي نزهه ربك وقُدِّسه شكراً له على نعمة النصر والفتح، ودخول الناس في الدين الحق وتلاشي الشرك. ﴿وَأَسْتَغْفِرُ﴾ أي اطلب منه المغفرة لك ولأمتك ﴿إِنَّكُمْ كَانْتُمْ تَوَّابًا﴾ أي إنه ﷺ كثير القبول لتوبة عباده المستغفرين .

أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال: ذاك حين نعى له نفسه، يقول: إذا رأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا، يعني إسلام الناس يقول فذلك حين حضر أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ تَوَّابًا﴾ .

لما سبق وأن ذكرت قصة أصحاب الفيل كاملة أردت أن أذكر في المقابل قصة الفتح المبين، فتح مكة على سيد المرسلين وهي ملخصة من كتابي «شهر رمضان في الفقه والتاريخ والأدب» ص ٥٩ - ٦٨ .

إن فتح مكة المكرمة كان له أثر عميق في نفوس العرب حيث دخل الناس بعد الفتح في دين الله أفواجا، وذلك لأن العرب تعرف أن مكة منيعة، ولا يمكن أن يفتحها ملك جبار أو من يريد لها سوءاً، إذ لا يزال منهم من عاصر حادثة الفيل، وشاهد ما فعل الله بأبرهة الطاغية، وكذلك كانت قبائل العرب تجل قريشاً وبينها وبينهم حلف، فلما فتح الله تعالى لنبيه مكة، وأسلمت قريش، طوعاً وكرهاً، أقبل العرب على الإسلام ودخلوا في دين الله أفواجا بإرادة الله تعالى ومشيئته، قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾

﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴿٤﴾ سورة النصر بكاملها.

وكان من أسبابها أنه قد تقرر في صلح الحديبية أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل، فدخلت بنو بكر في عقد قريش، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ. وكان بين بني بكر وبين خزاعة ثأر قديم وعداء متوارث قبل البعثة المباركة، وجاء الإسلام فحجز بينهم، فلما كان صلح الحديبية دخلت القبيلتان في معسكرين متحاربين، فأراد بنو بكر أن ينتهزوا الفرصة ليأخذوا ثأرهم القديم من خزاعة أثناء هذه الهدنة، فوثبوا عليهم بماء لهم يقال له: الوتير قريب من مكة فأعانت قريش بني بكر على خزاعة بالسلاح وقتل بعضهم معهم.

وخرج عمرو بن سالم الخزاعي، وقدم على رسول الله ﷺ المدينة، فوقف عليه وأنشد أبياتاً من الشعر، ينشده فيها الحلف الذي كان بينه وبين خزاعة، وطلب النجدة، وأخبره أن قريشاً أخلفوه الموعد، ونقضوا الميثاق، وأنهم بيتوا وهم على ماء لهم، وقتلوا ركعاً وسجداً، فقال له رسول الله ﷺ: «نصرت يا عمرو بن سالم».

ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فأخبروه بما أصيب منهم، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، فقال رسول الله ﷺ: «كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد، ويزيد في المدة، بعثته قريش، وقد رهبوا للذي صنعوا» [ذكره ابن كثير عن ابن إسحاق].

ثم قدم أبو سفيان، فدخل على ابنته أم حبيبة فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت مشرك نجس، فقال: والله لقد أصابك بعدي شر، ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه، فلم يرد عليه شيئاً، ثم ذهب إلى أبي بكر الصديق، فكلمه في أن يكلم النبي ﷺ فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب، فقال: أنا أشفع لكم؟ والله لو لم أجد إلا الذر، لجاهدناكم به، ثم دخل على علي بن أبي

طالب، وعنده فاطمة والحسن غلام يدب بين يديها، فقال: يا علي، إنك أمس القوم بي رحماً، وإني جئت في حاجة، فلا أرجعنّ خائباً، اشفع لي إلى محمد، فقال علي: عزم رسول الله ﷺ على أمر، ما نستطيع أن نكلمه فيه، فقال لفاطمة: هل لك أن تأمري ابنك هذا، فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ فقالت: ما يبلغ ابني ذلك، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ فقال: يا أبا الحسن، إني رأيت الأمور قد اشتدت عليّ، فانصحنني، قال: والله ما أعلم شيئاً يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقم وأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك، فقال: أوترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال: لا، والله ما أظنه، ولكن ما أجد لك غير ذلك.

فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: يا أيها الناس، إني قد أجزت بين الناس، ثم ركب بعيره، وانصرف عائداً إلى مكة، فلما سمعت قريش القصة، قالوا: جئنا بما لا يغني عنا، ولا يغني عنك شيئاً وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز، واستعان على أمره بالكتمان، ثم أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتجهز، وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها».

وحدثت قصة حاطب بن أبي بلتعة في هذه الأثناء كما جاء في الروايات أن النبي ﷺ لما أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأسرّ الأمر، فتجهز الناس وكتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش، يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ثم أرسله مع امرأة، فجعلته في قرون رأسها وفتلت عليه، ثم خرجت به، وأتى الخبر رسول الله ﷺ من السماء، فأرسل رسول الله ﷺ علياً والزبير إلى المرأة، فأدركاها بروضة خاخ^(١)، فأنكرت ففتشاً رحلها، فلم يجدا فيه شيئاً، فهدها، فأخرجته من قرن رأسها، فأتيا به رسول الله ﷺ، فدعا حاطباً، فقال: «ما هذا يا حاطب؟»، فقال: لا تعجل عليّ يا رسول الله، والله إني لمؤمن بالله ورسوله، وما ارتددت، ولا بدلت، ولكني كنت امرأة مخلصاً في قريش، لست من أنفسهم، ولي فيهم أهل وعشيرة وولد، وليس لي فيهم

(١) موضع بين المدينة ومكة.

قراية يحمونهم، وكان من معك لهم قرابات يحمونهم، فأحببت أن أتخذ عندهم يداً، قد علمت أن الله مظهر رسوله، وتم له نوره.

فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله دعني أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله، وقد نافق، فقال رسول الله ﷺ: «إنه شهد بدرًا، وما يدريك يا عمر، لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم» فذرفت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم.

فخرج رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان من المدينة ومعه عشرة آلاف، ومضى حتى نزل مر الظهران، وعمى الله الأخبار عن قريش، فهم على وجل وترقب.

وأمر رسول الله ﷺ الجيش فأوقدوا النيران، فأوقد أكثر من عشرة آلاف نار، وكان العباس بن عبد المطلب قد خرج من مكة قبل ذلك بأهله وعياله مسلماً، مهاجراً، فلقي رسول الله ﷺ بالجحفة، فلما نزل رسول الله ﷺ بمر الظهران على ما أسلفنا، ركب العباس بغلة رسول الله ﷺ، وخرج يلتمس، لعله يجد بعض الحطابة أو أحداً يخبر قريشاً، ليخرجوا يستأمنون رسول الله ﷺ، قبل أن يدخلها عنوة، وفي نفس الوقت كان أبو سفيان قد خرج من مكة يتحسس الأخبار، ومعه حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء، فلما رأوا نيران العسكر، هالهم المنظر، وأخذوا يتراجعون بالكلام تعجباً مما يرون، فسمع العباس هذا الحوار، وعرف صوت أبي سفيان، فأخبره قائلاً: هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصباح قريش، فأركبه في عجز بغلته، وخشي عليه أن يدركه أحد المسلمين فيقتله، وأتى به رسول الله ﷺ.

فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟» قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد، قال: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنني رسول الله؟» قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً. قال العباس: ويحك يا أبا سفيان أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك، فأسلم وشهد شهادة الحق، ثم

قال العباس: يا رسول الله، إنَّ أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً، قال: «نعم، مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومَنْ أغلق عليه بابه فهو آمن، ومَنْ دخل المسجد فهو آمن».

فوسَّع الرسول ﷺ في الأمن والعفو، حتى أصبح أهل مكة لا يهلك منهم إلا معاند ومكابِر، ونهى النبي ﷺ جيشه عن استخدام السلاح عند دخول مكة إلا مَنْ اعترضهم وقاومهم، وأمر الجيش بأن يعف عن أموال أهل مكة.

وأمر الرسول ﷺ العباس بن عبد المطلب أن يجلس أبا سفيان بمضيق الوادي، عند حَظْم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها، وتحركت كتائب الفتح كأنها بحر يموج، وكانت القبائل تمر على راياتها، فكلما مرّت قبيلة سأل عنها وعن اسم القبيلة فيخبره العباس، حتى مرَّ به رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، فقال: سبحان الله يا عباس مَنْ هؤلاء؟ قال: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً، قال: يا أبا سفيان، إنها النبوة. قال: فنعم إذاً.

ثم مضى أبو سفيان، فلما جاء قريشاً، صرخ بأعلى صوته: هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله، ما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه باباً فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ففترق الناس إلى دورهم وإلى المسجد، ودخل رسول الله ﷺ مكة وهو واضح رأسه تواضعاً لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى أنّ ذقنه ليكاد يمسّ واسطة الرحل، وهو يقرأ سورة الفتح^(١).

وكان ذلك في صباح يوم الجمعة لعشرين ليلة خلت من رمضان، سنة ثمان من الهجرة، وتجلّت معالم الرحمة وسماحة الإسلام، وكرم النبوة في الفتح المبارك، ومنها أنّ رسول الله ﷺ أردف أسامة وهو ابن مولى

(١) كما جاء في صحيح البخاري رواية عن معاوية بن قرّة قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح.

رسول الله ﷺ، ومنها أن رجلاً كلمه يوم الفتح، فأخذت الرجل رعدة وانتابه الخوف، فقال له الرسول ﷺ: «هون عليك فإني لست بملك، وإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد»^(١).

ومنها أيضاً: أنه لما مرَّ سعد بن عبادة بأبي سفيان في كتبة الأنصار، قال له: اليوم يوم الملحمة، واليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشاً، فغضب أبو سفيان، فشكا إلى رسول الله ﷺ وأخبره بمقالة سعد، فاستنكر رسول الله ﷺ مقالة سعد وقال: «بل اليوم يوم المرحمة، اليوم يعز الله قريشاً، ويعظم الله الكعبة»^(٢)، ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى سعد ونزع منه اللواء، ودفعه إلى قيس بن سعد فهذا لم يتغير خاطر سعد حيث أن اللواء لم يخرج عنه، إذ صار إلى ابنه^(٣). فانظر كيف عالج رسول الله ﷺ هذا الموقف العصيب بإبدال حرف بحرف وأب بابن وأرضى أبا سفيان وهو في حاجة تأليف القلب من غير أن يسيء إلى سعد الذي هو من السابقين.

وكانت قد وقعت مناوشات قليلة أثناء دخول مكة بين صفوان وعكرمة وسهيل وبين أصحاب خالد بن الوليد، أصيب فيها من المشركين قريب من اثني عشر رجلاً، ثم انهزم الباقون^(٤).

ولما نزل رسول الله ﷺ، واطمأن الناس، ركزت راية الرسول ﷺ بالحجون عند مسجد الفتح، وخرج حتى جاء البيت فطاف به، وفي يده قوس، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنهما بالقوس ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل، إنَّ الباطل كان زهوقاً، وما يبدي الباطل وما يعيد» والأصنام تتساقط على وجهها^(٥).

-
- (١) صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: حجة الوداع.
والقديد: هو اللحم المملح المجفف في الشمس، من كتاب: النهاية في غريب الحديث (٢٢/٤).
- (٢) انظر: فتح الباري (٧/٨).
- (٣) فتح الباري (٩/٨).
- (٤) البداية والنهاية لابن كثير (٢٩٥/٤).
- (٥) البداية والنهاية لابن كثير (٣٠٠/٤).

ورأى في الكعبة الصور والتماثيل فأمر بها فكسرت، ولما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحت له، فدخلها ومعه أسامة وبلال، فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب، حتى إذا كان بينه وبينه قدر ثلاثة أذرع، وقف وصلى هناك، ثم دار في البيت، وكبر في نواحيه، ووحده الله، ثم فتح الباب وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً، ينظرون ماذا يصنع بهم، فأخذ بعضادتي الباب وهم تحته، فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو مال أو دم، فهو تحت قدمي هاتين الإسدانة البيت وسقاية الحاج، يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب»، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

ثم قال رسول الله ﷺ: «يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟»، قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ اذهبوا فأنتم الطلقاء».

ثم جلس في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله، اجتمع لنا الحجابة مع السقاية، صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة؟» فدعي له، فقال: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء»^(١).

ثم أمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يصعد فيؤذن على الكعبة، ورؤساء قريش وأشرافهم يسمعون كلمة الله تعلقوا، والنداء الخالد ينطلق، ومكة ترتج بالأذان: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله... إلخ، فخشعت النفوس، واطمأنت القلوب، وذهبت أيام الشرك، وتحطمت الأصنام، وساد الإسلام، واندحر الكفر، وعلت كلمة الله. فكان يوماً عظيماً من أيام رمضان أعز الله فيه أهل الإسلام عزة لا ذل بعدها، ورفعة لا

(١) البداية والنهاية (٤/٣٠٠).

سقوط بعدها، وكرامة أكرم الله بها من يشاء من عباده، وفتح مبين لا هجرة بعده.

ثم إنَّ رسول الله ﷺ دخل دار أم هانئ بنت أبي طالب، فاغتسل وصلَّ ثماني ركعات صلاة الفتح شكراً لله على الفتح المبين، وهكذا كان أمراء الإسلام إذا فتحوا بلدًا صلُّوا هذه الصلاة.

ولما استقر الفتح، أمّن رسول الله ﷺ الناس كلهم إلا تسعة نفر، أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، منهم من ارتد عن دينه، ومنهم من قتل مسلماً غيلةً، ومنهم من كان يشتغل ويتسلّى بهجائه، ويذيعه بين الناس، وهم: عبد الله بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، وعبد العزى بن أبي خَطل، والحرث بن نفي، ومقيس بن صباية، وهبّار بن الأسود، وقيتان لابن خَطل، وسارة مولاة لبني عبد المطلب، فأما ابن أبي سرح فجاء فاراً إلى عثمان، فاستأمن له رسول الله ﷺ، فقبل منه، بعد أن أمسك عنه رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله.

وأما عكرمة، فاستأمنت له امرأته بعد أن هرب، وعادت به، فأسلم وحسن إسلامه.

وأما ابن خطل، ومقيس، والحرث، وإحدى القينتين فقتلوا، وأما هبّار، ففر ثم جاء فأسلم، وحسن إسلامه. واستؤمن لسارة وإحدى القينتين اللتين كانتا تغنيان بهجائه، فأمنهما، فأسلمتا.

ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله ﷺ على الإسلام، فجلس لهم على الصفا، وأخذ على الناس السمع والطاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ فيما استطاعوا، ولما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء كما في سورة الممتحنة.

وقام رسول الله ﷺ في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، إنَّ الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، أو يعضد بها شجرة فإن أحد من الناس ترخص بقتال رسول الله ﷺ، فقولوا له: إنَّ الله أذن لرسوله، ولم يأذن لك، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها

بالأمس، ولبيلغ الشاهد الغائب»^(١).

وحدثت أمور كثيرة أثناء الفتح، هي من دلائل النبوة منها أنه عندما صعد بلال فأذن على الكعبة كان أبو سفيان بن حرب، وعتاب بن أسيد، والحارث بن هاشم وأشرف قريش جلوساً بفناء الكعبة، فتحدثوا فيما بينهم ولم يسمع أحد من الناس كلامهم، فخرج عليهم النبي ﷺ وأخبرهم بما قالوا مفصلاً، فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا، فنقول: أخبرك.

ومنها أنه همّ فضالة بن عمير بن الملوح الليثي أن يقتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه قال له: «أي فضالة!»، قال: نعم، يا رسول الله! فقال: «ماذا كنت تحدث به نفسك؟»، قال: لا شيء، كنت أذكر الله، فضحك النبي ﷺ ثم قال: «استغفر الله»، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، وكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري، حتى ما خلق الله شيئاً أحب إليّ منه. وبعد أن استقرّ الفتح أمر رسول الله ﷺ عتاب بن أسد الخزاعي، فجدد أنصاب الحرم.

وبعث رسول الله ﷺ سراياه إلى الأوثان التي كانت حول مكة، فكسرت كلها، ومنها اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ونادى مناديه بمكة المكرمة: مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يدع في بيته صنماً إلا كسره. فلما فتح الله لنبيه مكة، وأسلمت قريش طوعاً وكرهاً، أقبل العرب على الإسلام، إقبالاً لم يسبقه مثله، وصاروا يدخلون في دين الله أفواجاً، يصدق ذلك قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝﴾.

حدث هذا الفتح العظيم، فتح مكة في رمضان المبارك، وقد لخصته تلخيصاً غير محل، ومَنْ أراد التفصيل فيه فليرجع إلى كتب المغازي والسير، والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري ومسلم والإمام أحمد والترمذي والنسائي من حديث أبي شريح العدوي رضي الله عنه.

سُورَةُ الْمَيْدَةِ

مكية وآياتها خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ^(١) وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصِلُنَّ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ^(٢) الْحَطْبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَمٍ ﴿٥﴾﴾ .

أخبرت هذه السورة بهلاك أبي لهب عدو الله ورسوله وهو أحد أعمام النبي ﷺ واسمه عبد العزى بن عبد المطلب، وكان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وأذية له، وتنقصاً لدعوته، حتى أنه كان يترك مهامه الخاصة ويتبع النبي ﷺ ليطعن في دعوته ويصد الناس عن الإيمان به، كما سيأتي، فتوعده الله تعالى في هذه السورة في الآخرة بالنار الموقدة بصلاحها ويُشوى بها، وقرنت زوجته به في ذلك، واختصت بلون من العذاب الشديد هو حبل يكون حول عنقها تجذب به في النار، زيادة في تنكيلها لأنها كانت تؤذي رسول الله ﷺ بغضاً له ولدعوته.

وفي سبب نزول هذه السورة روى الشيخان عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ﴿١٧٤﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعد النبي على الصفا ونادى: «يا بني فهر! يا بني عدي!» (لبطون من قريش) حتى اجتمعوا. فجعل الرجل إذا لم يستطع أرسل رسولاً، لينظر ما هو. فجاء أبو لهب وقريش

(١) ﴿لَهَبٍ﴾ قرأ ابن كثير المكي بإسكان الهاء وقرأ الباقون بفتحها.

(٢) ﴿حَمَّالَةَ﴾ قرأ عاصم بنصب التاء، وقرأ الباقون برفعها.

فقال^(١): «أرأيتمكم لو أخبرتمكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: «إني لكم نذير بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت هذه السورة. أي سورة المسد.

وقيل: لما سمعت امرأته ما نزل في زوجها وفيها من القرآن، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر رضي الله عنه، وفي يدها فهر من حجارة، فلما وقفت عليه، أخذ الله بصرها عن رسول الله ﷺ، فلم تر إلا أبا بكر فقالت: يا أبا بكر إن صاحبك قد بلغني بأنه يهجونني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، والله إني لقائلة: مذمماً عصينا، وأمره أينا، ودينه قلينا، ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأيتك؟ قال: «ما رأيتني، لقد أخذ الله بصرها عني».

قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أي خسرت وخابت، والتباب هو الخسار، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧] أي في خسارة، والآية نزلت رداً على قول أبي لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا، وذلك عندما وقف النبي ﷺ على الصفا ونادى فخص وعم، وقال: «إني لكم نذير مبين بين يدي عذاب شديد» كما مرّ في سبب النزول، فالجزاء من جنس العمل، أبو لهب دعا بالتباب، فدعا الله عليه به، جزاء وفاقاً، وذكر اليمين من باب إطلاق الجزء على الكل، فالهلاك واقع عليه كله يداً وذاتاً.

واسمه كما سبق عبد العزى بن عبد المطلب، وسمي أبا لهب لإشراق وجهه، أو لأن مصيره في الآخرة ناراً تَلْطَى لهباً.

قوله: ﴿وَتَبَّتْ﴾ الأولى دعاء عليه بالهلاك والثانية إخبار بهلاكه، وقد هلك أبو لهب بعد غزوة بدر الكبرى بأيام، فلم يشهدا، بل أرسل بديلاً عنه، فلما علم بكسر شوكة المشركين في غزوة بدر، وقتل صنائديهم مات كمدأ، وقيل: أصابه مرض خطير يسمى العدسة، فمات به، وبقي ثلاثة أيام لم يدفن

(١) أي رسول الله ﷺ.

حتى إنتن، ثم إن أولاده غسلوه بالماء من بعيد مخافة العدوى بمرض العدسة، وكانت العرب تخاف من هذا المرض كالطاعون. هذا في الدنيا، أما في الآخرة فله عذاب النار، ثم قال تعالى: ﴿مَا أَعْتَقَ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ (٢) أي لما سخط الله عليه وعذبه، لم يفده شيء، ولم يدفع عنه العذاب ماله ولا ولده، قيل: إن أبا لهب كان يقول: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً، فإني أفتدي نفسي من العذاب بمالي وولدي فأنزل الله ﴿مَا أَعْتَقَ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ (٢)، وكان لأبي لهب ثلاثة أبناء، هم: عتبة، ومعتب، وعتيبة (مصرفاً)، وقد أسلم عتبة ومعتب يوم فتح مكة، وشهداء حيناً والطائف، وأما عتيبة فلم يسلم، وهو الذي دعا عليه النبي ﷺ لما جاهر بإيذائه وعداوته ورد ابنته وطلقها، وقال الرسول ﷺ: «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك» فأكله السبع في خرجة خرجها إلى الشام.

قوله تعالى: ﴿سَيَصَلُّ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (٢) أي تَوَقَّدَ واشتعال، وهي نار الآخرة، فسيدخلها ويستقر فيها ويحترق بها جزاء ما عمل من مقاومة الدين الحق، وأذية الرسول.

قوله تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ﴾ أي كذلك امرأته معه في النار، وهي من أشرف قريش، ولكن لم يغن عنها شرفها شيئاً، لأنها شاركت زوجها في الكيد والعداوة للدين الحق، وكانت عوناً له على كفره وجحوده، وهي أم جميل، واسمها أروى بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان بن حرب وعمة معاوية ﷺ، ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ بالنصب على الشتم والذم وبالرفع نعتاً، لأنها كانت تمشي بالنميمة، وقيل: إنها كانت تحمل الحطب الذي فيه الشوك وتضعه في طريق رسول الله ﷺ أذية له. وزيادة في التنكيل لها ولزوجها، فإنها ستكون حمالة لحطب جهنم، فتلقيه على زوجها ليزداد عذابهما معاً.

وقوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ (٢) أي في عنقها حبل من ليف تعذب به في النار، فتعذب بجنس ما كانت تفعل في الدنيا، فقد كانت تتقلد بحبل من الليف، فتخرج فتحتطب، فتربط به الحطب الذي تأتي به لتضعه في طريق النبي ﷺ، فقد أنزلت نفسها منزلة الحطابات مع أنها في غنى عن ذلك، وإنما فعلت ذلك لتؤذي النبي ﷺ، فواجهت أسوأ المصير، وقيل:

كانت لها قلادة في عنقها فاخرة، فقالت: لأنفقنها في عداوة محمد، فأعقبا الله منها حبلاً في جيدها من مسد في النار.

وقد كان أبو لهب من أشد أعداء الدين الإسلامي حتى أعماه هذا العدا والبغض عن تفهم حقيقة هذا الدين القيم، وحمله على عداوة ابن أخيه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، فهو من أقرب الناس إليه، ولكنه كابر وعاند وفجر ووقف في وجه دعوة الحق كما في الأخبار الآتية: روى الإمام أحمد عن ربيعة بن عباد الديلي قال: رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: «يا أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله، تفلحوا». والناس مجتمعون عليه. ووراءه رجل وضىء الوجه أحول، ذو غديرتين، يقول إنه صابئ كاذب. يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب، وفي رواية له: يتبعه من خلفه يقول: يا بني فلان! هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه.

وزوجته لم تبعد عنه حالاً، بل وافقته في الكفر والضلال، وعاونته، حتى وضعت الشوك في طريق النبي ﷺ، فكان مصيرها معه في العذاب. وفي هذه السورة معجزات باهرة، منها الإخبار بشقاء أبي لهب وزوجته، وقد وقع ذلك فماتا على الكفر، وفي السورة عظات عظيمة، منها أن مَنْ عادى ما أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ وطاوع هواه، واغتر بالأموال والأولاد والجاه، فلن يغني عنه ذلك شيئاً من العذاب الذي يستحقه.

سُورَةُ الْإِخْلَاصِ

مكية وآياتها أربع آيات

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً على سرية. وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم: بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «سلوه لأي شيء يصنع ذلك»، فسألوه. فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أخبروه أن الله تعالى يحبه». وروى الإمام أحمد عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن». وأخرجه البخاري في قصة. وروى الإمام أحمد عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: يا محمد، انسب لنا ربك فأنزل الله تعالى هذه السورة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا﴾ (١) أَحَدٌ﴾ (١).

هذه سورة الإخلاص، تحدثت عن صفات الله صلى الله عليه وسلم، الذي ليس كمثلها شيء وهو السميع البصير، الجامع لصفات الكمال، الواحد الأحد المقصود

(١) ﴿كُفُوًا﴾ قرأ حفص بإبدال الهمزة واواً وصلاً ووقفاً وغيره بالهمز، وقرأ خلف ويعقوب وحمزة بإسكان الفاء وغيرهم بضمها ولحمزة فيه وقفاً وجهان الأول: نقل حركة الهمزة إلى الفاء وحذف الهمزة، الثاني: إبدال الهمزة واواً على الرسم ولا يخفى أن التثنية بيدل ألفاً عند الوقف للجميع لأنه يصير مد عوض يمد حركتان لا غير. والوقف هنا لا يكون إلا في حال الاضطرار.

على الدوام، الغني عن كل ما سواه، المنتزه عن صفات المجانسة والمماثلة، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له من خلقه نظير ولا مشاكل. فلا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ند ولا مماثل عليه توكلنا وهو حسبنا ونعم الوكيل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) وذلك لما سأل المشركون واليهود النبي ﷺ عن ربه، وقالوا: أنسب لنا ربك أو قالوا: صف لنا ربك، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) أي هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا ند ولا شبيه لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فهو ﷻ واحد أحد، لا إله إلا هو، المعبود بحق، تعالى عما يقول المشركون علواً كبيراً، ولفظ الجلالة ﴿الله﴾ خاص بالله ﷻ، لا يطلق على غيره.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَضَمُّ﴾ (٢) أي السيد المقصود في قضاء الحوائج، الذي استغنى عن خلقه، والكل مفتقر إليه، قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُوكِدْ﴾ (٣) أي ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة، فهو ﷻ لا مثيل له، ولم يكن له ولد لانتفاء مَنْ يجانسه، إذ الولد يجانس والده، بل هو جزء منه، كما قال النبي ﷺ في فاطمة: «إنها بضعة مني» والله ﷻ لا مثيل له ولا مجانس، لأن المماثلة والمجانسة منفية عنه تعالى ليس كمثل شيء، ولم يولد لانتفاء الحدوث عنه تعالى، فهو تعالى الأول الذي ليس قبله شيء، فكيف يكون مولوداً؟ ﷻ.

وفي الآية رد على ثلاث طوائف منحرفة من بني آدم، وهم المشركون واليهود والنصارى، لأن المشركين جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وقالوا: إن الملائكة بنات الله، واليهود قالوا: عزيز ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، فكذبهم الله بقوله: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُوكِدْ﴾ (٤).

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (٥) أي لم يكن له أحد مساوياً في جميع صفاته، فنفى ﷻ عن نفسه أن يكون له ولد أو مولوداً أو له مثيل، فهو ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قال البخاري: حدثنا قتيبة بن سعد، حدثنا المفضل بن فضالة، عن عقيل ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة أن النبي ﷻ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (٦) و﴿قُلْ

أَعُوذُ بِرَبِّ أَلْفَلَقِ ﴿١﴾ ﴿٢﴾ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ ﴿٢﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

وقال البخاري: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله تعالى: كَذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي، فقلوه: لن يعيدني كما بداني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته وأما شتمه إياي فقلوه: اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفواً أحد».

قال ابن تيمية^(١): كما يجب تنزيه الرب عن كل نقص وعيب، يجب تنزيهه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفات الكمال الثابتة له. وهذان النوعان يجمعان التنزيه الواجب لله. وهذه السورة دلت على النوعين. فقلوه: ﴿أَحَدٌ﴾ من قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهٗ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ﴿١﴾ ينفي المماثلة والمشاركة. وقوله: ﴿الصَّمَدُ﴾ يتضمن جميع صفات الكمال. فالنقائص جنسها منفي عن الله تعالى. وكل ما اختص به المخلوق فهو من النقائص التي يجب تنزيه الرب عنها، بخلاف ما يوصف به الرب. ويوصف العبد بما يليق به مثل: العلم والقدرة والرحمة ونحو ذلك. فإن هذه ليست نقائص بل ما ثبت لله من هذه المعاني، فإنه يثبت لله على وجه لا يقاربه فيه أحد من المخلوقات، فضلاً عن أن يماثله فيه. بل ما خلقه الله في الجنة من المآكل والمشارب والملابس لا يماثل ما خلقه في الدنيا وإن اتفقا في الاسم، وكلاهما مخلوق. فالخالق تعالى أبعد في مماثلة المخلوقات من المخلوقات إلى المخلوق. وقد سمى الله نفسه عليماً حليماً رؤوفاً رحيماً سميعاً بصيراً عزيزاً ملكاً جباراً متكبراً، وسمى أيضاً بعض مخلوقاته بهذه الأسماء، مع العلم أنه ليس المسمى بهذه الأسماء من المخلوقين مماثلاً للخالق صلى الله عليه وسلم في شيء من الأشياء.

(١) مجموع الفتاوى (١٧/١٠٨).

سُورَةُ الْفَلَقِ

مدنية وآياتها خمس آيات

روى مسلم في صحيحه عن عقبه بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ﴿١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ﴿٢﴾».

وروى الإمام مالك عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه بالمعوذات وأمسح بيده عليه رجاء بركتها. ورواه البخاري ومسلم. وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنسان، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما. رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ .

في هذه السورة الأمر بالالتجاء إلى الله تعالى والاستعاذة به من شر كل ذي شر، فلا عصمة للعبد إلا بالله تعالى، وخص ثلاثة أمور، وهي: الغاسق إذا وقب، والنفاثات في العقد، والحاسد إذا حسد، لأن الضرر في هذه الأمور الثلاثة يكون خفياً، فالليل ستر وغشاء يكمن فيه الشر ولا يعلم، والسحر خفي لا يعلم كذلك، والحاسد إذا حسد، ومن الحسد عين العائن، فتصيب دون العلم بها، فلا سبيل إلى السلامة من هذه الشرور إلا بالالتجاء

إلى الله تعالى وتعلق القلب به، والتوكل عليه وتفويض الأمر إليه ﷺ،
والمداومة على الأوراد الشرعية التي بها يحصن العبد نفسه صباحاً ومساءً وفي
كل حين بقلب حاضر، وهذه السورة هي إحدى المعوذات التي ينبغي
المحافظة على قراءتها كما في السنة صباحاً ومساءً وعند النوم، وهي
الإخلاص والفلق والناس.

نزلت هذه السورة - كما جاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها - في قصة
سحر لبيد بن الأعصم اليهودي رسول الله ﷺ. والنفاثات: بناته اللواتي كن
ساحرات، فسحرن النبي ﷺ، وعقدن له إحدى عشرة عُقْدة، فأنزل الله تعالى
إحدى عشرة آية بعدد العقد، هي المعوذتان، فشفي النبي ﷺ.

وقصة هذا السحر: أن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر النبي ﷺ - ولكن
لم يؤثر السحر فيه وعوفي منه - سحره في جُفِّ (قشر الطلع) فيه مشاطة
رأسه ﷺ، وأسنان مشطه، ووَتَّرَ معقود فيه إحدى عشرة عُقْدة مغروز بالإبر،
فأنزلت عليه المعوذتان، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، ووجد ﷺ في نفسه
خِفَّةً (نشاطاً) حتى انحلت العُقْدة الأخيرة، فقام، فكانما نشط من عقال.
وجعل جبريل عليه السلام يرقى رسول الله ﷺ، فيقول: «باسم الله أرقيك، من كل
شيء يؤذيك، من شر حاسد وعين، والله يشفيك».

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أي ألوذ به وألتجئ إليه،
والفلق الصبح، قال ابن عباس: ﴿الْفَلَقِ﴾ الصبح كقوله تعالى: ﴿فَالِقُ
الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]. وقال ابن تيمية: كل ما فلقه الرب فهو فلق، وقال
الحسن: الفلق كل ما انفلق عن شيء كالصبح والحب والنوى ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾
﴿١﴾ أي من شر جميع المخلوقات من الإنس والجن والدواب والهوام وغير
ذلك، ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ﴿٢﴾ أي ومن شر الليل، إذا أظلم واشتد
ظلامه، ففيه ينتشر أهل الشر من الإنس والجن، وتكثر فيه الهوام والوحوش،
فلذلك أمر أن يُتعوذ من شر الغاسق، أي الليل.

وورد أن الغاسق هو القمر كما في الحديث عن النبي ﷺ أنه أرى عائشة
القمر وقال: «هذا هو الغاسق» [أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن]. وإنما كان
القمر غاسقاً لأن سلطانه يكون في الليل.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ أي من شر السواحر اللاتي يعقدن عقداً من خيوط وينفثن فيها ليعضروا الناس بسحرهم، ويفرقوا بين الرجل وزوجه ﴿وَمَا هُمْ بِضَكَارَيْنِ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أي ومن حاسد يتمنى زوال النعمة عن غيره، وهذا هو الحسد المذموم، أن يتمنى زوال النعمة عن المحسود وإن لم يصر للحاسد مثلها، وأما الغبطة فهي تمنى مثلها وإن لم تزل عن غيره، وتسمى المنافسة، ولا بأس بها، وفي الحديث: «المؤمن يغبط والمنافق يحسد»، وفي الصحيحين «لا حسد إلا في اثنتين...» الحديث^(١). والحسد أول ذنب عصي الله به في السماء، وأول ذنب عصي الله به في الأرض، فحسد إبليس آدم، وحسد قابيل هابيل، وفي الحديث: «ياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»، أخرج البيهقي في الشعب عن أنس رضي الله عنه قال: «كنا عند النبي ﷺ جلوساً فقال: يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار تنظف لحيته من وضوئه قد علق نعليه في يده الشمال فسلم، فلما كان من الغد. قال النبي ﷺ مثل ذلك فطلع الرجل مثل مرته الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضاً فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأول، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال: إني لاحيت أبي فاقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً فإن رأيت أن تأويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت قال: نعم، قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه ثلاث ليال فلم يره يقوم إلا لصلاة الفجر، وإذا تقلب على فراشه ذكر الله وكبره، ولا يقول إلا خيراً. فلما مضى الثلاث ليال وكدت احتقر عمله قلت يا عبد الله: لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة فطلعت أنت الثلاث مرات، فأردت أن أوي

(١) تمام الحديث: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار» رواه البخاري ومسلم.

إليك فأنظر ما عملك فلم أرك تعمل كثير عمل، فلما وليت دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي غشاً على أحد من المسلمين ولا أحسده على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله: فهذه التي بلغت بك وهي التي لا تطاق.

سُورَةُ النَّاسِ

مدنية وآياتها ست آيات

ورد في فضل هذه السورة الكريمة، كالسورة المباركة التي قبلها أحاديث كثيرة، منها ما روى مسلم في صحيحه عن عقبه بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾».

وروى الإمام مالك عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقر عليه بالمعوذات وأمسح بيده عليه رجاء بركتها. ورواه البخاري ومسلم. وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنسان، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما. رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (١) ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ (٢) ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ (٣) ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ (٤) ﴿الَّذِي يُوسَسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ (٥) ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ (٦).

الإنسان ضعيف لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الضرر، فلذلك أمر الله تعالى في هذه السورة والتي قبلها بالإلتجاء إليه، والاستعاذة به في دفع كل ما يمكن أن يصيب الإنسان من الشرور بسبب غلبة شهوة أو تسلط شيطاني من الجن أو الإنس، لذلك أمر الله تعالى بالاعتصام به والإلتجاء إليه، فقال

تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (١) وهو الله تعالى، رب كل شيء ومليكه، ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ (٢) أي الملك الذي له السلطة العليا في الناس، والتصرف الكامل هو الله ﷻ ﴿إِلَهُ النَّاسِ﴾ (٣) أي إلههم المعبود بحق الذي لا إله لهم سواه.

قال ابن كثير: هذه ثلاث من صفات الرب ﷻ: الربوبية والملك والإلهية، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له مملوكة عبيد له، فأمر المستعبد أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات. اهـ. «تفسير ابن كثير» (٦١٥/٤).

قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ أي الشيطان ذي الوسوسة، الذي يغري الناس بالمعاصي ويزينها لهم ﴿الْخَنَّاسِ﴾ الذي يخنس ويتأخر إذا ذكر العبد ربه، ثم إذا غفل عاد إلى الوسوسة، ولا يحميك منه أيها المسلم إلا ذكر الله تعالى، فلذُ بربك وفرَّ إليه تجد النجاة. وقوله: ﴿الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ (٤) أي يلقي بصوت خفي في صدور الناس ما يصرفها عن الحق، ويزين لها القبيح وفعل الذنوب وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ أي إن الوسوسة التي سبق الأمر بالتعوذ بالله منها ومن فاعلها تكون من الجن ومن بني آدم، كقوله تعالى: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]. وروى الإمام أحمد عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن».

فوسوسة الجن تُطرد بالاستعاذة بالله تعالى، لأنه إذا ذكر الله تعالى خنس الشيطان، أما وسوسة بني آدم فهي أصعب، لأنه قد يزين الباطل ويلبسه ثوب الفضيلة، ويظهر بمظهر الناصح، فتعوذ أيها المسلم بالله تعالى من شر الوسواس جنياً كان أو إنسياً، فالله تعالى هو الملاذ وهو المستجار به ولا نجاة إلا في الإلتجاء إليه والاعتصام به ﷻ.

اللهم إنا نسألك السلامة.